الشـهاب

شهادة روائية

د. حامد أبو أحمد

د. حامد أبو أحمد: الشهاب (شهادة روائية)

الحضارة للنشر

7 شارع أبو السعود - الدقى 12311 - القاهرة

Al-Hadara Publishing
7 Abou El-Seoud Street
Dokki 12311, Cairo, Egypt

Tel.: (20-2) 3761 94 39
Mobile: (20-12) 316 48 67

E-mail: ask@alhadara.com
E-mail: hadara@idsc.net.eg
www.alhadara.com

الطبعة الثانية: مارس **2011**
رقم الإيداع بدار الكتب **5290 /2011**
I.S.B.N. 978-977-476-101-0

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إلي الذين يبحثون عن الحرية

والعدالة

الإهـداء

إلي صلاح عبد السيد ومحمد كشيك اللذين استفدت
من آرائهما أثناء كتابتي لهذه الشهادة الروائية

د. حامد أبو أحمد

تقديم

"شهاب" حامد أبو أحمد
إدانة مثقف خارج "الحظيرة" لعصر مبارك

الشاعر ماجد يوسف

• صدر – أخيرا – كتاب "الشهاب" شهادة روائية للدكتور حامد أبو أحمد.. والدكتور حامد أبو أحمد هو الناقد والأستاذ المعروف، الذى أثرى المكتبة العربية بالعديد من مؤلفاته وترجماته عن أدب أسبانيا، والناطقين بالأسبانية من أدباء أمريكا اللاتينية، هذا بالإضافة إلى دراساته النقدية المتعددة عن الرواية والقصة والمسرح والشعر فى مصر وغيرها.

ولكنه، فى هذا الكتاب الأخير (الشهاب) يخرج عن مألوف ما عهدنا معه من دراسات وأبحاث وترجمات، تدور كلها فى النهاية فى إطار تخصصه، وتقع فى صلب معرفته الأكاديمية.. إلى ميدان الكتابة السياسية المباشرة، التى تصطنع التحليل الاقتصادى أحيانا، والاجتماعى فى أحايين أخرى، والثقافى فى معظم الأحيان.. ولكن فى إطار من كتابة أدبية شائقة، وأسلوب فنى جذاب، لعلهما السر وراء هذا العنوان الفرعى الذى احتل موقعه أسفل العنوان الرئيسى (شهادة روائية).

ومع اعترافى بما يحتوى عليه الكتاب – بدون شك – من تشويق وامتاع وجاذبية، – حتى أن كل ذلك مجتمعا يمسك بك كقارئ حتى تنتهى من الكتاب دفعة واحدة – ولكننى أميل إلى اعتبار الكتاب (سيرة ذاتية)

بالأساس، تتواشج معها (شهادة) توشك أن تكون توثيقية عن الثلاثين سنة الأخيرة تحديدا، أو عن عصر مبارك إذا شئت الدقة.. وإن امتدت إلى ما قبل ذلك بطبيعة الحال.. إلى الستينيات ربما.. كمرحلة أولى لتشكل وعى الكاتب، وتبلور رؤيته للواقع، وإدراكه لطبيعة الحياة السياسية والثقافية والفكرية والاجتماعية.. الخ فى مصر، وتكوين وجهة نظر محددة عن هذا الواقع، الذى تابع الكاتب حركته وتطوره وتبدياته على كل الأصعدة، منذ الستينيات وحتى الآن، مع التركيز اللافت والدقيق على عصر مبارك خصوصا كما أشرنا.

والسيرة/ الشهادة، تتميز بامتزاج الخاص والعام فيها طيلة الوقت، وهو ما يعكس الرؤية النافذة للكاتب، واتساع منظوره الرابط باستمرار، بين السياسى والاجتماعى والفكرى.. الخ من ناحية، وبين الذاتى والشخصى فى مساره المتلاحم دائما مع مسار الوطن الذى يتسع – انطلاقا من مصر – ليشمل دولا عربية أخرى كالسعودية وليبيا، بالإضافة إلى العديد من الدول الأجنبية المختلفة فى أنحاء العالم، مما وسع من زوايا النظر والحكم على الأوضاع والسياسات بمنهج مقارن لا يقف فقط عند (مظاهر) الاختلاف و(أشكال) التباين بين مجتمعات مختلفة.. متقدمة ومتخلفة، وإنما يغوص إلى الأسباب الأكثر عمقا فى تحليله للظواهر البادية، أو للنتائج العيانية.. فيرصد المرتكزات التى تصنع التقدم هناك والتخلف هنا.. من الديمقراطية السياسية، وعقلانية التعليم، واتساع نطاق الحرية ومفهومها، وصلابة حقوق المواطنة، وحتمية سيادة القانون، وإعلاء حقوق الإنسان، إلى آخر مفردات المنظومة التى يعنى حضورها (التقدم) ويعنى غيابها، ليس التخلف فقط، وإنما الدكتاتورية والاستبداد، وتغول الدولة البوليسية،

وهيمنة البعد الأمنى – بمفهوم ضيق ينسحب ربما على رجل واحد أو بضعة أفراد – على كل شئون البلاد والعباد.. فى الصحافة والثقافة والإعلام والجامعات والمؤسسات المختلفة والوزارات كافة.. الخ.

* * *

المدهش فى كتاب د. حامد أبو أحمد، أننا تعودنا من المثقفين المصريين (الانسحاب) و(الابتعاد) عن هكذا موضوعات، اللهم إلا إذا كان الكاتب كاتبا سياسيا – جريئا وشجاعا – بالأساس.. كعبد الحليم قنديل أو أحمد بهاء الدين شعبان أو جمال فهمى أو غيرهم، وما أقل هذه النوعية حتى بين الكتاب السياسيين الذين يميل معظمهم إلى الممالأة والمهادنة، والبعد عن الموضوعات التى تمس السلطة وممارساتها المنحرفة وتعاطيها الفاسد مع مجمل قضايا الوطن والمواطن، أو يحذرون الاقتراب مما يسمى (الخطوط الحمراء) إيثارا للسلامة، وتوقيا للملاحقة، ونأيا عن المصادرة، وإيذاء الكاتب فى رزقه وحياته وعمله وفعالياته كلها، وتطلعا – أيضا – للمكافآت والمغانم والمناصب والفرص، بمنطق ذهب المعز وسيفه، حتى أن وزير الثقافة قال فى يوم من الأيام متحدثا عن المثقفين إنهم فى مجموعهم الأغلب قد دخلوا (الحظيرة) وتم تدجينهم من قبل السلطة الثقافية القائمة على شئون الحياة الثقافية لمدة تقارب ربع القرن الآن!.

ومن هنا تأتى الأهمية البالغة لهذا الكتاب الشجاع الذى (داخ) مؤلفه فى العثور على ناشر حر يماثله فى شجاعته ويوازيه فى جرأته، فخاب سعيه، حتى اضطر إلى طبع الكتاب على حسابه، وكان من اللافت للنظر أن الكتاب جاء عاريا من أية بيانات معتادة محددة لوضعية الكتاب ومعالمه الخارجية.. كاسم الناشر أو المطبعة أو رقم الإيداع أو سنة الطبع أو تاريخ الإصدار.. الخ!.

وبرغم استعانة المؤلف فى الفصول الأربعة عشر التى قسم الكتاب إليها، بمقتطفات رئيسية من كتب خمسة.. هى "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" لعبد الرحمن الكواكبى، و"روح القوانين" لمونتسيكيو، و"الإسلام والاستبداد السياسى" لمحمد الغزالى، و"الإسلام بين العلم والمدنية" للإمام الشيخ محمد عبده، وأخيرا "الاغتيال الاقتصادى للأمم" لجون بركنز.. إلا أنه اكتفى من هذه الكتب الخمسة فى مفتتح كل فصل، بمقتطفات ضافية ودالة، فى مطلع كل فصل، على طبيعة الأفق الذى يجترحه هذا الفصل، ويناقش فيه بعدا من أبعاد هذا الخراب الشامل الذى نعيشه!.. ولكن الملاحظة التوأم لهذه النقطة تحديدا، أن المؤلف لم يستغرق فى تحليل الجوانب النظرية، والأبعاد السياسية، والمستويات الاجتماعية لهذا الخراب المستعجل الذى استغرق أصحاب الطروحات النظرية المشار إليها، وإنما غلف هذه الطروحات باستمرار بمادة دافئة من لحم تجربته الحياتية، وسخونة سيرته الذاتية، وتجلى العجينة العضوية الحية للواقع الماثل والأوضاع القائمة.. فأنقذ كتابه – وقارئه – من الوقوع فى براثن التحليل المجرد، أو البحث النظرى المستغرق للواقع لدرجة تغييب الوقائع والظروف والملابسات والأحداث.. ولعل هذا النهج البصير هو ما أعطى باستمرار لكتابه صدقيته وحقيقته، لما يلمسه القارئ طيلة الوقت من حضور الحياة الواقعة التى يكابدها ويحياها، بكل تفاصيلها المرعبة، طيلة الوقت، فى أسلوب جذاب، وسرد شائق، وحكى مسترسل لا اصطناع فيه ولا افتعال أو حذلقة وادعاء.. بل إنك لتشعر، طيلة الوقت، أن الكاتب قد ترك نفسه على سجيتها، وترك قلمه على طبيعته، بمنهج هو أقرب إلى التداعى الحر، لا يعنى بالترتيب التاريخى لذكرياته، ومكابدات الحياة فى

وطنه، ولا بالرصد المتراتب المتتابع للوقائع والأحداث.. وإنما ترك لها – هذه الأحداث والوقائع – أن تحضر لدعم المقولات، وتأكيد وجهات النظر، وإبراز التحليل، حسبما يفرض ذلك منطق الواقعة نفسها، أو تلح به الأحداث ذاها، دون تأريخ مرتب بدقة، أو تسجيل زمنى متتابع بالضبط، ومن ثم كان التحليل فى خدمة الوقائع ومادة الحدث الحية، وكان التأمل والتفكر مبنيا على الواقعة ونتيجة لها، وكانت مستخلصات الكاتب بالضرورة مستقاة فى النهاية من لحم المكابدة المعجونة بالحياة الموارة، والأحداث النابضة بالدلالات والنتائج لمن أراد التأمل والتفكر والاستخلاص..

وشكلت بالتالى استشهاداته ومقتطفاته من الكتب المشار إليها، الدعامات الفكرية والمنطلقات النظرية، والأوعية المجردة لما قاله المؤلف معجونا بالواقع وممتلئا بالحياة، وضاجا بالأحداث كما قلنا.

ولعل هذه الطريقة فى السرد والحكى، هى ما حدت به إلى اصطناع هذا "الجنى" المستدعى من غيابات تراثنا الأدبى (الصلادم) ليخوض حوارا معه بين الحين والحين حول مفارقات ومبكيات الواقع.. ودائما ما يكون هذا (الصلادم) فى تلك اللحظات هو الصوت المندد والساخر بممارسات الساسة ورجالات الحكم وفسادهم وخراب الواقع وتردياته الفاحشة على كل صعيد.. ولكنه – من الناحية الفنية – بدا (كوسيلة إيضاح) ملصوقة، أو كخط يضعه المؤلف تحت مقولاته المهمة، وانتقاداته الحارقة، وكأنه يخشى أن تغيب دلالة الفصل المعين من كتابه وتغيم محتوياته أو مرتكزاته الأساسية، ومن ثم يستدعى هذا (الصلادم) ليجرى معه حوارا خارجيا (تعليميا) (ملصوقا) و(مضافا) ولا حاجة له فى الحقيقة.. لأنه ظل فى كل

الأحوال تزيدا لا ضرورة له يصل إلى حد السذاجة أحيانا، ولم يفلح الكاتب – فيما يصر على وجوده – فى أن (يعضونه) بنسيج عمله، ويجعل منه بعدا (بنائياً) مركزياً وأساساً في تشييد عالم كتابه.. وربما لو كان نجح في هذه المسألة، لحق له – ولنا– أن نتحدث عن (الروائية) هنا على أى مستوى أراد.. ولكن هذه الشخصية (العفريتية) المستدعاة من بطون التراث في وادى عبقر أو غيره.. ظلت طيلة الوقت (خارجية) و(ناتئة) و(ملصوقة) كما قلت، وفى الحقيقة، لا ضرورة لها بالمرة، حتى أن الكاتب كثيراً ما نحاها أو نسيها أو غفل عنها في حمى سياقاته الساخنة الطازجة والعفوية والمليئة بالدفء، وتشعر أنه كان يعود لتذكرها – هذه الشخصية أو هذا الصلادم – كلما توقف ليبدأ فصلاً جديداً أحياناً، أو لينتقل إلى مرحلة أخرى في سيرته أو شهادته في أحايين أخرى...

ولكن، وبغض النظر عن هذا العيب الصغير، الذى أتمنى على الكاتب ملافاته وملاشاته في الطبعة القادمة الكبيرة للكتاب، وهى لابد قادمة!

يبقى كتاب حامد أبو أحمد، شهادة جريئة وشجاعة على هذا العصر الردئ في التاريخ المصري الحديث (عصر مبارك).. ولعل جرأتها وشجاعتها تأتي من أن الرجل لم يتورع عن تقديم هذه الشهادة في عز وجود الرجل، وفي عز عصره ورجاله وحزبه الذين يسدون الأفق على الناس، وعلى أي صعيد، وفي ظل تغول أنظمته البوليسية، وأجهزة قمعه المتضخمة، وأنه أثبت بذلك أن المثقف الحق لا يدخل (الحظيرة) أبداً، ولا يصمت عن قوله "الحق" في الزمان والمكان المناسبين، وأنقذ نفسه بهذه الشهادة من تلك الشجاعة المتأخرة التى تعترى معظم مثقفينا، وتأتيهم بعد فوات الأوان، وتغير الظروف، وتباين العهود، وضمان الأمن، والإطمئنان

إلى تبدل العهد، أو غياب الرئيس، وهى – ساعتها – شجاعة لا تقنع أحداً، ولا تحظى باحترام، ويقابلها القارئ (الفاهم) بابتسامة ساخرة بينه وبين نفسه، وكأنه يردد ساعتها مثلنا الشعبي المعروف (بعد العيد لا يفتل الكعك) كما يقولون. وهذا الكتاب هو – بأى مقياس أردت– عيد الحرية، وبهجة للكتاب الأحرار، وفرحة بوجود مثل هؤلاء المثقفين الأفذاذ الذين آثروا الشهادة على عصرهم مهما كانت المخاطر، ومهما كان حجم التهديد المادي أو المعنوى الذى قد يتعرضون له.. لأنهم – فيما هم يختارون هذا الاختيار الحق، ينسجمون مع التعريف الأعظم والأجمل والأصدق (للمثقف) باعتباره– باستمرار– صوت أمته، وضمير شعبه، والناطق بلسان أهله الذين علموه ورفعوه ليدافع عنهم وعن حقوقهم، وحقهم في الوجود الإنساني الشريف.. وألاحظ من كل ذلك، أن المثقف الحق– كما اتفقت على ذلك معظم الأدبيات في تعريفه– هو صاحب الصوت (الناقد) باستمرار للسلطة، مهما كانت هذه السلطة، حتى وهى – افتراضاً – فى أبهى حالاتها الديمقراطية، وفي أفضل ممارساتها على الأصعدة كلها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.. إلخ، يظل المثقف الحقيقي والعضوى هو هذا الصوت الناقد والمقوم والرادع والمنذر والمنبه والمحذر والموقظ، حتى لو كانت هذه السلطة في أعلى حالاتها الديمقراطية، وأحلى صورها التى تبدو فيها حريصة على الشعب وحقوق الناس ومصالح الجماهير، كما قلنا (افتراضاً).. فما بالك، بدور المثقف إذا كانت هذه السلطة عكس كل ذلك.. تجبرا، واستبداداً، وديكتاتورية، وسدا للأفق، ومنعاً للتطور، وسقوطاً في حبائل أعداء الأمة، وتكريساً للشخصي والضيق والخاص.. على حساب الشعب والوطن.. تضحية بدورهما..

تقزيماً لوزنهما، وتصغيراً لشأنهما، ونهباً لثرواتهما.. ألا يكون كل هذا أدعى بأن ينطق المثقف الحق بشهادته الحقة في وجه هذا الطغيان والاستبداد؟!

وهو ما فعله- بعظمة- حامد أبو أحمد، الأستاذ الجامعى، والكاتب والناقد والمترجم، الذى فاض به الحال، وطفح به الكيل، فخرج ليعلن شهادته على الملأ وليقدم درساً، عسى الجميع من مثقفينا الأفاضل، أو (الأناضل) – وهو جمع ساخر للمناضل- يحتذون به جميعاً قبل فوات الأوان.

تحية لحامد أبو أحمد، ولكتابه الشهادة (الشهاب).

مقدمة الطبعة الثانية

لم أكتب مقدمة للطبعة الأولى من هذا الكتاب، ولم أضف إليه في هذه الطبعة الثانية كلمة واحدة فيما عدا العنوان الذى أضفت إليه: "ثلاثون عاما من فساد مبارك ونظامه". ولكن لهذا الكتاب قصة: فمنذ وصول حسني مبارك إلى السلطة في أكتوبر عام 1981 لم أكن مستريحاً لهذا الشخص وتوقعت أن تصل مصر إلى حالة الانهيار. وفي أوائل سبتمبر 2010 زاد فزعى من سوء الأوضاع التى وصلنا إليها، والنهب والسلب في البلد الذى كنا نشاهده عياناً بياناً، وتزوير انتخابات مجلس الشورى بطريقة فجة لم يكن لها مثيل من قبل، وحالة الفقر الشديدة التى وصل إليها المجتمع المصري، والتفاوت الرهيب بين الطبقات، والتفاوت الرهيب بين المرتبات، حيث هناك من لا يجد وظيفة بمائتي جنيه ومن يصرف له راتب بالمليون أو بالآلاف في الشهر، وتدنى مستوى الخدمات وخاصة في المدن والقاهرة الكبرى التى صارت فيها الفوضى هى السائدة مع أنه من المفروض أننا نعيش في مجتمع حديث. هناك أيضاً التردى في كل المؤسسات الحكومية بما فى ذلك مؤسسة الأزهر التى أنتمى إليها، والتى جاء شيخها الأخير الدكتور أحمد الطيب من لجنة السياسات، وهذا لم يحدث فى تاريخ الأزهر. كذلك زيادة قبضة الأمن ومباحث أمن الدولة لدرجة أنهما أصبحا يتحكمان في كل شيء. وقد تصور النظام أو توهم أنه بالأمن يمكن أن يكتم كل الأفواه ويقمع كل الناس ويخرص كل الألسنة.. كل هذه الأشياء وكثير غيرها دفعتنى إلى البدء فى كتابة هذا الكتاب، وعلى الرغم من أن بعض الإخوة حذروني من أنى يمكن أن أحاكم وأدخل

السجن، لكنى قلت لهم: ما أعذب السجن في هذه اللحظة!! كان لدى إحساس غامر بأن المثقفين ينبغي أن يأخذوا زمام المبادرة ويكشفوا عن كل ما عاينوه وشاهدوه ولا يخشوا في الله لومة لائم، فلا يمكن أن تستمر مصر فى هذا الوضع المتردى: أهل الحكم ينهبون البلد ويضعون الأموال في جيوبهم والشعب بائس فقير لا يجد قوت يومه، لا سيما خلال هذه السنوات الأخيرة التى صار فيها الغلاء فاحشاً وقاسياً ليس بالنسبة للطبقات الفقيرة فقط وإنما بالنسبة للطبقة المتوسطة أيضاً.

انتهيت من الكتاب يوم **2010/12/23** وكذلك من طباعته على الكمبيوتر وبدأت أبحث بسرعة عن ناشر. لا أدرى لماذا كنت أحس في أعماقي أن عصر مبارك أوشك على نهايته. كلمت عدداً من الناشرين الذى تعاملت معهم من قبل وأخبرتهم بمضمون الكتاب فكانوا يعتذرون واحداً بعد الآخر فقررت أن أطبعه على حسابي. أخذته لمطبعة خاصة فوعدونى بأن يقدموه لي مطبوعاً بعد اثنى عشر يوماً، لكنى فوجئت بعدها بيومين باتصالهم بي وأخبروني أنهم انتهوا من طبع الكتاب. والذى حدث أنهم وهو يقومون بتنسيق الكتاب وجدوا أنه يتحدث عن مبارك بالإسم ويصفه بالدكتاتور ويتناول سيئات عصره فخافوا من أن يهجم عليهم أحد من مباحث أمن الدولة ويحدث لهم ما لا تحمد عقباه، ولذلك سهروا على الكتاب حتى أنجزوه في يومين فقط. وبدأت منذ أوائل يناير **2011** أوزع الكتاب هدية على الأصدقاء في المجال الثقافي وفى الصحافة، ولم أكن أتوقع أبداً أن الثورة قريبة جداً وأنها ستبدأ هذه البداية العظيمة يوم **25** يناير **2011**. لقد سبقنا الشباب ولابد أن نحنى لهم الهامات وأن نحييهم على هذه الثورة العملاقة التى أنجزوها. والرحمة كل الرحمة للشهداء الأبرار من

الشباب والأطفال والكبار الذى سقطوا في حومة الميدان. كانت ثورة سلمية لكن النظام أبي إلا أن يرتكب آخر حماقاته، وهذا ما تفعله الأنظمة الدكتاتورية عادة: فالدكتاتور لا يترك السلطة إلا مضطراً، إما بالهروب كما حدث مع الدكتاتور التونسي زين العابدين بن علي، وإما بالإمساك به وإعدامه كما حدث مع دكتاتور رومانيا نيقولاى شاوشيسكو.. إلخ. لكن الدكتاتور يظل إلى آخر لحظة متشبثاً بالسلطة ويستخدم كل أوراقه كما حدث مع حسني مبارك.

يحتوي الكتاب على أربعة عشر فصلاً، ويبدأ كل فصل بكلمات مأخوذة من بعض الكتب التى تحدثت عن الدكتاتورية والفساد مثل كتاب عبد الرحمن الكواكبي "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" وكتاب الشيخ محمد الغزالي "الإسلام والإستبداد السياسي"، وكتاب الإمام محمد عبده "الإسلام بين العلم والمدنية"، وكتاب "جون بركنز" "الإغتيال الإقتصادي للأمم"، وكتاب مونتسيكو "روح القوانين".

والكتاب يجمع بين الشهادة والسيرة الذاتية. الأولى شهادة على ثلاثين عاماً من حكم مبارك، والثاني مقتطفات من السيرة الذاتية، وكل هذا مكتوب بطريقة سردية روائية تؤدى إلى التشويق بدلاً من الكتابة الأكاديمية التى يمكن أن توصف بالجفاف.

ولعل من أهم ما ورد في الكتاب هو:

التعليق على الأحداث الجارية مثل انتخابات مجلس الشورى، ومجلس الشعب الأخيرة. ومما قلته تعليقاً على انتخابات مجلس الشعب (الفصل الثالث عشر): ولا شك أنى من قرءاتي لكل ما حدث للأنظمة الدكتاتورية أرى أن نظام حسني مبارك أصبحت نهايته وشيكة. لقد فقد النظام البوصلة التى كانت توجهه وتضبط أفعاله وتحول بينه وبين الانحدار

الكامل. الآن وصل هذا النظام إلى مرحلة الانحدار، وارتكب من الأفعال ما لا يمكن الدفاع عنه أو تبريره. لقد سقطت ورقة التوت الأخيرة، وهذه الورقة عندما تسقط لا يستطيع أحد إعادتها إلى مكانها".

أيضاً تناول الكتاب الأوضاع المتردية في الأزهر، وحكيت كيف كنا منذ عام **1984** نطالب بأن يكون منصب شيخ الأزهر بالانتخاب من هيئة كبار العلماء وشرحت المشاكل التى تعرضت لها واستدعائي لمباحث أمن الدولة.

كذلك ناقشت مشاكل الفقر، والتعليم، والصحة، والبحث العلمي، وغير ذلك وطرحت حلولاً لهذه المشكلات. كما قارنت بيننا وبين العالم الخارجي لا سيما العالم المتقدم الذى لا نقل عنه وعياً وإدراكاً لكننا كنا في حالة انفصال شبه كامل عما يجري في العالم.

ولعل من أهم ما ناقشته في هذا الكتاب مشاكل الدكتاتورية والسيئات التى تترتب عليها. وقد أخذت أمثلة من أسبانيا وأمريكا اللاتينية لا سيما وأن هذه القارة عانت كثيراً من سيئات الحكام المستبدين. وقد تناولت بعض الكتب المهمة في هذا المجال مثل رواية "السيد الرئيس" لميجيل آنخل أستورياس وهى تتناول مساوئ الدكتاتورية، حيث يقول أستورياس إن الدكتاتورية هو أسوء شئ يمكن أن يتعرض له أى مجتمع.

الكتاب إذن عن الدكتاتور وبالتحديد الدكتاتور المصري محمد حسني مبارك الذى حكم البلد بالحديد والنار والقبضة الأمنية البوليسية على مدى ثلاثين عاماً عانى الشعب خلالها من كل صنوف القهر والتزييف والتزوير. فشكراً لهذا الشباب الواعي الذى حقق ثورة **25** يناير **2011**، وهى ثورة مجيدة في تاريخ مصر والمنطقة والعالم.

القاهرة في **2011/2/22**

الفصل الأول

العــودة

- لا توجد في الدول المستبدة قوانين علي الإطلاق بل عادات وأوضاع، فإذا ما قلبتموها قلبتم كل شيء. والقوانين تسن والعادات تلقن، وهذه أكثر اتباعا للروح العامة.

(مونتسكيو "روح القوانين")

- الاستبداد أعظم بلاء، يتعجل الله به الانتقام من عباده الخاملين ولا يرفعه حتى يتوبوا توبة الأنفة.

(عبد الرحمن الكواكبي "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد")

- عادات الشعب المستعبد جزء من عبوديته وعادات الشعب الحر جزء من حريته.

(مونتسكيو "روح القوانين")

كنت جالسا علي أحد المقاعد الخشبية المنتشرة في الحديقة التي تطل عليها شرفة شقتي في حي سانتا ماريا في مدريد. وكانت قد مضت عدة أيام بعد حصولي علي درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة كومبلتنسي **Coplutense** أي الجامعة المركزية في مارس **1983**، وأخذت أفكر فيما سوف أفعل. كان قرار نزولي إلي مصر قراراً حاسما، لكني كنت أفكر في أشياء كثيرة تتعلق بهذا الأمر مثل نقل العفش، وشحن السيارة، وشراء كتب أخرى غير التي جمعتها طوال فترة الدراسة في مدريد لأني سوف أحتاج إليها في قابل الأيام.. كانت أشياء كثيرة تدور في ذهني مما جعلني لا أستمتع بالجو الجميل المحيط بي، حيث الخضرة اليانعة، والأشجار الباسقة تملأ المكان، والأطفال يجرون ويتقافزون ويتلهون باللعب التي خصصت لهم، وأمهاتهم يتابعنهم في اهتمام شديد، وأحيانا يُهرعن إلي مساعدتهم إن احتاجوا إلي مساعدة. ثم إن الحياة من حول المكان عامرة بكل صنوف النشاط والحركة: فالمحلات التجارية عامرة بالمشترين، والعمال والموظفون يلبون الطلبات في همة ونشاط، والبارات المنتشرة في كل ركن عامرة بروادها، حيث أن معظم العاملين في الساعة الحادية عشرة تقريبا يتوجهون إليها لتناول وجبة خفيفة في هذه الفترة ما بين الفطور والغداء، وبالطبع فإن تناول الطعام في المكاتب ممنوع منعا باتا، حيث لا مجال لاختلاط الأمور بعضها ببعض علي النحو الذي نراه ونألفه في بلدنا المحروسة.

كنت أتابع هذه المشاهد وكأني أراها للمرة الأولي علي الرغم من أني عشت معها واندمجت فيها علي مدي سبع سنوات تقريبا حتى تعودت عليها وأحببتها، فكنت أفضل دائما أن أتناول فطوري في أي كافيتريا بدلا من البيت، وفي الساعة الحادية عشرة أخرج من أي مكان أكون فيه لأتناول

الوجبة الخفيفة مع فنجان من القهوة بالحليب، أما طعام الغداء فكنا نفضل تناوله في البيت وكذلك العشاء، وإن كان الإسبان يفضلون الأكل خارج البيت طوال النهار لكثرة المطاعم والكافيتريات والبارات التي تقدم الأكلات بأسعار معقولة جدا

وبينما أنا في هذه الحالة أشاهد وأتأمل وأغوص في أعماقي، وربما تأخذني سنة من الكري وجدت الصلادم يُطل علي فجأة ويجلس إلي جانبي. والصلادم لمن لم يعرفه من القراء هو واحد من أشهر شعراء الجن في الجاهلية، تحدث عنه أبو زيد القرشي في "جمهرة أشعار العرب"، وكان له ابن شاعر أيضا يسمي هبيد بضم الهاء وفتح الباء) يقال إنه كان قرينا لعبيد بن الأبرص، وله أبيات مشهورة تقول:

أنا ابن الصلادم، أدعي الهبـــيد حبـــوت القوافي قرمي أســـد
عبيداً حبوسا بـــمأســـــــــورة وأنطقت بشرا علي غير كـــد
ولاقي بمـــدرك رهـــط الكميت ملاذا عزيزاً ومـــجداً وكـــد

قلت للصلادم: ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟

- وجدتك مهموما فأردت أن أسرِّي عنك.
- ولكنك تعرف أنني عندما أهمك في التفكير لا أريد أن يشغلني أحد، لدرجة أن زوجتي عندما تُلم بي هذه الحالة وعندنا ضيوف تناديني حتى أنتبه.
- وأنا أيضا أتيت لأجعلك تنتبه إلي ما حولك وتستمتع بهذا المكان الذي لن تعود إليه أبدا بعد أن ترحل عنه.

وكان الصلادم صادقا، ولعل من الأحرى أن أقول: لقد صدقت نبوءته. فمنذ أن غادرت سانتا ماريا، هذه الضاحية الجميلة، في أبريل عام **1983** لم أعد إليها أبدا. وما زال هذا الحي يمثل في خاطري ذكري جميلة لا تفارقني أبدا: الشقة المكونة من صالة وحجرة نوم وحمام ومطبخ، والمطبخ جزء من الصالة، لكنها علي الرغم من هذه المساحة الضيقة شقة مريحة جدا، ولها شرفة مثل كل الشقق في الحي تطل علي مساحة واسعة خضراء فيها كل ما يحتاج إليه الكبار والصغار، وكل هذا داخل في إطار رسم معماري شامل للحي بأكمله، يتيح للناس الاستمتاع بالحياة بدون صخب ولا ضجيج ولا مناظر شائهة أو قمامة تنفر منها الأنوف والأبصار أو أصوات مزعجة. ويكتمل هذا المنظر بالمحلات والبارات والكافيتريات الموزعة بانتظام، وكل محل أو بار أو كافيتريا لا يستطيع أن يجور علي الشارع أو الرصيف ويحولهما إلي ملكية خاصة. والحي متصل بالأحياء الأخرى بشبكة مواصلات عامة مريحة ومنتظمة ومحددة مواعيدها بالدقيقة. ولهذا عندما تخرج من البيت للذهاب إلي أي مكان تحس كأنك ذاهب إلى رحلة ترفيهية محببة، فإشارات المرور تعمل بشكل آلي، وفي كل تقاطع حتى في الضواحي ثماني إشارات، وهم هناك لا يعرفون شيئا اسمه رجل المرور داخل المدن، فرجال المرور متواجدون علي الطرق السريعة فقط، وتراهم حولك بصورة سريعة جدا لو تعرضت لأي مشكلة. أما في داخل المدن فالتكنولوجيا أراحت الناس من العناء، لدرجة أنك عندما تقطع شارعاً طويلا بسيارتك وتفتح لك أول إشارة تجد كل الإشارات تفتح تباعا بحيث يمكن أن تقطع هذا الشارع الطويل في دقائق معدودات، لأن كل الإشارات مبرمجة ألكترونيا لكي تقدم لك الراحة الكاملة، وكأنك تسير في شارع ليس به إشارات مرور.

أين نحن الآن من هذا التقدم التكنولوجي العظيم؟!! ولماذا نحن من دون خلق الله جمعيا سوف نظل نعاني؟ ولماذا أصبح السير في الشارع ضربا من المغامرة؟ إن أخوف ما أخاف منه الآن هو أن أذهب في مشوار داخل القاهرة. إذا أخذت سيارتي أعمل ألف حساب لأني لا أدري متى سوف أتوقف لمدة ساعة أو أكثر، في طريق العروبة، أو الطرق الجانبية داخل مصر الجديدة، أو علي كوبري 6 اكتوبر؟.. الخ، وإذا أخذت تاكسيا ربما تكون المدة أطول، وأثناءها لا يكف السائق عن الثرثرة لحاجات كثيرة في نفس يعقوب من بينها أن يجعلك تحس بتعبه فتزيد له الأجرة. وإذا ركبت مواصلات النقل العام أقرر أني لن أركب هذه المواصلات مرة أخرى لأن مجئ المركبة خاضع تماما للصدفة، "وأنت وحظك"، والطريق في معظمه وخاصة في المناطق السكنية ملئ بالسيارات المركونة في الصف الثاني أو الثالث وربما الرابع، وسائق المركبة لابد وأن يكون لديه صبر أيوب، وهو فعلا كذلك لأن كل هذا الوقت الزائد داخل ضمن ورديته، ولم يعد أحد يحاسب علي التأخير، لأن الجميع واعون بالفوضى العارمة التي عليها حركة المرور. ولهذا فإني في بعض الأحيان أقطع الطريق من اتحاد الكتاب في الزمالك إلي منطقة شيراتون المطار في ساعتين ونصف أو ثلاث. ودائما أقول لنفسي: معروف عن حكامنا البائسين أنهم علي سفر متواصل للدول الأجنبية، ألم يلفت نظرهم، ولو لمرة واحدة فقط، أن حركة المرور في العالم كله تقوم علي العلم والتكنولوجيا والتقدم الحضاري والمدني؟

وقبل أن أترك حي سانتا ماريا وشأنه، وأكف عن الأحلام بأن تصبح مصر في يوم من الأيام بلداً حديثا يحس الناس فيه بالراحة ويستمتعون بأوقاتهم، وينتقلون براحتهم، أعود إلي مخزون الذكريات لأجد فيه شخصا لم

أنسه أبدا منذ أن تركت مدريد. وقد يتوهم القارئ أنه شخص مهم، من علية القوم، لاسيما وأننا في بلادنا المحروسة لا نحتفي إلا بهؤلاء ولا نقيم الدنيا ونقعدها إلا من أجلهم. إنه أبعد ما يكون عن ذلك. فهو بالنتينو **Valentino** بواب العمارة الذي كانت أعتبره جزءا من هندسة الحي الأنيقة المنظمة. كان بالنتينو يقيم في شقة بالدور الأرضي لا تختلف في شيء عن شقق السكان. ولا شك أن معرفة هذه المعلومة يمكن أن يخدش حساسية بعض القراء لأننا في بلادنا المعمورة متعودون علي أن يقيم البواب وزوجته وأبناؤه تحت بير السلم أو في البدروم في حجرة ضيقة جدا لا تصلح للاستخدام الآدمي. وبالنتينو هو حارس العمارة فقط، ولهذا ليس مطلوبا منه إحضار طلبات للسكان، أو المرمطة أو غير ذلك مما نراه حقا مشروعا للسكان، بل إني أذكر أن أحد السكان، وكان عميدا متقاعدا من الجيش، لاحظ أني أعامل البواب بطريقة إنسانية فسألني: كيف تعامل البواب بهذه الطريقة؟!. أما مأمورة العمارة التي بجوارنا في مساكن شركة مصر للتعمير بشيراتون فلديها اعتقاد جازم بأن البواب لا ينبغي أن يظل في العمارة أكثر من ستة أشهر وإلا تمرد علي سكانها!. وبالطبع فإن بالنتينو ليس مصيره مرتبطا بالسكان، وإنما هو عامل تابع لشركة تدير الحي كله ولهذا فإنه مسئول فقط أمام هذه الشركة، وبالتالي فإنك تراه أمام العمارة نافشا ريشه، ليس في استعلاء أو تكبر، وإنما لأنه مثل كل الناس إنسان حر، وموظف مسئول، له نقابة تدافع عنه ووضعه بوصفه مواطنا صالحا يمنع أي إنسان من التعدي علي حريته. كان بالنتينو طويل القامة، عريض المنكبين، رأسه مستديرة، وعيناه فاحصتان دقيقتان تنطلقان في أرجاء المكان، وهو واقف عند مدخل العمارة يوجه ناظريه هنا وهناك. ولأن الرزق يحتاج إلي شطارة فقد كانت له شغلانة أخرى

تدر عليه دخلا إضافيا، حيث يقوم بجمع الكراتين الفارغة من المحلات ويخزنها في مكان ما بالعمارة لا أذكر أني رأيته أبدا، وتأتي سيارة نقل كبيرة في نهاية الأسبوع فتحمل هذه الكراتين النظيفة، ويعود بالنتينو ليبدأ الكرة من جديد أو يقف أمام مدخل العمارة يوجه بصره هنا وهناك، أو يمضي في شأن من شئون حياته مثل أي مواطن يعيش في هذا الحي الهادئ النظيف المنظم.

لم يستغرق الاستعداد للسفر وقتا طويلا، فكل شيئ ميسر، وكل شيء يمكن أن يتم من خلال الهاتف. طلبت من صديقي الكولومبي داسو سالديفار أن يشتري لي مجموعة من الكتب التي يمكن أن أحتاج إليها بعد العودة، واتصلت بشركات النقل والشحن، فحضروا وأنجزوا مهماتهم في يسر وسهولة، ليس فيهم من يتمحك للحصول علي فلوس خارج الاتفاق، أو من يهمل في الفك والتربيط حتى تجد نفسك مضطرا لمنحه أي مبلغ. كل شيء يتم بسلاسة وشفافية مطلقة، وكل إنسان يعرف موقعه وماله من حقوق وما عليه من واجبات. لم أحس إطلاقا أني في ورطة شحن ونقل، حتى السيارة وضعوها هي الأخرى في "كونتنر" حتى لا تصاب بأي خدوش أثناء النقل.

أما نحن، أقصد أسرتي التي كانت في ذلك الوقت مكونة من زوجتي وأنا وولد وبنت، فقد غادرنا مطار مدريد متوجهين إلي القاهرة. كان مطار القاهرة عام **1983** سيئا للغاية، والحمد لله أن المطار حدثت فيه طفرة خلال السنتين الأخيرتين **2009** و**2010**م. ونتمنى أن تحدث هذه الطفرة في كل شئون حياتنا.

كان أول شيء فعلته بعد عودتي إلي القاهرة هو تسلم العمل في كلية اللغات والترجمة/ جامعة الأزهر، ولأن الناس تعرفني في هذا المكان فقد تمت الأمور بيسر وسهولة. وتصورت أن كل شيء استقر وأني سوف أبدأ حياتي

الجامعية بدون مشاكل حتى أتفرغ للبحث عن سكن. لم أكن أعرف أن تسلم العمل في الكلية ليس إلا خطوة واحدة يسيرة هينة من مشوار طويل سوف تتكشف طرقه الوعرة ومسالكه شبه المسدودة أولا بأول. وكانت أول مشكلة واجهتني هي ما يسمي بمعادلة شهادة الدكتوراه التي حصلت عليها من جامعة مدريد بشهادة الدكتوراه التي تمنحها الجامعات المصرية. وقيل لي إن معادلة الشهادة تتم في مقر الإدارة العامة للبعثات بمجمع التحرير. ذهبت إلي هناك في الدور الثامن من هذا المبني العتيق وقابلت السيدة المسئولة عن هذه الإدارة، فقلبت كل شيء في رأسي وجعلتني أدور مثل الفراخ التي تدخل عليها "الشوطة" في الريف، وكنا نري هذه الفراخ تلف وتدور حول نفسها إلي أن يدركها الموت أو تعمل لها وصفة تؤدي بها إلي الشفاء. وكانت وصفتي هي أن أبحث عمن ينقذني من هذه الورطة. كلمت صديقي الدكتور أحمد باسم عبد الغفار، وهو يسبقني بسنوات، ومعروف بهدوء الطبع، وحلاوة الكلام لاسيما مع هذه النوعية من الموظفين، واتفقت معه علي أن يفرغ نفسه يوما للذهاب معي إلي الإدارة العامة للبعثات.

ذهبت إلي الدكتور باسم في مسكنه بالنزهة فأخذ سيارته وتوجهنا إلي ميدان التحرير. كانت مصر الجديدة في ذلك الوقت منطقة هادئة، ولم تكن قد امتلأت بالسيارات علي النحو الذي نراه الآن، فاخترقنا الشوارع بسرعة من ميدان الحجاز، إلي ميدان الإسماعيلية مرورا بالميادين الأخرى، حتى وصلنا إلي شارع رمسيس وكانت الطامة الكبرى في هذا الشارع الذي لم تكن تتحرك فيه المواصلات إلا بشق الأنفس، وعلي أية حال كان الوضع أحسن مما نحن عليه الآن ألف مرة. فحاليا كل الشوارع مزدحمة، وكل الشوارع هي شارع رمسيس. ركنا السيارة بالقرب من مجمع التحرير، هذا المجمع نصف الدائري

الذي يأتي إليه طلاب الحاجات من كل البقاع، ويبدو مثل عجوز بخراء أخني عليها الذي أخني علي لبد، لكنه دائما مطلوب لأن الناس مصالحها معلقة به. صعدنا إلي الدور الثامن، وحاول الدكتور باسم بأسلوبه الهادئ، وصبره الشديد أن يقنع مديرة القسم بأن الجامعة التي أتيت منها سبق أن حصل علي الدكتوراه منها، ومن نفس الكلية عدد كبير من الأساتذة ذكر لها أسماء بعضهم، ومن ثم فلا داعي لعمل أوراق من جديد لاسيما وأن هذه الأوراق تحتاج إلي جهود كبيرة، والقادم من الخارج لديه مشاكل أخري كثيرة من بينها البحث عن سكن، والعفش والسيارة الموجودان في ميناء الاسكندرية ومن ثم يحتاجان إلي أن تكون الأوراق جاهزة.. الخ، ولكن السيدة صمَّتْ أذنيها عن كل هذه المداولات التي وصلت إلي حد التوسلات، وصممت علي أنه لابد من عمل أوراق جديدة، وأن كل حالة قائمة بنفسها ولا تنطبق علي الأخرى، وهنا وجدت نفسي أرفع صوتي وأثور في وجهها دون أن يصل كلامي إلي مرحلة التعدي عليها حتى لا أدخل نفسي في مشاكل أخرى. لكن مهمة الدكتور باسم فشلت، وكان علي أن أبحث عن وسائل أخرى.

ما لا يعرفه القارئ هو أني منذ أن تركت قريتي للدراسة في المدينة وأنا أتعرض لمشاكل من هذا القبيل، تنتهي في العادة بالحل عندما نعرف الطريق إليه. فعندما قدَّم لي والدي رحمة الله عليه للالتحاق بالمعهد الإعدادي الأزهري كان من بين مصوغات الالتحاق عمل كشف هيئة، وكان الضابط إسماعيل هو المسئول عن هذا الكشف. والحق أنه لم يكن ضابطا ولا يحزنون، وإنما كان مجرد صول لكنهم كانوا يتحدثون عنه هكذا. وكانت المفاجأة رسوب معظم المتقدمين في هذا الكشف لسبب بسيط قالوه لنا هو أن رءوسنا فيها قشر. ومن الواضح أن هذا الموضوع كان مسيطرا علي ذهن الضابط، فضلا عن أنه

كان مرتبطا بشيء آخر أهم، ولهذا كان بعد ذلك ينادي علينا في طابور الصباح قائلا: "يا للا يا واد يا ابن الكلب يا مقمّل منك له". وقد تأهبنا بالطبع للدور الثاني من كشف الهيئة وكل منا جهز في يده ربع جنيه بالتمام والكمال يعطيه في يد الضابط إسماعيل قبل الكشف، ولذلك تبخّر كل القشر الذي كان في رءوس التلاميذ. وعندما كنا أطفالا نتردد علي الكتّاب في القرية كنت أحاول الهروب من التسميع علي الشيخ عبد الموجود الأعمى لأنه كان معروفا بعادة غريبة جدا، فهو يفتش في "سيالتك"، والسيالة هي الجيب الكبير الموجود في أحد جوانب الجلابية الريفية، فإذا وجد شيئا يأكله مرت اللحظات بسلام وإلا انهال عليك بيده الباطشة العمياء التي تضرب في أي مكان. ولذلك كان التلاميذ المتأكدون أن دورهم في التسميع سوف يكون مع الشيخ عبد الموجود يجهزون أنفسهم بأي مأكولات يضعونها في السيالة، وفي العادة كانت كسرة من الخبز البلدي تدهن بقطعة من الجبنة القريش، ويوضع عليها بعض الماء حتى يمكن أن تكون علي شكل كرة صغيرة يسميها الأولاد "البِسّ"، وكان الشيخ عبد الموجود يسعد كثيرا بهذا المزيج ويتلهي به بدلا من الضرب والإهانة.

وليس من شك أن القارئ سوف يتعجب أن مسلسل المواقف التي تجعل المرء يلجأ دائما إلي الحيلة وحسن التصرف لا يتوقف أبدا حتى لو تقدم به السن وأصبح يحتاج إلي قدر كبير من الراحة. ولذلك أذكر أني عندما كنت عميدا لكلية اللغات والترجمة في الفترة من اكتوبر عام **2004** إلي اكتوبر **2006** فكرت في استخراج بطاقة انتخابية بدلا من بطاقتي المستخرجة من القرية، فذهبت إلي قسم النزهة في مصر الجديدة وقدمت الأوراق المطلوبة وقال لي الموظف: مر علينا بعد فترة تجد البطاقة جاهزة. وذهبت إليه مرة

ومرات، وذلك لأن القسم في طريقي، وفي كل مرة يطلب مني أن أعود بعد فترة، وأخيرا زهقت ودخلت للمأمور وعرفته بنفسي، فلم يفعل أكثر من أن يوجهني مرة أخرى إلي الموظف، وقال لي الموظف: ها أنت ترانا مشغولين فمر علينا بعد أيام. ولما وجدت ألا فائدة من الذهاب إلي القسم كلمت الضابط الموجود معنا في الكلية فأرسل جنديا ذهب إلي قسم النزهة وعاد ومعه البطاقة. ولا شك أن كل هذه المواقف الكثيرة جعلتني دائما أحتاط عند طلب أي شيء من الحكومة، ولكني أحيانا أنسي، وكان لوالدتي رحمة الله عليها كلمة تقول: "طول ما البني آدم عايش بيتعلم، ويموت ناقص علام". هكذا نحن دائما، وأحيانا يتصور الإنسان أنه مواطن عليه واجبات وله حقوق فيتصرف من هذا المنطلق، لكنه عندما يصطدم بالواقع يعود ليفكر أن الحيلة هي أقصر طريق لتحقيق الهدف.

ولا يمكن أن أنسي أبداً ما حدث معي بعد تخرجي من الكلية عام **1973** بترتيب أول الدفعة وتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف. وكان من المفروض أن أعين معيدا مع اثنين بعدي في الترتيب، وفعلا صدر قرار التعيين، ولكن العقبات التي وقفت في سبيل التنفيذ كانت رهيبة: تعقيدات في كل مكتب حكومي، وتسويفات لدرجة أننا قررنا بعد عام تقريبا من الجري والدوخة أن نشترك في مؤتمر شعري يقيمه الطلاب في قاعة الإمام محمد عبده بالدراسة، وننتهز الفرصة لعرض موضوعنا علي السيد رئيس الجامعة. وفعلا هذا ما حدث، وصدر الأمر التنفيذي بعد يوم واحد. لكن الدوخة التي شفتها علي مدار عام كامل تقريبا جعلتني أكتب قصيدة من الشعر الحلمنتيشي لقيت اهتماما كبيرا من كل المحيطين بي، ومازال بعض من كانوا يحفظون أبياتا منها يذكرونني بها الآن. تقول القصيدة:

دمِّي يفور بشـــــدة ياســـادتي		لما أشـــوف موظـــفا بالجامعـــة
فأكاد أضـــربه وألطـــم خــــده		وأكاد أشتمـــه بأقـــذع شتمـــة
بل كدت يوما حين ثرت مفكرا		في القتل بُصُّوا كيف كانت ثورتي
داءهم في كل حــتة هـــا هنـــا		قد وظفوا فعـــلا لقتـــل الهمـــة
فإذا ابتلاك الله يومـــا أن تـــري		منهم عتـــلا قـــلت يانا يادهوتي
يستقبلك في مكتبـــه وكـــأنـــه		أضحـــي إلهـــا ســـرمدي العزة
ومكشّـــرًا بوزه كـــأنه قطـــة		تـــرنـــو لفـــارة يالحظ الفـــارة
ترمي الســـلام محليطـــا فلعلما		تلقي لـــديـــه مـــودة بـــمودة
لكـــنه والله أرفـــع أن يــــري		متبسما أو ضاحكا ببشـــاشـــة
ويقول فوت بكرة فترجع كاسفا		مستنظرا بكرة بـــكل ضراعـــة
وتفوت بكرة هكذا متعشـــــما		أن تنتهي مـــن حاجـــة أو شغلة
فيمدها شهـــرا فترجع يائســـا		تأسي لحالك أو لحـــال الجامعـــة
ويقـــال شخشخ يا أخي ببريزة		أو إن عجـــزت فربمـــا بسيجارة
وتروح عند رئيسه كي تشتكي		متلمســـا سببـــا ولو بالجمـــــرة
لكـــنه والله مـــثل صـــحابـــه		ولربمـــا زدت الـــتـــراب بـــلة
بل إنـــه قـــد يبتليك بـــشخطة		تالله ما أقـــساه وقـــــع الشخطة
خذها بجنبك شخـــطـــة علوية		يهتـــز منها الســـقف أكبر هـــزة
آه فكم قاسيت منـــــهم والنبي		وحلفت أن آخذ بثـــار الإخـــوة
همَّ السبب في أن ذهبت مدوراً		عن مدرسة أو عن أماكن خاليـــة
أبغي بها شغـــلا فـــإني والنبـــي		أخشي وأرهـــب أن أعيش بقريتي
ووجدت شغلا هكذا أو حتـــة		أقضي بهـــا وقتي وأنسي خـــيبتي
هي مدرسة خاصة تغص بفتيـــة		خبروا الحيـــاة الفـــاشلة بمهارة

لكنهم في العلم صفر واحــــد والعقل لا يـــرقي لعقــــــل العترة
لو شفت منهم واحداً لرأيتـــه شحطـــا كبيـــرا مثل بغل العمدة
يا ناس شوفو الحل لحسن والنبي ما اسكتش حتى أســترد كرامتي

وما إن انتهيت من كتابة هذه القصيدة حتى رأيت الصلادم قادما من بعيد محلقا في أجواز الفضاء حتى هبط وسكن إلي جواري. نظر إلّي نظرة تنم عن عدم رضي وقال لي: "إنك تختار وقائع وحكايات تدل علي أن كل شيء في بلادكم مرهق وفيه معاناة شديدة. أليست لديكم قصص أخرى تدل علي أن الحياة سهلة وميسرة؟"

- بلي، أيها الصلادم، هناك أناس كل شيء عندهم سهل وميسر، ولكني أتحدث عن غالبية الناس وأنا واحد منهم، وكلهم يعانون. أنا شخصيا إلي الآن وقد بلغت أرقي الدرجات الأكاديمية، وعضو في مجلس إدارة اتحاد الكتاب، وعضو في نادي القصة وفي أماكن أخرى مازلت إلي هذه اللحظة أهاب الدخول إلي أي مصلحة حكومية، ولابد أن أعد نفسي قبلها: أبحث عن شخص معرفة هناك أو أستعين بوسيط أو أي شيء من هذا القبيل. وإذا تجرأت وذهبت وحدي فربما يقول لي المسئول: فوت بعد أسبوعين. أما الشخص الوسيط فيمكن أن يستخرج لك الورقة المطلوبة وأنت واقف.
- وإذا كنت لا تزال تعاني وأنت في هذه السن فماذا يفعل الشباب؟

- الشباب أيها الصلادم الآن يغامرون بحياتهم في البحر، ويفضلون الموت بدلا من حياة القهر والمعاناة التي يعيشونها في وطنهم.
- لكن هل يمكن أن تكون كل الأمور بهذه القتامة؟
- كلا، مازالت البلد فيها ناس طيبون نظيفون، لكن هؤلاء عددهم ينقص يوما بعد يوم، وقديما كانوا يحفظوننا في الأزهر بيتين من الشعر يقولان

لولا شيـــــوخ للإله ركّع وصـــــــــبية من اليتامى رُضَّع
ومهملات في الفـــلاة رتع لصب عليكم العذاب الأوجع

ومع ذلك أيها الصلادم دعني أحكي لك، في إيجاز شديد، بعض المواقف التي يمكن أن تعتبرها إيجابية، وإن كانت هي الأخرى احتاجت إلي جهود كبيرة جدا، يعني لابد أن تكون لدي المرء إرادة قوية حتى يمكنه أن يتغلب علي الصعاب ولو كانت غير مقصودة.

فقد حدث عندما حصلت علي ثانوية الأزهر عام **1969** بترتيب أول الجمهورية في القسم الأدبي أن قدمت أوراقي للسكن في مدينة البعوث الإسلامية كما يفعل كثير من الطلاب، وظهرت النتيجة ولم يظهر اسمي من بين المقبولين. أحسست بالاستياء الشديد وتوجهت إلي مكتب رئيس الجامعة أيامها وكان يسمي الدكتور بدوي عبد اللطيف من قسم التاريخ بكلية اللغة العربية. دخلت علي الدكتور بدوي. وكان ربعة، متين البنية، ينحني قليلا إلي الأمام، ومع ذلك يبدو وهو جالس علي الكرسي مثل كتلة ملتصقة بالمكان. سلمت عليه وقلت له: يا سيادة الريس، أنا أول الثانوية الأزهرية وقدمت في

مدينة البعوث الإسلامية ولم أقبل، فهل هذا معقول؟ ورد علي الرجل ردا مهذبا صادقا ووعدني خيرا، وبالفعل ذهبت إلي المدينة في اليوم التالي ووجدت اسمي بين الطلاب المقبولين. كانت مصر أيامها ممتلئة بالخير، ولم يكن الناس قد توحشوا وتبدلت أخلاقهم علي النحو الذي نراه الآن، وكأن المطلوب هو تعذيب أفراد الشعب البائس المسكين.

ومن الوقائع التي جرت لي وتدل علي أن الفرد في بلادنا لابد أن يكون مغامراً لديه قدرة علي الصبر والمناجزة مع التحصن بالإرادة القوية، هو أني بعد أن حصلت علي الليسانس من كلية اللغات والترجمة وعينت معيداً قررت أن أحقق رغبة كانت لدي بعد حصولي علي الثانوية وفشلت أيامها في تحقيقها وهي الالتحاق بقسم الفلسفة. كنا نعلم أن القانون يبيح للحاصل علي الليسانس من إحدى الجامعات المصرية أن يلتحق بأي قسم مناسب في أي جامعة. قدمت أوراقي إلي كلية الآداب/ جامعة عين شمس، قسم الفلسفة وانتظمت في الدراسة واشتريت الكتب، وكانت أيامها كتبا حقيقية لا مذكرات. فالدكتور عزت قرني يدرس لنا مادة الفلسفة اليونانية ويعطينا قائمة بعدد كبير من الكتب نشتريها ونقرأها، والدكتور إمام عبد الفتاح إمام يدرس لنا الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط ويقرر علينا كتابا مترجما، والدكتور عزمي إسلام يعطينا مادة المنطق الرمزي،.. الخ. كانت الجامعة أيامها شعلة من الفكر والنشاط، وكان الطلاب علي الرغم من معاناتهم اليومية في السكن والمواصلات وغير ذلك يحملون في أعماقهم آمالا وطموحات كبيرة.. انتظمت في الدراسة وسعدت بصحبة نوعيات جديدة من الطلاب والطالبات، ولكني في منتصف العام تقريبا استقبلت رسالة من الكلية تبلغني بأني ليس من حقي مواصلة الدراسة لأني حاصل علي الليسانس من

جامعة الأزهر. كنت أدرك أن هذا الكلام غير صحيح، ولهذا تركت الدراسة وبدأت رحلة معاناة لا تقل عن المعاناة التي خبرتها في فترة التعيين معيدا. طرقت باب عميد الكلية، ثم رئيس الجامعة ولم أجد لديهما أي حلول، فتوجهت إلي المجلس الأعلي للجامعات وكان مقره في جامعة القاهرة، واستمر ترددي علي هذا المجلس طوال النصف الثاني من العام، ولم يكن موجودا أيامها نظام"الترم" أو الفصلين الدراسيين. وأسفر الإصرار من جانبي علي الحصول علي ورقة من المجلس الأعلي للجامعات تقول إن طالب الأزهر الحاصل علي الليسانس من حقه الالتحاق بأي جامعة مصرية. لم أحصل علي هذه الورقة إلا في اليوم الأول من بدء الامتحانات ولذلك ضاعت علي المادة الأولي، لكني دخلت ابتداء من المادة الثانية وكان الطالب أيامها يمكن أن ينجح ومعه مادتان. ومثلما أصررت علي أخذ حقي أصررت علي النجاح، فكنت أذاكر المادة كاملة خلال اليوم أو المدة الفاصلة بين كل مادة وأخرى، ونجحت بمادتين، المادة التي ضاعت علي في اليوم الأول ومادة أخرى لم أجد الوقت الكافي لاستيعابها.

وبالطبع فإن هذا الشريط الطويل الممتد قد وجدته أمامي، وكأني أشاهد فيلما مسجلا، وكان ذلك بعد أن تعقدت مشكلة معادلة الشهادة في الإدارة العامة للبعثات. وقد رأيت أنه لابد من البحث عن وسيلة لحل هذه المشكلة بسرعة، فالعفش المشحون موجود في الجمارك وكذلك السيارة، وأنا محتاج إلي معادلة الشهادة للحصول علي مبلغ الإعفاء من الجمرك وكانت قيمته ثلاثة آلاف جنيه.وعلي أية حال فكما يقول المثل: "اشتدي أزمة تنفرجي"، فقد استخدمت كل أنواع الحيل لاستخراج شهادة المعادلة، ولم يكن من بينها – والحق يقال – أي وسيلة مادية.

جهزت كل أوراقي وتوجهت إلي منطقة الجمرك في الاسكندرية. وتصور يا سيدي: رجل مثلي تصيبه الرهبة والخوف عندما يذهب إلي أي مكتب حكومي، فماذا يكون حاله عندما يدخل عش الدبابير. كانت معلوماتي عن منطقة الجمرك أنها في غاية السوء، وأن من يذهب إلي هناك لابد وأن يكون علي قدر كبير من الفهلوة وحسن التصرف والمداهنة، والعبد لله لا يمتلك أيا من هذه الصفات، لكني علي الرغم من هذا لم أكن أعرف أن الوضع أسوأ بكثير مما تصورت، وأنك في منطقة الجمرك سوف تقابل بشرا لا يمكن أن تتصور أنهم موجودون علي هذه الأرض. ولو أني عرفت ذلك أو استوعبت جيدا هذه الفكرة ما فكرت أبدا في شحن العفش والسيارة، بل تركتهما في مدريد أو بعتهما بأبخس الأثمان بدلا من أن أتعرض لكل هذه البهدلة.

قابلني المخلّصون علي بوابة الجمرك بمجرد أن دخلت وكأن كل واحد منهم يريد أن يخطفني أو يخطف مني شيئا. وقد اخترت واحدا منهم توسمت فيه الخير، ولم أعرف إلا بعد ذلك أن اختيارك لمخلص يجعلك تتعرض لمشاكل أكبر. لا أريد أن أحكي كل ما حدث لي، وإنما أتوقف عند مشهد واحد: فقد رأيت أدراج الموظفين مفتوحة دائما لاستقبال العطايا والمنح وإلا وقفت الأوراق واحتاجت إلي ونش كي يحركها أو يرفعها، وعندما يؤذن لصلاة الظهر يغلق الجميع أدراجهم ويذهبون لأداء الصلاة، ثم يعودون إلي ما كانوا عليه. لبثت أتردد علي منطقة الجمرك أياما، أواجه بكلام هنا وكلام هناك، وقرار من هذا وقرار من ذاك. وأحد المديرين رفض أن يختم ورقة لأن ختم الإدارة العامة للبعثات غير واضح، وحاولت إقناعه دون جدوى، وكنت أراه ينظر إلي المخلص بعين فيها شك وارتياب وكأنه يقول له: لماذا لا تشركنا

معك في استحلاب هذا الشخص القادم من الخارج؟!. ولا شك أن إصرار المدير علي رأيه كلفني مشوارا لإدارة البعثات في القاهرة لأخذ ختم واضح.

استمر ترددي علي منطقة الجمرك لفترة غير قليلة وكأني حصلت علي الدكتوراه من جامعة مدريد وحضرت لكي أعمل مدة هنا وأتعامل مع هذه النوعية الغريبة من البشر. وعندما حان موعد الإفراج أخذت معي زوجتي، وكنا نقيم في طنطا، وذهبنا إلي منطقة الجمرك لشحن العفش، ثم توجهنا إلي جمرك السيارات، وكان في أطراف مدينة الاسكندرية. كانت لدي معلومات عن أن السيارة يمكن أن يسرق منها الكثير، فهذا هو الوضع بالنسبة للسيارات المفرج عنها، فكنت أدعو بيني وبين نفسي أن تكون السرقة معقولة ولا تؤثر علي السيارة كلها. وفعلا تحقق هذا الأمل العظيم، فقد وجدنا السيارة منهوبة، حيث سرقت العجلة "الاستبن" وأشياء أخرى كثيرة، لدرجة أنهم ربما رغبة في الانتقام من شخص قادم من الخارج قطعوا سلوك التوصيلات الكهربائية. قلنا بسيطة!، وأحضرنا كهربائيا عمل توصيلات لهذه الأسلاك وشغلنا الموتور وتأهبنا للمغادرة، ونحن في غاية الفرح والسعادة. كان كثيرون ممن حولنا يصرخون لأن مواتير سياراتهم قد سرقت فأصبحت السيارة مجرد صفيح.حمدنا الله علي أن السرقة عندنا كانت خفيفة. ومن العجيب أن هؤلاء الذين يصرخون لا يجدون أي مسئول يتكلمون معه أو يشكون إليه أمرهم، فأنت إذا كلمت شخصا نظر إليك شذرا ومط شفتيه وانجعص في مقعده ولم يرد عليك، وكأنك مذنب أو مدعي بالباطل. ولعله يقول لك: وماذا أفعل لك؟! وتفكر في الذهاب مرة أخرى إلي منطقة الجمرك الأصلية لتشكو هناك، ولكنك خرجت من هذا المستنقع، فهل تعود إليه مرة أخرى؟! وما يدريك أن المسئول الكبير سوف يستجيب لشكواك؟ ألا يمكن

أن يكون مثل المسئولين الآخرين في جمرك السيارات؟ الجميع متفقون علي السرقة والنهب واذهب أنت إلي حيث ألقت.. الخ.

ركبنا السيارة وخرجنا من منطقة الجمرك، ولا أتصور أني في حياتي سعدت بلحظة مثل هذه. صحيح هي سيارة ماركة فيات **128** لكنها دخلت الجمرك ومازالت سليمة، وها نحن نمضي بها علي طريق الاسكندرية طنطا الزراعي، وسوف نشتري القطع التي سرقت منها، ونجعلها في أحسن حالة.

أذكر أن أحد الزملاء بعد ذلك بسنوات طويلة، في منتصف التسعينيات تقريبا شحن سيارته من مدريد وكانت ماركة بيجو، فطلبوا منه في جمرك القاهرة للسيارات أن يدفع مبلغ خمسين ألف جنيه، ولم يكن معه شيء من هذا المبلغ، إضافة إلى أنه كان أكثر من ضعف ثمنها فى ذلك الوقت، فتركها لهم، ولأنه لم يوفق إلي سفرية في منطقة الخليج مازال حتى الآن يركب المواصلات العامة أو يتعامل مع التاكسيات. لي الحق إذن أن أفرح بأني استطعت أن أخرج بسيارتي من الجمرك.

الفصل الثانى

البحث عن سكن

- وربما كانت أمم الغرب غير محكومة بما أنزل الله، فهي علي كل محكومة بما أرادت. أما الشرق الإسلامي، من عصور خلت، فالأمر فيه علي النقيض، لا هو يُحكم بما أنزل الله ولا يُحكم بما أراد لنفسه، وإنما تستبد بشئونه عصابات من المرتزقة احترفت أكل الناس كما يحترف الفلاحون حراثة الأرض ورعاية السائمة.

(محمد الغزالي "الإسلام والاستبداد السياسي")

- إن الأمة التي ضربت عليها الذلة والمسكنة وتوالت علي ذلك القرون والبطون تصير كالبهائم أو دون البهائم، لا تسأل قط عن الحرية ولا تلتمس العدالة، ولا تعرف للاستقلال قيمة أو للنظام مزية، ولا تري لها في الحياة وظيفة غير التابعية للغالب عليها، أحسن أو أساء علي حد سواء، وقد تنقم علي المستبد نادراً، ولكن طلبا للانتقام من شخصه لا طلبا للخلاص من الاستبداد، فلا تستفيد شيئا، إنما تستبدل مرضا بمرض كمغص بصداع.

(عبد الرحمن الكواكبي "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد")

- في الدول المستبدة لا يُصلح ولا يُحسَّن شيء، فلا تبني بيوت إلا من أجل الحياة، ولا تُنشأ خنادق، ولا تُغرس أشجار، ويُستخلص كل شيء من الأرض، ولا يعاد إليها شيء، وكلٌّ يغدو بائرا، وكل يكون مقفرا، ويأتي البؤس من كل ناحية.

(محمد الغزالي "الإسلام والاستبداد السياسي")

في مجموعته القصصية "الحب تحت هضبة الهرم" الصادرة عام 1979 تنبأ نجيب محفوظ بأن السكن سوف يكون مشكلة طاحنة لاسيما بالنسبة للشباب. ولما كان لدينا إحساس بهذه المشكلة قررت وأنا في إسبانيا أن أحجز شقة بالإيجار في طنطا دفعت لها مقدما قيمته ثلاثة آلاف جنيه. وقد نفعتنا هذه الشقة عند العودة إذ أقمنا فيها لمدة عام تقريبا وكانت خطتنا أن نقيم فيها بصفة دائمة، ولكن الصعاب والمشاكل التي واجهتنا ومنها مشكلة السفر جعلتنا نفكر في البحث عن شقة في القاهرة. كانت الإمكانيات المادية لنا ضعيفة جدا علي الرغم من أننا عائدون من الخارج لأني – والحق يقال – كنت خلال إقامتي في مدريد مهتما أكثر بالناحية العلمية. فجيلنا تربي علي حب العلم وتحصيله، ولم نتصور أبدا أن هذا العلم سوف يأتي عليه وقت يصبح لا قيمة له علي الإطلاق، وكان بعض الخبثاء الذين وصلتهم الرسالة بسرعة يقولون: "العلم في الأيام القادمة سوف يكال بالباذنجان" ولهذا أعدوا أنفسهم جيدا لهذا اليوم، أما أنا فقد ظللت طول حياتي أراهن علي العلم وعلي الثقافة وعلي أن مستقبل بلادنا مرهون بذلك. وعلي الرغم من كل ما رأيته وعانيته طوال حياتي فإني مازلت إلي هذه اللحظة أتصور أن العلم والثقافة في مصر سوف يعودان إلي سابق عهدهما أيام أن كان نجوم المجتمع هم العلماء والمثقفين وقادة الرأي.

كان أول اختبار إذن هو المتعلق بالسكن، فقد أخذنا نتجول في أنحاء القاهرة بحثا عن سكن يتناسب مع إمكانياتنا المادية. ذهبنا إلي منطقة الهرم، وشارع أحمد عصمت في عين شمس وغيرهما من المناطق التي كنا نسمع أن أسعار الشقق فيها معقولة، ولكننا كنا نفاجأ بأن الأسعار لا تناسبنا علي الإطلاق، بل إننا ذهبنا إلي مجمع سكني في الجبل الأخضر بمدينة نصر يطل

علي المقابر، وقال لنا صاحب الشقة إن ثمنها مائة وعشرون ألفا. وأسقط في يدي!. ماذا أفعل وأنا لا أمتلك إلا أربعة آلاف؟ يومها كان معنا صديقي الدكتور إسماعيل الهنداوى فقال لي لماذا لا تبيع أرضا في القرية؟ قلت له لو بعت الأرض كلها لن أحصل علي ثلث هذا المبلغ. يومها استقر الرأي علي أن أبيع قيراطين بجوار البيت في القرية بحيث يصير المبلغ الذي معي سبعة آلاف مثلا. وفي هذه الحالة يمكن أن أحجز شقة بالتقسيط في مساكن شركة مصر للتعمير بجوار المطار. وكنا قد رأينا أن الشقة بالدور الأرضي في المنطقة الثالثة يبلغ ثمنها ثمانية وعشرين ألف جنيه، وطالما أننا سوف ندفع مبلغا مقدما ونقسط الباقي علي سنوات فهذا ممكن حتى لو ارتفع الثمن بسبب الأقساط. ولما كان تسلم الشقة يحتاج إلي الانتظار لأكثر من سنتين فإننا خلال هذه الفترة يمكن أن نسكن في شقة مفروشة في منطقة شعبية.

نسيت أن أحكي للقارئ بعض المقالب التي أخذهّا وأنا أبحث عن سكن في القاهرة. فقد تعرفت ذات يوم علي سمسار شقق في ميدان الإسماعيلية بمصر الجديدة، وطلبت منه أن يريني بعض ما لديه من سكن. أخذني الرجل إلي عمارة قيد البناء لم يكن فيها أحد، وأعطاني معلومات كاملة عن الشقق وأسعارها وطرق الدفع وغيرها،وفي مقابل ذلك حصل علي مبلغ. ثم اكتشفت فيما بعد أن بعض السماسرة يمكن أن يأخذوك إلي أي مكان ليس مخصصاً للبيع أو الإيجار كي يحصلوا علي المقابل المادي للتحرك لا أكثر ولا أقل، وبعد ذلك لا تري وجوههم أبداً. أيضا يمكن أن تقع في حبائل أخرى كثيرة ومن بينها مثلا أن يكون صاحب العمارة التي تحت الإنشاء "نصابا" فيأخذ منك مبلغ المقدم ولا تعثر عليه بعد ذلك، أو يبيع الشقة لك ولغيرك في وقت واحد. ولكن الحمد لله لم يحدث معي ذلك لأني كنت حريصا علي أن

أحجز في شركة نسبة أسهم الدولة فيها عالية. وأنا طول عمري أثق في القطاع العام: أشتري ملابسي من عمر أفندي (قبل أن يبيعوه) وصيدناوي، وشركة بيع المصنوعات، وشركة غزل المحلة، ولهذا حزنت حزنا شديدا عندما بيع القطاع العام بتراب الفلوس.. ولكن هذا ليس موضوعنا الآن.

وعندما اكتمل لدي مبلغ السبعة آلاف جنيه اتفقت مع صديقي إسماعيل الهنداوى أن نلتقي عند مدخل شارع سوريا بالمهندسين للذهاب إلي المبني الإداري لشركة مصر للتعمير ودفع مقدم حجز الشقة. جلسنا بعد ذلك في مقهي قريب وأخذنا نفكر ما هو أفضل مكان يمكن أن نعثر فيه علي شقة إيجار مفروش، فاهتدينا إلي أن أنسب حي هو حي الزيتون، فالشقق هناك سوف تكون أسعارها معقولة، إضافة إلي أن المنطقة قريبة من مدينة نصر حيث مقر الكلية. استبعدنا البحث في المطرية لأنها تعتبر من المناطق العشوائية أو القريبة من ذلك. حي الزيتون علي أية حال ينسب إلي الإسكان المتوسط، وهو يجمع بين المنطقة الشعبية والمنطقة الحضرية المتقدمة. وصلنا إلي حي الزيتون، ولا أدري ما الذي قادنا إلي الشارع الذي كان به مبني كلية الألسن قبل أن تنتقل إلي الحرم الجامعي في العباسية.

كنت وكأني أشاهد شوارع مصر وحواريها للمرة الأولي. فبعد سنين من التعود علي الشوارع النظيفة المنظمة والمليئة بالأشجار الملونة أجدني الآن في شارع ضيق تزيده السيارات المركونة علي جانبيه ضيقا، والمحلات تنتهك حرمة الشارع، فكل واحد يعتبر المساحة التي أمامه ملكا خاصا له يتصرف فيها كيف يشاء، ومعظم الناس يضعون أمام محلاتهم أو بيوتهم صخورا تمنع الغرباء من ركن سياراتهم في هذه الأماكن المخصوصة. أما المتسولون والمتسولات فتجدهم في كل مكان يمدون أياديهم للمارة. والسوق الذي كان

يبهرك في إسبانيا بمبناه الأنيق المنتظم القائم بذاته تجده هنا نوعا من الفوضى العارمة في وسط الشارع وعلي جوانبه. تري هذه المناظر فتتمني من أعماق قلبك أن تنقل بلادنا ما حدث في العالم من تطور في كل المجالات.إنه حلم أو أمنية صعبة المنال، فقد ازدادت أحوالنا سوءاً، والآن وأنا أكتب هذا الكلام زادت الفوضى وتبخرت الآمال، ولا تملك إلا أن تردد الشعار الذي كتبه ملوك بني نصر علي جدران قصر الحمراء في غرناطة "لا غالب إلا الله".

سألنا بعض الجالسين عن سمسار في هذا الحي فدلونا علي شخص يجلس علي أحد المقاهي. كلمناه عن رغبتنا في تأجير شقة لا يزيد إيجارها الشهري عن مائة جنيه، فأخذنا إلي أحد الملاك في حارة متفرعة من الشارع، وانتهي اللقاء معه بالتعاقد علي الشقة. لم يكن يهمني أن تكون الشقة واسعة بقدر ما كنت أحرص علي أن يكون إيجارها معقولا حتى أستطيع دفع أقساط الشقة التي حجزتها في مساكن شركة مصر للتعمير.

بعد التعاقد طلبنا أن نري الشقة فقادنا المالك إلي بيت مكون من أربعة طوابق، كل طابق به شقتان. كان مدخل البيت صغيرا مظلما به لمبة كهربائية لا تكاد تعطي ضوءا، فضوءها شحيح مثل البيت، ومعظم المساكن في الحارة. والشقة بالدور الثاني نصعد إليها بسلم شبه متهالك لكنه يبدو مثل شخص صابر ومتحمل الأسية. والشقة نفسها مكونة من مدخل قصير جدا، وحجرة صغيرة للجلوس، وحجرة نوم ومطبخ وحمام. لم تكن الحوائط مدهونة كما ينبغي، ولم تكن الشقة علي مستوي أسرة قادمة من حي سانتا ماريا في مدريد، ولكني قلت لنفسي: هي فترة مؤقتة نتحملها بأي شكل. لم نكن نعرف حتي ذلك الوقت أن صاحب الشقة كان شديد الحرص عليها، فكان يأتي إلينا في

بعض الأحيان ويفتعل أي حجة لدخول الشقة كي يطمئن علي ما فيها، وكأننا مثلا يمكن أن ننقل منها شيئا أو نبوظ الأدوات في المطبخ أو الحمام.

عندما أبلغت زوجتي بموقع هذه الشقة وأوصافها قالت لي: لا بأس، وعلي رأي المثل "حمارتك العارجة ولا سؤال اللئيم". وكنا قد تعرضنا قبل ذلك لمواقف محرجة من بعض الأقارب المقيمين بالقاهرة لكنهم مسافرون للخارج وشققهم خالية. لم نكن نتصور أن الأزمة جعلت الناس شديدة الحرص علي الشقق بهذه الطريقة البشعة لدرجة أنهم كانوا يخافون أن تدخل الشقة وتقرر المكث فيها ولا تخرج منها أبدا.. وهات يا محاكم! وهات يا بهدلة!. فالناس في بلادنا المحروسة يغلبون الشكوك دائما، وهم إذا ناقشتهم في ذلك قالوا لك: "خد بالك من نفسك، فنحن في زمن لا يأمن الإنسان فيه أخاه".

عندما استقرت أوضاعنا في شقة الزيتون قررنا أن نقوم بزيارة لصديقي الدكتور إسماعيل الهنداوى وزوجته في بشتيل المحطة. وصف لنا إسماعيل الطريق فركبنا السيارة التي اقتنصناها من الجمرك اقتناصا ووصلنا إلي إمبابة ومن هناك أخذنا الطريق الموازي لشريط القطار لكي نصل إلي المزلقان، ونعبره إلي الجهة الأخرى فنجد أنفسنا أمام مطار إمبابة. نتوجه إلي اليسار حتى نصل إلي بداية بشتيل. ركنا السيارة عند مدخل الحي إن صح أن نسميه كذلك، وأخذنا نعبر الشوارع الضيقة التي لا يزيد عرضها علي ثلاثة أمتار، أما العمارات فعالية جدا ويمكن أن نعتبرها أبراجا، ولذلك كان إسماعيل الهنداوى عندما يتحدث عن سكنه يضحك ويقول: إننا نتبادل الشاي والقهوة مع الشقق المقابلة لنا. وعلي الرغم من أن حكومتنا الرشيدة تعرف منذ فترة طويلة أن هذه المناطق العشوائية قنبلة موقوتة فإنها عاجزة حتى الآن

عن إيجاد حلول لها. بل إن هذه المناطق تزيد باستمرار، ومنذ فترة قليلة في منطقة الكيلو **4.5** في بداية طريق السويس وجدت العجب العجاب: أبراج تصل إلي اثني عشر دوراً، وكل مالك يترك أمامه أمتاراً قليلة، وكل واحد وأصله، فتارة تجد الشارع سبعة أمتار، لكنه قد يصل إلي أربعة أمتار فقط، وكل واحد وذوقه.

مررنا في شوارع أو حارات بشتيل المحطة، نصطدم بأكتاف الناس، ويصطدمون بنا، إلي أن وصلنا إلي مدخل العمارة التي يقيم فيها إسماعيل الهنداوى. مدخل ضيق جدا، وعمارة شاهقة، وإسماعيل يقيم في الدور الخامس. صعدنا السلم الذي لا تعرف له أصلا من فصل. طرقنا الباب فاستقبلنا إسماعيل وزوجته بترحاب شديد كعادهما، وإن كان إسماعيل لابد أن ينغز نغزة فقال: "طبعا يا عم مش عاجباك بشتيل ولا عاجبك البيت! أنت دلوقتي خواجة!". قلت له: "كنت خواجة لمدة سبع سنوات فقط والآن عدت لكي أدوخ السبع دوخات حتى وصلت إلي شقتك.. فانس يا صديقي أننا كنا في مدريد واترك الأيام الخوالي فلا أظن أنها سوف تعود مرة أخرى".

نسيت إسماعيل وهو يجول بشخصيته الانبساطية المرحة هنا وهناك، وقد طرأت علي قاموسه اللغوي كلمات جديدة كأن يقول لك: "ازى العنخ" يقصد: "ازى الأخ"، أو "حياك الله وبيَّاك" أو"حيا الله الشيخ" يقول هذه العبارات بطريقة مخصوصة تزيد الألفة والمحبة. أقول نسيت أو تناسيت كل ما يدور حولي ورجعت بذاكرتي إلي الوراء عندما كنا طلابا في المرحلة الإعدادية ونقيم بشقة في حي الصاغة في طنطا. كنا نؤجرها في بداية العام الدراسي ونتركها في الصيف، وكانت الشقق أيامها متاحة في كل وقت بمبالغ يقدر عليها أمثالنا القادمون من الريف. كان عددنا خمسة: الشيخ مصطفي،

والشيخ قطب، والشيخ عبد العزيز – هكذا كنا نسميهم لأنهم أكبر منا – وإسماعيل هنداوى وأنا. كنا نطلق علي الشيخ مصطفي لقب الزبال لأنه كان المسئول عن شراء الفاكهة من ساحة السيد البدوي، فكان يذهب وينتقي أسوأ أنواع الفاكهة: البلح الصيص مثلا، أو الجوافة المضروبة. وإذا مر علي بائع السردين والفسيخ المسمي أبو عمة حمراء يختار أسوأ أنواع السردين. وذات يوم فوجئنا بأن الشيخ مصطفي حضر إلينا ومعه ابن أخته الذي التحق بمدرسة إعدادية خاصة. كانت المدارس الخاصة أيامها ممقوتة لا يدخلها إلا أسوأ الطلاب، وبما أن ابن أخت الشيخ مصطفي قد التحق بالمدرسة فسوف يقيم معنا. كان اسمه حسن، وكنا نكنيه أبو الروس لأن رأسه كانت تنتهي بمنطقة رفيعة نسبيا مما يجعلها تشبه المثلث. ذهب حسن وأبوه والشيخ مصطفي لشراء الملابس والأشياء المطلوبة للسكن والدراسة، وذهبنا نحن – كالعادة – لنذاكر في مسجد سيدي أحمد البدوي، وعندما عدنا بعد صلاة العشاء وجدنا حسنا قد اختار لنفسه مكانا في إحدي الحجرات، ودق مسامير في الحائط وشد تحتها مفرشا، وعلق عليها شماعات، وفي إحدي الشماعات وضع قبقابا اشتراه حديثا، وكتب فوق هذه الأشياء يافطة تقول: "شماعات الأستاذ حسن". كانت حياتنا في طنطا علي مدي تسع سنوات – أربع إعدادي وخمس ثانوي – تمثل صورة من صور الكفاح: صبية في عمر الزهور يلتزمون ببرنامج يومي صارم حيث نذهب إلي المعهد في الصباح ونعود مع آذان العصر تقريبا، نتغدى ثم ننطلق إلي مسجد السيد البدوي أو مسجد سيدي مرزوق أو أي مسجد آخر فنظل نذاكر حتى يؤذن للعشاء فنصلي ثم نعود إلي البيت، نتناول العشاء ثم ننام لنستيقظ مع آذان الفجر فنتوجه إلي مسجد سيدي مرزوق وكان هو الأقرب إلينا فنصلي الفجر ثم نستذكر

دروسنا حتى يحين موعد الذهاب إلي المعهد، فنتناول الفطور ثم ننطلق.. وهكذا طوال أيام الأسبوع ما عدا الجمعة التي كنا نقضيها مع الأهل في القرية.

وعلي الرغم من صرامة هذا الجدول أو البرنامج اليومي فإن أوقاتنا كانت تتخللها فترات من المرح والضحك والانبساط، وأعتقد أن حياة المصريين أيامها – حتى مع الفقر والضنك وشظف العيش – كانت هكذا. فقد كانت المواقف المضحكة تظهر فجأة وبدون توقعات. كان يذاكر معنا في السيد البدوي شخص يكبرنا بسنوات وكان كثير الرسوب، لكنه متين البنيان طويل لونه أبيض مشرب بحمرة، ولم يكن شكله هذا يتناسب علي الإطلاق مع قدراته العقلية، ولهذا كان إسماعيل الهنداوى يتحدث عنه دائما بلقب "الأفحلي" وهي صيغة مأخوذة من كلمة "فحل". شاهدنا الأفحلي يوما يقطع المسافة من مقام السيد البدوي إلي الميضأة في خطوات قوية ثابتة متقدمة وهو يذاكر في كتاب "العلوم الاجتماعية" فصل "القومية العربية"، مشينا خلفه مدَّعين أننا نذاكر مثله فوجدناه علي طول المسافة ذهابا وعودة يردد عبارة القومية العربية، ثم يختم ذلك بقوله: "يعني لو قلنا العربية القومية ما ينفعش" ثم يعود إلي المسلسل من جديد. ويبدو أنه ظل علي هذا الحال طوال العصرية.

وفي مسجد السيد البدوي أيضا كانت تقام حلقات ذكر في بعض الأركان يأتي إليها المريدون من كل مكان، وكان من بينهم شخص لعله درويش أو يشبه الدراويش كان يحمل بقجة صغيرة بها فول سوداني يتكسب منه، وكان عندما يندمج في الحضرة يصيح بأعلى صوته: "يا بطاطس..

عايزين نأكل بطاطس"، ويبدو أننا كنا نتفاعل معه لأننا كنا مثله غرباء لا نأكل البطاطس المطبوخة إلا عندما نذهب إلي القرية ويحتفي الأهل بقدومنا.

وذات يوم ونحن نذاكر في سيدي مرزوق وجدنا شخصا من مجموعتنا الطلابية يخرج مسرعا من دورة المياه وهو يصرخ: الحقوا الجامع هيغرق!!". كان صاحبنا قد جلس يقضي حاجته وفوقه سيفون من بتاع زمان له سلك طويل ممدود وفي نهايته مقبض. ولم يكن قد رأي مثل هذا السيفون في بلده، ويبدو أن الشيطان لعب في عبه وهو مقرفص، فأخذ يتأمل السلك حتى فرغ من حاجته فامتدت يده إلي المقبض فتدفقت المياه بصوت عال وسرعة فائقة، فظن أنه ارتكب حماقة يمكن أن تؤدي إلي غرق الجامع فأخذ يجري وهو يصيح صيحته المذكورة. ولا شك أن كل هذه الأشياء كانت تمنح حياتنا في تلك الأيام كثيرا من النشوة وكثيرا من السعادة.

وقد حدث في يوم وكنا نذاكر في مسجد بعيد نسبيا عن سكننا وهو مسجد المنشاوي، أن كنا جالسين ننتظر الإمام لنصلي صلاة المغرب، وفجأة وجدنا شخصا يتقدم إلي القبلة ويتطوع للإمامة. حضر الإمام في نفس اللحظة فطلبنا من الإمام البديل أن يرجع للخلف، فأصر علي أن يصلي هو.. دار حوار وشد وجذب من هنا وهناك حتى قال الإمام البديل: لابد أن أصلي أنا لأن هذا الإمام كافر، وإذا كنتم لا تصدقون سوف أعطيكم الدليل. قال له: إذا لم تكن كافرا انطق الشهادتين. وبالطبع لم يجبه الإمام الحقيقي إلي طلبه، وهنا قال الإمام البديل: ألم أقل لكم إنه كافرّ؟!.

كانت هذه النماذج البشرية موجودة بكثرة في المساجد في تلك الأيام. وكان لكل منهم ظروفه الخاصة التي أوصلتهم إلي حافة الجنون، ولا نقول الجنون الكامل لأنه من الواضح أنهم كانوا يحتفظون ببقية من العقل. وعندما

تحتدم لحظة الجنون لديهم نجدهم يتصرفون تصرفات غريبة بعضها يثير الضحك، وبعضها يثير الإشفاق. فهم يجعلونك تضحك من الأعماق إذا دارت بين اثنين منهم معركة وحمي وطيسها، فتجدهم يطوحون أيديهم في كل ناحية وتصدر عنهم كلمات وتعبيرات علي الرغم من حدتها فيها ظُرف وحكمة مما يطلق عليه الناس عادة حكم المجانين. وكان لكل منهم قصة: فهذا بارت تجارته وصار مكانه علي الرصيف، وذاك أكلت المخدرات مخه، والآخر خانته زوجته أو أخذت منه شقاء عمره لحماقته، ولأنه كتب لها كل شيء فطردته من بيته..

لك الله يا أخي إسماعيل الهنداوى! مازلت تنتقي الشقق الرخيصة حتى بعد أن حصلت علي الدكتوراه! ولكني أعرف أن دخلك مازال محدودا: لم تكسب بعد من الكتب الجامعية، ولم تسافر إلي الخليج، ولهذا فإنك مضطر للسكن في هذه الشقة الصغيرة المكونة من حجرة نوم وحجرة جلوس ودورة مياه فقط، وليس فيها مطبخ، مع أنك تقول إن صاحبها حريص جدا ويقطع عنكم المياه والنور إذا تأخرتم في دفع الإيجار الشهري، ثم إنك مضطر للسفر الطويل للذهاب إلي عملك، ومضطر للصعود للدور الخامس وأنت تعاني من مرض السكري الذي هاجمك في فترة مبكرة من عمرك بسبب ما قاسيته خلال تحضيرك لرسالتي الماجستير والدكتوراه، والضغط الشديد الذي يمارسه الأساتذة علي الطلاب وكأن العملية ناقصة! ومع كل هذا أراك تضحك وتمرح مثلما كنت تفعل ونحن في طنطا، وتبدي كرمك علي نحو يجعل زوجتي تتعجب من إصراركم علي أن نتناول العشاء معكم فتقدمون لنا كل ما لديكم من لحوم أو فراخ وكأننا جئنا بالخصوص لكي نأكل عندكم!!.

عندما حصل الشيخ قطب والشيخ مصطفي والشيخ عبد العزيز علي ثانوية الأزهر ذهبوا إلي القاهرة. لا أعرف أين أقاموا، ولكني عرفت بعد ذلك بعامين تقريبا عندما حصلت أنا وإسماعيل الهنداوى علي هذه الشهادة، أنا بترتيب الأول وهو بترتيب الثاني عشر. استطعت أنا أن أسكن في مدينة البعوث الإسلامية فأنقذت من البهدلة والمرمطة، لكن صديقي إسماعيل اضطر إلي السكن مع الشيخ عبد العزيز، وكان هو الأخير الذي لم يحصل بعد علي شهادة الليسانس. كان الشيخ عبد العزيز يقيم مع والدته الكبيرة في السن في حي الباطنية خلف الجامع الأزهر. وكان والدته هذه سيدة لم أر مثلها في حياتي. فهي بفطرها الصافية النقية كانت تريد أن تنقذ ابنها المكفوف من أن يقع في براثن الفقر فبذلت كل ما في وسعها لتعليمه في الأزهر. كانت سيدة دقيقة الحجم، نحيفة تستطيع أن تتحرك بسهولة ووجهها مليء بالتجاعيد، ترتدي جلابية طويلة وتعصب رأسها بمنديل غامق وفوقه طرحة سوداء. وأيام أن كنا في طنطا كانت تكتفي بأن تحضر الشيخ عبد العزيز وتتركه معنا وترجع إلي قريتها التابعة لمركز قطور. وكان الشيخ مصطفي الذي يري "طشاش"، أي يستطيع أن يري ما أمامه فقط لكنه قادر علي المشي وحده، يصحب الشيخ عبد العزيز في كل مشاويره، وبهذا استطاع أن يقضي سنواته الدراسية في طنطا بدون مشاكل. أما في القاهرة فقد اضطرت السيدة أن تبقي مع ابنها باستمرار خاصة بعد حصول الشيخ مصطفي علي الليسانس، وتسلمه العمل إماما وخطيبا بإحدى القرى التابعة لمركز كفر الزيات.

وفي القاهرة وجد إسماعيل الهنداوى أنه لا يستطيع إلا أن يقيم مع الشيخ عبد العزيز ووالدته في حي الباطنية. أما العبد لله فقد ارتقي درجة إذ أصبحت أقيم في مدينة راقية عماراها تنسب إلي الإسكان المتوسط، وفيها مساحات

كبيرة خضراء، ويقطنها عدد كبير من المبعوثين الوافدين من شتي أنحاء العالم الإسلامي من آسيا وأفريقيا وأوربا. وكان كل منا أيامها يقيم وحده في حجرة، أما دورات المياه فكانت مشتركة لكنها مريحة ونظيفة، وللمدينة موظفون وعمال يسهرون علي راحتنا ليل نهار، ويقدمون لنا وجبتين في اليوم (إفطار وغداء)، وبما أن المدينة كانت تسمي "مدينة ناصر للبعوث الإسلامية" فقد كان الاهتمام بها كبيرا، لاسيما في فترة كانت مصر أثناءها حريصة علي أن يكون لها دور فاعل في العالم الإسلامي.

دعاني إسماعيل لزيارتهم في الباطنية فركبت الأتوبيس رقم 63 الذي كان يتحرك من أمام مدينة البعوث ويصل إلي العتبة مرورا بمنطقة الحسين. نزلت أمام الجامع الأزهر، حيث الصخب الشديد، والناس يتدفقون من كل الأنحاء وكأننا في يوم الحشر، وهم متباينون في وجوههم وفي سحناتهم سواء كانوا من المصريين أو من الأجانب، ومستويات الفقر والغني مرسومة أيضا علي كل الوجوه. فنحن في عالم تتفاوت فيه أقدار الناس وأرزاقهم ومآربهم وأنماط تفكيرهم، وكل هذا ينعكس علي تحركاتهم وعلي طريقتهم في المشي، لدرجة أن الأصوات أيضا تتفاوت ما بين متسولين أو ساعين في بعض الشئون الحياتية أو متوجهين إلي هذا المكان أو ذاك.عالم شديد التنوع والغرابة، وللأسف فإني كنت قد فقدت الإحساس بهذا العالم خلال السنوات التي عشتها في مدريد.. فهناك لا تلاحظ هذا التفاوت الطبقي الرهيب، لأن المواصلات – علي سبيل المثال – نظيفة ومنظمة ومتاحة للناس أجمعين، وليس فيها درجة أولي ودرجة ثانية، أو مواصلات نظيفة وأخرى مهكعة، الأولي للأكابر والثانية لمن يريد المجتمع أن يتخلص منهم. لقد كانت الحياة بالنسبة لي في مدريد حياة يعيش فيها الناس متقاربين في المستوي وكأن التفاوت الطبقي غير موجود، مع أنه

موجود، لكن هناك حداً أدني للحياة الكريمة يعيشه كل الناس وتحرص الدولة علي تحقيقه بكل الوسائل.

خلصت نفسي من الزحام الموجود في الميدان المقابل للجامع الأزهر وانحرفت ناحية اليسار في طريقي نحو الباطنية.. الشوارع ضيقة جدا، مشغولة في كل جوانبها بالبضائع والناس الذين يحاولون أن يجدوا لأنفسهم ممرات وسط هذه الفوضى العارمة. وتلاحظ وجود شباب عند النواصي، وقد علمت فيما بعد أن هؤلاء هم الموكلون بسرعة توجيه إخباريات لتجار الكيف بأن المنطقة الآن دخلتها قوة أمن أو مخبر سري أو أي شخص له هدف سيئ، وذلك لاتخاذ الإجراءات الاحتياطية اللازمة في مثل هذا الموقف. دخلت في أكثر من شارع وأنا أدور ذات اليمين وذات اليسار إلي أن وصلت إلي مسكن إسماعيل الهنداوى والشيخ عبد العزيز. كان عبارة عن حجرة واحدة قائمة بذاتها في الدور الأول تصعد إليها بسلم خشبي تعاني صعوبة شديدة في صعوده، ولا أدري كيف كان يتعامل معه الشيخ عبد العزيز ووالدته؟! إن المصريين شعب عجيب، لديه قدرة غريبة علي التأقلم مع كل الظروف حتى ولو كانت شديدة القسوة!!. كان باب الحجرة يفتح ويقفل وحده. طرأ علي ذهني فورا الباب الذي دخلت منه لمقابلة محافظ الغربية السيد/ وجيه أباظة.

فبعد حصولي علي الثانوية وصلتني برقية من المحافظ تدعوني لمقابلته في مكتبه ووصلت برقية أخرى لصديقي المرحوم حسن الكلاف من قرية ابشواى الملق مركز قطور تدعوه للحضور، وكان ترتيبه العاشر. كانت الفرحة غامرة لدرجة أنها وصلت إلي سمع الحاج محمد الوزان فوقف علي ناصية شارعنا يقول للناس إن هذا الولد ابن الحاج حامد القزاز سوف يحصل علي أموال طائلة من المحافظة ووزارة الأوقاف وأماكن أخرى. ولا شك أن

كلام الوزان كان له تأثير قوي علي النفوس، وفتح المجال للأحلام والطموحات والرغبة في الخروج من براثن الفقر. ذهبت مع حسن الكلاف إلي المحافظة، وكان والدي يريد أن يأتي معنا فنصحه بعضهم بأن من الأفضل أن يذهب الولدان وحدهما.. لماذا كانت هذه النصيحة؟ لا أستطيع أن أحدد الأسباب إلي الآن، فهناك دائما أشياء غامضة ومن الأفضل أن تظل كذلك. ولو طلبنا من الروائي البرتغالي العالمي خوسيه ساراماجو أن يتأمل حولها فربما قدم لنا رواية كاملة تدور حو ل أفضلية أن يتوجه شاب وحده أو شابان وحدهما لمقابلة المحافظ. والذي يمكن أن يساعدنا في هذه المسألة أيضا هو الروائي الأرجنتيني خوليو كورتا ثار، فقد حكي لنا أنه بعد أن تزو ج – وكان يقيم في باريس – ذهب مع زوجته لقضاء عدة أسابيع في إيطاليا، وذات يوم وهما يصعدان سلما طويلا بأحد المتاحف قالت له زوجته فجأة: "الحاصل هو أن هذا الدرج ما هو إلا درج للنزول" .يقول كورتا ثار: "وقد أعجبتني جدا هذه الجملة وقلت لزوجتي أورورا: ينبغي علي المرء أن يكتب بعض التعليمات عن كيف يصعد أو يهبط درجا".

توجهنا إلي مبني المحافظة في طنطا، وصعدنا الدرج إلي مكتب المحافظ. سلمنا البرقيتين المرسلتين إلينا للسكرتير فطلب منا أن ننتظر. لم نمكث كثيرا ودخلنا لمقابلة المحافظ من باب فوجئنا أنه ليس مثل أبوابنا التي تحتاج إلي قوة لفتحها، وإنما تدفعه أمامك برفق فيفتح ثم يغلق وحده. لم تكن قد ظهرت بعد الأبواب التي تفتح وتقفل ألكترونيا، لكن باب المحافظ علي كل حال كان يمثل بالنسبة لنا اكتشافا. وما أكثر الاكتشافات التي كانت تقابلنا في تلك الفترة. فنحن فلاحون قدمنا من الريف إلي المدينة وكانت الهوة واسعة حينئذ بين الريف والمدينة. الآن أصبحت المناطق العشوائية في المدن أسوأ من

الريف.. ولله في خلقه شئون! استقبلنا المحافظ بترحاب شديد وربَّت علي يد كل منا، وتمني لنا التوفيق ومواصلة التفوق في الجامعة. وفاجأنا بقراره بأن المحافظة سوف تصرف لنا مبلغا شهريا طوال فترة التعليم الجامعي. كانت السعادة غامرة في الأسرة وفي القرية، وقد عدنا إلي المحافظة بعد أيام وصرفنا المبلغ الأول، وملأنا الأوراق الخاصة بالصرف الشهري. وبعد شهر ذهبنا لتسلم الشهر الثاني فقابلونا مقابلة في غاية السوء، بل إنهم طردونا: "يا للا يا ولد انت وهوّ بلاش قلة أدب!!". حاولنا أن ندخل للمحافظ لنحكي له ما حدث ولكنهم منعونا منعا باتا، وسخروا منا، فعدنا أدراجنا نجر أذيال الخيبة والخسران.

تذكرت باب المحافظ وما حدث لنا هناك وأنا أدخل حجرة الشيخ عبد العزيز وإسماعيل الهنداوى من باب يقفل ويفتح وحده، لكن ليس علي طريقة باب المحافظ بل بطريقة أخرى تماما تدل علي أن الباب وجوده مثل عدمه، فهو لا يعطي حماية ولا يمنح ثقة في مسكن مقفل علي من فيه، وإنما هو موصول بالحائط بطريقة "كل شن كان". وأذكر أني لم أمكث إلا دقائق معدودات، ولذلك ليس لدي الآن أي تصور لهذه الحجرة العجيبة.

وبعد أن حصل الشيخ عبد العزيز علي الليسانس وذهب للعمل في قطور – وهذه كانت ميزة أيامها – ظل إسماعيل الهنداوى وحده في هذه الحجرة إلي أن تخرج. ولأنه يريد أن يظل بالقاهرة لمواصلة الدراسات العليا انتقل إلي سكن في منطقة بولاق أبو العلا. أما أنا فقد تركت مدينة البعوث – مضطرا – بعد التخرج وانتقلت للسكن مع أخي الأصغر في المطرية، وكان يدرس في معهد التكنولوجيا الذي انضم إلي جامعة حلوان فيما بعد وتحول إلي كلية.

كنت أسمع أن المطرية كانت منطقة خضراء جميلة، وأن الأثرياء قبل يوليه 1952 كانوا يبنون فيها القصور والفيلات، ولكن في الفترة التي أقمت بها في منتصف السبعينيات تقريبا كانت قد تحولت إلي منطقة عشوائية مهملة: الشوارع مكسرة، والأرصفة مزالة، والنواصي مليئة بأكوام الزبالة ومخلفات المباني وغير ذلك، والناس يسيرون تائهين أو شبه تائهين، ومحطة الأتوبيسات القريبة من المسلة في حالة فوضي عارمة، ولكي تذهب إلي أي مكان تنتظر لفترة طويلة قد تكون ساعة أو أكثر، وأحيانا تفضل أن تأخذ القطار القادم من المرج، فهو علي الأقل أكثر انتظاما. أما البيت الذي نسكن فيه فقد قسَّم المالك الشقة الصغيرة شقتين حتى يزيد من السكان ومن الإيجارات، لكنها علي الرغم من كل شيء كانت معقولة، لاسيما إذا قارنتها بالمكان الذي يسكن فيه صديقي إسماعيل الهنداوى، حيث كان يحكي لي عن المعاناة التي يعيشها فيها يوميا.

وقد دعاني ذات يوم أن أذهب معه إلي مسكنه، وكنا في الحرم الجامعي بمنطقة الحسين. أخذنا أوتوبيسا يوصلنا إلي محطة الإسعاف في شارع رمسيس بالتقاطع مع شارع 26 يوليو. وهذه منطقة طول عمرها مزدحمة بل إنها قد زادت خلال السنوات الأخيرة ازدحاما وضجيجا وتشويشا وفوضي لدرجة أنني عندما أكون متوجها إلي الزمالك وأنزل هناك أقضي الدقائق المعدودة وأنا أحس أن مخي سينفجر، تماما مثلما يحدث لي في ميدان رمسيس. تشعر أن البلد ليس فيها حكومة، وليس فيها إدارات،وأن كل واحد من المسئولين الكبار مكبَّر مخه؛ فهو عندما يتحرك تخلي له الشوارع، فما الذي يزعجه بالبحث عن حلول لأبناء هذا الشعب المنحوس؟! وإذا كان هذا يحدث الآن

ونحن في النصف الثاني من عام **2010** فما بالك بما سوف يكون عليه الأمر في الشهور والسنوات القادمة؟!.

نزلنا أمام الإسعاف وتوجهنا ناحية بولاق أبو العلا. عربات الفواكه، والملابس القديمة، والأدوات المترلية الصغيرة تملأ الجوانب، والكاسيتات ذات الأصوات العالية تزيد الصخب والضجيج، وكلما تقدمنا خطوات نجد محلات الملابس مستولية علي الرصيف بكامله، تعرض بضاعتها والناس يتفرجون لاسيما النساء اللائي يحلو لهن إمضاء الوقت كله في الفرجة علي الملابس ونشرها أمام عيونهن وتقليبها، وأي شخص يمكن أن يقف حسب هواه، ومن هنا تحس وأنت تمشي كأنك سوف تصطدم بكل هذه الأفواج الغفيرة من البشر. وصلنا إلي شارع علي اليمين واسع نسبيا فدخلنا فيه، لكننا بعد ذلك أخذنا ندخل من حارة إلي حارة أخري حتى وقفنا أمام البيت. تأملت البيت الذي من المفروض أن يسمي بيتا، وقلت في نفسي لا يمكن أن يكون هذا بيتا اللهم إلا إذا كنا قد صرنا نسمي العشش بيوتا. كانت عشة فعلا مكونة من مدخل يسمونه الدور الأرضي، وليس هناك إلا حجرة واحدة بالدور الأول تصعد إليها بسلم متهالك، وبجوارها دورة مياه لا أظن أني رأيت مثلها في حياتي، لها نصف باب ونصف سقف، وعليك أن تتحايل حتى لا تراك عيون المارين في الشارع. أما الحجرة نفسها فأمرها عجب حيطالها نصف مهدمة، ولها نصف سقف أيضا، وكيس قطن ضخم جدا يبلغ حجمه قنطارا موضوع في ركن جانبي، والفرش عبارة عن حصيرة هلكانة، ولحاف يقي من برد الشتاء. جلست لفترة قصيرة جدا مع صديقي إسماعيل وأراد أن يصنع لي كوبا من الشاي فلم تطاوعني نفسي علي أن اشرب شايا في هذا المكان. ولم

ألبث أن ودعته ومضيت أجوب الحارات والشوارع حتى وصلت إلي شارع رمسيس، ومن هناك ركبت الأوتوبيس المتوجه إلي المسلة.

سافر إسماعيل الهنداوى بعد ذلك بسنوات، أثناء إقامتي في مصر، إلي إحدى الجامعات الخليجية، ثم عاد إنسانا مختلفا. اشترى شقة واسعة في منطقة حضرية متقدمة، وسيارة، وبدأت حياته تشهد كثيرا من الانتعاش، لكن الأمراض تكالبت عليه فكان يقضي فترة في بيته وفترة في المستشفي التابع للجامعة التي يعمل بها، حتى حضرته الوفاة فغادر دنيانا، وهو لا يعرف أن رحيله كان بالنسبة لي خسارة كبيرة، فقد كنا أخوين لا تجمع بينهما رابطة قرابة أو نسب وإنما رابطة حب ومودة وحياة مشتركة.

الفصل الثالث

الانتخابات

- "لم يفهم الحكام من معني الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم، وإذلال النفوس لخشونة سلطاهم، وابتزاز الأموال لانفاقها في إرضاء شهواهم، لا يرعون في ذلك عدلا، ولا يستشيرون كتابا، ولا يتبعون سنة، حتى أفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها علي النفاق والكذب والغش والاقتداء بهم في الظلم وما يتبع ذلك من الخصال التي ما فشت في أمة إلا حل بها العذاب"

(الإمام محمد عبده، "الإسلام بين العلم والمدنية")

- "المستبد لا يخرج قط عن أنه خائن خائف محتاج لعصابة تعينه وتحميه، فهو ووزراؤه كزمرة لصوص: رئيس وأعوان. فهل يجوِّز العقل أن يُنتخب رفاق من غير أهل الوفاق"

(عبد الرحمن الكواكبي "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد")

- "إن الحكام المستبدين كالحشرات القذرة لا تعيش أبدا في جو نظيف، ولا تنصب شباكها للصيد والنهب إلا حيث الغفلة السائدة والجهالة القائمة"

(محمد الغزالي "الإسلام والاستبداد السياسي")

سافرت إلي إسبانيا علي منحة قصيرة في نهايات عام **1975**، وأثناء هذه الفترة شهدت وفاة الجنرال فرانكو واعتلاء الملك خوان كارلوس عرش إسبانيا. تلي ذلك المرحلة التي سميت بالفترة الانتقالية. وقد عدت إلي مدريد في بداية عام **1977** علي منحة خاصة لدراسة الدكتوراه استطعت الحصول عليها من وزارة الخارجية الإسبانية. كانت هذه المنحة تستمر لفترة تسعة أشهر وتنقطع خلال الصيف، وقيمتها المادية علي كل حال لم تكن كافية فكنت مثل باقي الزملاء أضطر للعمل. عملت أولا في السفارة المصرية مترجما في المكتب التجاري. ومن العجيب أن المصريين في أي مكان يذهبون إليه يحملون معهم أمراضهم وعاداهم السيئة. فكنت أتقاضي راتبا شهريا قيمته أحد عشر ألف بيزيتة، وهو مبلغ بسيط جدا إذا قارناه بما يأخذه موظفو المكتب، حيث يصل راتب الموظف الصغير إلي ما يعادل مائة وخمسين ألف بيزيتة ومع ذلك كانوا يخصمون مني الألف بيزيتة الزائدة علي العشرة آلاف لإعطائها للسيدة التي كانت تحضر كل أسبوع لتنظيف المكتب. أما شغل المكتب فكان يعتمد تقريبا علي الترجمة لأنه كان عبارة عن ترجمة دراسات وتحقيقات ومعلومات تنشر في الصحف الإسبانية عن الحالة الاقتصادية في إسبانيا أو عن الاقتصاد بصفة عامة فيما يخص العلاقة مع مصر أو الاهتمامات المصرية. وبما أني المسئول عن الترجمة فكنت أترجم كل هذه الأشياء ويرسلوها هم في تقارير إلي وزارة التجارة الخارجية.

وذات يوم تغيبت عن المكتب لأني كنت أؤدي امتحان المعادلة بالكلية، ولما حضرت اليوم التالي وجدت رئيس المكتب متغيرا، محتقنا، وفاجأني بقوله:

- أين كنت بالأمس؟
- كنت أؤدي امتحان المعادل بالكلية.

- وهل تريدنا أن نغلق المكتب الحكومي من أجل سيادتك؟
- ومن قال إني حضرت إلي مدريد من أجل أن أشتغل في مكتبكم؟!
- لكنك ملتزم معنا.

وفي هذه اللحظة ورد علي ذهني البيت العربي الشهير:

لكل داء دواء يُستطب به   إلا الحماقة أعيت من يداويها

فهذا الرجل الأحمق يتصور أني بالعشرة آلاف بيزيتة التي يعطيها لي ينبغي أن أكون ملتزما بالمواعيد حتى ولو تعارضت مع الهدف الذي جئت من أجله وهو متابعة دراستي العليا في جامعة مدريد. ثم إني لم أتغيب إلا يوما واحدا، فما بالك لو اضطررت للتغيب يومين أو ثلاثة عندما أجتاز المعادلة وأبدأ في دراسة الكورسات التحضيرية للدكتوراه.

امتد الحوار بيننا والرجل لا يريد أن يقتنع فوجدتني أرفع صوتي في وجهه قائلا: من الآن ابحث لك عن مترجم آخر. ولا شك أن هذا الرجل علي الرغم من حماقته كان طيبا، فلم يتخذ أي إجراء ضدي وانتهي الأمر بهذه المواجهة التي لم تخرج عن إطار الأدب. لكني سمعت فيما بعد أن رئيس أحد المكاتب الأخرى بالسفارة قال له: كيف تسمح بأن يكلمك أحد الموظفين بهذه الطريقة، إن هذا سوف يجعل الموظفين الآخرين يتجرأون عليك.

أحسست أن بقائي في هذا المكتب لن يطول فأخذت أبحث عن أماكن أخرى وعثرت في السفارة الكويتية علي وظيفة مترجم لكن تحت صفة "قائم بأعمال المستشار الصحفي". وكانت هذه فترة مهمة في حياتي لأني صحبت السفير في كل اللقاءات التي يجريها مع كبار رجال الدولة ورؤساء الأحزاب

وغيرهم. وذات يوم طلب مني السفير أن أرتب له مواعيد مع رؤساء تحرير الصحف. قلت له: يا سعادة السفير، رؤساء تحرير الصحف هنا ليسوا مثل أقرانهم في العالم العربي. فهنا الصحفي لا سلطان لأحد عليه، ولا يهمه إن كان الشخص سفيرا أو وزيرا إنما يهمه الخبر فقط والمهمة الصحفية. أصر السفير علي رأيه فاتصلت أولا برئيس تحرير جريدة "البابيس" وهي أكبر جريدة في أسبانيا وأكثر الصحف انتشارا. وكانت تربطني صلة ما برئيس تحريرها في ذلك الوقت وهو خوان لويس ثبريان. اتصلت به واتفقت معه علي موعد. وقبل الساعة المحددة بوقت قصير ركبنا السيارة الشيفروليه الأمريكاني وكانت السيارات في إسبانيا حينئذ حجمها صغير أو متوسط ولهذا كنا نلفت الأنظار، وكان من عادتي أن أجلس إلي جوار السفير في المقعد الخلفي ولا أجلس بجوار السائق، وكان هذا نابعا من إحساسي الداخلي بأني لا أقل في شيء عن السفير، فهو يمثل بلده في دولة أجنبية وأنا أواصل دراستي العلمية في الخارج. وبالطبع في السفارة المصرية كان من الصعب أن أفعل ذلك، وإن كنت لم أجرب التعامل مع السفير، لكن ذات يوم طلب مني أحد كبار موظفي المكتب التجاري أن أذهب معه إلي وزارة الزراعة، ونحن خارجان من المكتب أعطاني دوسيهين كبيرين كي أحملهما، فأرجعت إليه أحدهما قائلا: "خذ هذا وعليَّ الآخر". ومن المؤكد أنه تضايق، لكني قلت في نفسي: "هل هذا الغر يتصور أني أقل منه؟!"

وصلنا إلي مقر جريدة "البابيس" في شارع جانبي في مدريد، وصعدنا إلي حجرة رئيس التحرير. كانت المفاجأة أنها حجرة صغيرة متواضعة جدا، مملوءة بالجرائد والكتب، وليس فيها إلا مقعد رئيس التحرير ومقعدان آخران جلسنا عليهما. وبدأ السفير الحوار معه وكنت أترجم، وكان مضمون الحوار يدل

علي أن السفير لم يستوعب جيدا الكلمة التي قلتها له من أن الصحفي هنا أو رئيس التحرير مختلف تماما عن الصحفي في العالم العربي. وبعد انتهاء اللقاء نزل معنا خوان لويس ثبريان ووجدته يركب سيارته "سيات 133" وهي أردأ سيارة كانت موجودة في إسبانيا في ذلك الوقت، وعندما نزلت إلي مصر كنا نضحك علي قريب لنا يركبها لأنه كان يضطر إلي فتح الكبوت الخلفي لتهوية الموتور وإلا سخنت منه السيارة بعد قطع مسافة قصيرة.

في هذه اللحظة وجدت الصلادم يصل إليَّ لاهثا كأنه يريد أن يتحدث معي حول أمر شديد الأهمية. قال لي:

- أظنك الآن سوف تقارن بين رؤساء التحرير في مصر ورئيس تحرير أكبر جريدة أسبانية.
- نعم أيها الصلادم، أليس من حقنا أن نقارن بين ما يحدث في بلادنا وما يحدث في بلاد العالم المتقدم، لاسيما بعد أن أصبحنا دولة قريبة جدا من أن تحتل مرتبة متقدمة ضمن الدول التي يسمونها الآن "دول فاشلة"؟!.

حكيت للصلادم أني بعد أن عدت من إسبانيا ذهبت لمقابلة بعض الأصدقاء في جريدة "الأهرام"، وتصادف أن كان رئيس التحرير خارجا من المبني. ما هذا الهيلمان؟ وما هذه السلطة؟ الكل يجرون خلفه لا أدري لماذا، وكأن كل واحد يريد أن يلتمس بعض البركات. والسيارة المرسيدس الفارهة تقف أمام المبني: السائق جاهز، والباب الخلفي يفتح لدخول السيد رئيس التحرير. قلت في نفسي: "هذا ليس رئيس تحرير جريدة مهما علا قدرها، لكنه وزير أو رئيس وزراء أو أمير من الأسرة المالكة!!".

بعد أن نجحت هذه المقابلة مع رئيس تحرير جريدة البابيس طلب مني السفير أن آخذ مواعيد مع رؤساء تحرير آخرينٍ. حذرته مرة أخرى لأني كنت متأكدا من أن الذي سهل هذا اللقاء الأول هو صلتي بخوان لويس ثبريان. اتصلت بجريدة "يا" Ya وحصلت علي موعد. وتوجهنا إلي الجريدة، وأخذنا ننتظر أكثر من ساعة والسكرتيرة تقول لنا إن رئيس التحرير مشغول في أمور مهمة. عدنا أدراجنا وقلت للسيد السفير: ألم أقل لك إن الأوضاع الصحفية هنا مختلفة تماما عن الأوضاع في بلادنا؟.

كنت خلال الفترة الانتقالية التي شهدها إسبانيا بعد وفاة فرانكو أتابع ما يحدث بشغف كبير. فالملك خوان كارلوس يريد أن يحول إسبانيا إلي دولة ديمقراطية حقيقية لا تختلف في شيء عن باقي دول أوربا. وكان هذا عكس ما أراده فرانكو، فعندما اختاره وليا للعهد كي يخلفه تخطي والده خوان دي بوربون ابن الملك ألفونصو الثالث عشر الذي تنازل عن السلطة عام **1931**. ويقال إن فرانكو تعمَّد ذلك لأن خوان دي بوربون كان معروفا بميوله الديمقراطية. وكان من المفروض أن يسير الملك خوان كارلوس بعد موت فرانكو علي نهج الحركة القومية، ولكن الملك كسر كل التوقعات وأراد أن تصبح إسبانيا جزءاً لا يتجزأ من أوربا.

بدأت المرحلة الانتقالية بإجراء انتخابات حرة نزيهة بين عدد كبير من الأحزاب فاز فيها حزب الوسط الذي كان يتزعمه أدولفو سواريث، وكان حزب المعارضة الأول هو الحزب الاشتراكي العمالي الإسباني بزعامة فيليب جونثاليث. وكانت الحوارات في البرلمان **Las Cortes** تدور لساعات طويلة، ولم أكن أمل من مشاهدتها وهي تنقل علي شاشة التلفاز حتى لو استمرت عشر ساعات. وحاول العسكريون إجهاض هذه الحركة الديمقراطية

عندما اقتحم العقيد "تيخيرو" بجنوده ساحة البرلمان بدعم وتأييد من بعض الجنرالات. ولو أن العسكريين نجحوا في هذه المحاولة الانقلابية لعادت إسبانيا إلي حكمهم مرة أخرى، ولكن الملك خوان كارلوس كان قويا وصلبا وعنيدا ولهذا فشل الانقلاب. ومنذ ذلك الحين وإسبانيا تحكم حكما ديمقراطيا حقيقيا، وقد حدث فيها تقدم كبير خلال العقود الأخيرة. أما الملك خوان كارلوس وزوجته الملكة صوفيا فقد أصبحا رمزين لاستقرار الدولة ونموها وتطورها، وكل الجماعات والتنظيمات والأحزاب التي كانت تعادي النظام الملكي صاروا من أشد المتمسكين بهذا النظام.

كنا ونحن في إسبانيا نتابع ما يجري في مصر وكأننا موجودون داخل البلد لأن الجرائد كانت تصل إلينا عن طريق السفارات. تابعنا محادثات الكيلو **101** واتفاقيات كامب ديفيد ورحلات وزير الخارجية الأمريكي هنري كسينجر إلي القاهرة وتل أبيب. وكنا نشعر أن الرئيس المصري أنور السادات يجهض انتصار السادس من اكتوبر **1973** بالتنازلات الكثيرة التي يقدمها. وهذه التنازلات كانت واضحة في محادثات كامب ديفيد ولهذا استقال وزراء الخارجية واحداً بعد الآخر محمود رياض وإسماعيل فهمي ومحمد إبراهيم كامل.

وكان هذا آخر العهد بالاستقالات السياسية. كان السادات يتذرع دائما بأنه يريد استرداد أرض سيناء، وكان يبشر الناس بأن عهد الرخاء قادم لا محالة، وأن حرب اكتوبر هي آخر الحروب. وأعتقد أنه لم يتحقق شيء مما وعد به السادات: فسيناء أرض منزوعة السلاح والإسرائيليون يمكن أن يستولوا عليها مرة أخرى في أي وقت، والرخاء صار بعيدا بل إنه الآن شبه مستحيل، أما الحروب فقد استطاعت إسرائيل أن تجعل مصر، أكبر بلد عربي،

محايدة تنظر إلي حروب إسرائيل في غزة أو لبنان وكأن الأمر لا يعنيها. ونتيجة لغياب الدور المصري الفاعل وصل العالم العربي حاليا إلي حالة من الانهيار لم تحدث في تاريخه.

ولكي تكتمل مأساة الشعب المصري أقدم أنور السادات بوصفه حاكما فردا علي خطوة مازال الشعب المصري يعاني من آثارها إلي الآن. فقد قرر أن يختار نائبا له، ولم يقع بصره إلا علي شخص كان بعيدا جدا عن كل ما يخص شئون الحكم والسياسة، وهو حسني مبارك الذي كان قائدا لسلاح الطيران في حرب اكتوبر. كان حسني مبارك قائدا عسكريا ناجحا.. لا يمكن لأحد أن يشكك في ذلك، ولكنه لم يكن رجل سياسة أو حكم. كان كل أمله بعد انتهاء حرب اكتوبر أن يعمل سفيرا لمصر في لندن أو في أي مكان، ولكنه – كما حكت السيدة سوزان مبارك في حديث لها مع إحدي المجلات – فوجئ بأن السادات يقول له: هل لديك استعداد لأن تكون نائبا للرئيس؟ ولما كانت المفاجأة قوية لحسني مبارك طلب من السادات أن يتركه يفكر، فأعطاه يومين. وتقول السيدة سوزان مبارك إن السادات لم ينتظر اليومين، بل صدر قرار تعيين حسني مبارك نائبا لرئيس الجمهورية في اليوم التالي مباشرة. ومعني هذا في بلادنا المحروسة هو أن النائب سوف يكون رئيسا للجمهورية عندما يموت الرئيس أو يقتل، والرؤساء عندنا لا يتركون الرئاسة إلا بحدث الموت أو القتل، ولذلك ليس هناك في قاموسنا اللغوي مصطلح "رئيس سابق".

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه "الإسلام والاستبداد السياسي": "إن هتلر وصل إلي الحكم عن طريق الشعب نفسه ثم تحول بعد ذلك إلي دكتاتور، وكذلك فعل كثيرون من الحكام المستبدين هناك. أما عندنا فالحكام يظهرون فجأة كالنبات الشيطاني لا تعرف كيف ظهر ولا من تعهده؟ وتنام الشعوب

ليلها وتصحو نهارها وهي ترمق حكامها كما يرمق المحزون القدر الغالب، أو كما يحمل المفجوع المصيبة الفادحة. وكلما تألفت حكومة ينظر إليها الشعب كما ينظر الإنسان إلي المرآة فيجد فيها صورته، حتى أصبح الشذوذ قاعدة، وحتى أصبح العامة يستغربون العدالة ويألفون المظالم".

ولا شك أن السادات كان يتصرف انطلاقا من أمرين: الأول هو الدستور الموجود والذي يتم تفصيله أو تعديله وفقا لرغبات الحكام وأهوائهم. والثاني هو أن الحاكم في بلادنا يعتبر البلد عزبة من أملاكه، تابعة له يمكنه أن يتصرف فيها كما يريد، وبما أنه لا شيء يقف في طريقه أو يردعه فإنه لا يتورع عن فعل أي شيء واتخاذ أي قرار. وكما يقول الشيخ الغزالي أيضا في كتابه المذكور: "وقد بين الله لنا في كتابه أن جبروت الفرد الحاكم إذا انساح فلم توقفه حدود الشريعة ولم تحبسه ضوابط القانون فسدت الأحوال واختفي الرجال وهانت الحقوق وضاعت الكرامات".

لم تمض إلا فترة قليلة حتى وقع حادث المنصة أثناء الاحتفال بحرب اكتوبر في عام **1981**، وقتل السادات في ذلك اليوم، واتخذت الإجراءات المعروفة في مثل هذا الموقف، وأصبح حسني مبارك رئيسا للجمهورية. وقد بدأ بإخراج المعتقلين السياسيين الذين وضعهم السادات في السجن، وأدلي ببعض التصريحات ومن بينها أنه لن يحكم أكثر من مدتين، وأن الكفن ليس به جيوب. وقد أثبتت الأيام بعد ما يقرب من ثلاثين عاما أن الحاكم في بلادنا لا يمكن أن يترك الحكم طواعية. أما الكفن فقد ثبت أيضا أنه ملئ بالجيوب، ومن يشكك في ذلك عليه أن يطالب حسني مبارك بتقديم ذمته المالية وذمة أفراد أسرته، لنرى ماذا تمتلك هذه الأسرة الآن؟

ومعروف إن حسني مبارك لا يختلف في شيء عن الشعب المصري، فهو قادم من قاع السلم الاجتماعي، وأسرته معروفة في كفر المصيلحة القريبة من شبين الكوم، ووالده وإخوته كانوا معروفين للكافة. فكيف تحول حسني مبارك في غضون سنوات قليلة إلي شخص واسع الثراء؟ وكم تتكلف- طبعا علي حساب الدولة – هذه الرحلات المتواصلة إلي ألمانيا وفرنسا وإيطاليا؟ بل إن انتقالاته اليومية نفسها تتكلف الملايين. وكل هذا من دم الشعب المصري الغلبان، لأنها رحلات ليس من ورائها أي طائل، وعادة ما يعلن عنها من أنها لدفع عملية السلام. ولكن أي سلام تشارك فيه مصر الآن؟!!. وهل الشعب المصري ساذج إلي هذه الدرجة حتى يصدق هذا الكلام؟. وهكذا تبخرت وعود حسني مبارك عند تسلمه السلطة بعد مقتل السادات، وكما يقول عبد الرحمن الكواكبي في كتابه"طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" "فإنه لا يوثق بوعد من يتولي السلطة أيا كان، ولا بعهده ويمينه علي مراعاة الدين والتقوى والحق والشرف والعدالة ومقتضيات المصلحة العامة، وأمثال ذلك من القضايا الكلية المبهمة التي تدور علي لسان كل بر وفاجر، وما هي في الحقيقة إلا كلام مبهم فارغ".

بعد رجوعي إلي مصر بفترة قليلة أجريت انتخابات لمجلس الشعب، وقد تحمست جدا للمشاركة في التصويت، فاتصلت ببعض أصدقائي في القرية وطلبت منهم أن يستخرجوا لي بطاقة انتخابية، وفي اليوم المحدد للانتخابات غادرت القاهرة بسيارتي متوجها إلي طنطا التي لابد أن أمر عليها قبل ذهابي إلي القرية. ومن هناك أخذت الطريق الزراعي طنطا – كفر الشيخ، فمررت علي القرى التي مثَّلت علامات مهمة في حياتي: قرية سبرباي، والعزبة المقابلة لها، ثم عزبة الأوقاف، التي كانت علي يساري بينما المصرف المسمي"المجاري"

علي يميني وهو مصرف مازال قائما إلي الآن يحمل الصرف الصحي لمدينة طنطا ويمر علي القرى المذكورة ثم قريتنا ثم كنيِّسة دمشيت، وبالقرب من إبشواي الملق يصب في مصرف آخر أوسع منه وتبدو مياهه أكثر شفافية، ولا أدري هل يستخدم للري أم لا؟. ما أعرفه بالنسبة لمصرف المجاري الذي يمر علينا أن المزارعين قد يضطرون إلي استخدام مياهه القذرة إذا شحت المياه. لاسيما خلال السنوات الأخيرة التي تحولت فيها قنوات الري هي الأخرى إلي مجاري. وهذا لم يكن يحدث فيما سبق. فقد كنا خلال الفترة التي ارتبطتُ فيها بالقرية إلي منتصف السبيعنيات تقريبا نري المياه تتدفق في الترع والقنوات، وتمتلئ الترع إلي حافتها لدرجة أن الفلاحين كانوا يستغلون ذلك في سقي الأرض بالراحة كما يقولون، أي بدون استخدام الطمبور أو الناعورة. الآن عندما أذهب إلي القرية أجد الفلاحين لكي يسقوا أرضهم يشغلون أكثر من موتور، أحدها علي رأس الأرض والثاني عند بداية القناة، والثالث عند بداية الترعة إن احتاجوا إلي ذلك. ما الذي حدث يا مصر؟ وهل يمكن أن يؤدي الإهمال والتسيب وانعدام الرؤية المستقبلية إلي كل هذا؟. هذا هو الحاصل بعد أن جلس علي عرش وزارة الزراعة وزير واحد لمدة عشرين عاما، كنا نشاهده في التليفزيون نائما خلال اللقاءات التي تعقد في مجلس الشعب بحضور رئيس الجمهورية. وقد ترك الوزارة نهبا لأمثال يوسف عبد الرحمن وراندا الشامي وغيرهما من المتورطين في قضية "المبيدات المسرطنة"، وما خفي كان أعظم. وعندما جاء علي رأس الوزارة رجل صاحب ضمير حي ويريد الإصلاح فعلا وهو المهندس/ أحمد الليثي لم يتركوه في الوزارة إلا أشهر معدودات. وهذا هو نظام مبارك الذي أوصل البلد إلي حالة الخراب في كل شيء.

وصلت إلي قريتنا فانحدرت يسارا لأمضي في الطريق الواصل من مصرف المجاري والطريق الأسفلتي إلي المناطق السكنية، وطوله حوالي كيلومتر واحد. الخضرة ممتدة علي جانبي الطريق، لم يكن العمران قد وصل إلي هذه المنطقة، والناس ماضون إلي أعمالهم يجرون مواشيهم خلفهم وقليلا ما تقابلك سيارة، ومعظمها في ذلك الوقت كانت سيارات أجرة من الموديلات القديمة التي تتسع لسبعة أفراد، لكن السائقين يتعمدون أن يحشروا فيها عشرين شخصا. كنا نركبها أيام الدراسة في طنطا، وكان السائق يطلب منا أن نقرفص حتى لا تظهر رءوسنا عندما نمر علي كشك المرور ونحن داخلون إلي طنطا. تنقطع الأنفاس وتحس أنك في يوم الحشر لكنك مضطر للتحمل، وإلا فليس لديك إلا ثلاث وسائل أخرى: إما أن تركب عربة كارو يجرها حمار أو حصان، وإما أن تمتطي الحمار والمدة طويلة عشرة كيلومترات تقريبا من القرية إلي طنطا، وعليك أن تترك الحمار في إحدى الوكالات التي كانت منتشرة في شارع السباعي، وبما أن الحمير المودعة في الوكالة كلها بدون أكل فإن معارك طاحنة تدور فيما بينها، وعندما نعود إليها بعد انتهاء مهمتنا نجد الجروح قد ملأت ظهرها والجوع بدا أثره واضحا عليها. ندفع القرش صاغ ثم نخرج بالحمار وقد تدلت أذناه، فهو لا يخرج أبدا من الوكالة مثلما دخلها. وأذكر أننا في أيام الامتحانات كنت نضطر إلي استخدام وسيلة السفر بالحمار لمجموعة أسباب، منها أننا تركنا الشقق بعد انتهاء فترة الدراسة، وأننا في هذه الفترة بالذات نشجع بعضنا البعض، فنخرج من البلد في موكب كبير قد يضم عشرين حماراً، وثالثا أننا بدلا من أن ندفع قرشين لسيارات أجرة أو للعربجي ندفع قرشا واحداً للوكالة. ومازالت إلي الآن ترد إلي ذهني صورة لا أنساها أبداً، فقد كنا ندخل إلي طنطا عن طريق قرية قحافة، ثم ندلف إلي

شارع سعيد، وكانت طنطا أيامها نظيفة وجميلة والأشجار ذات الزهور الصفراء تملأ جانبي الطريق، ونحن في هذا الجو الجميل نمضي في موكب حميري منسجم متناسق مندفعين تجاه منطقة شارع السباعي، يقودنا أكبرنا سنا وكان من المعمرين في الأزهر واسمه علي البشبوري. الوسيلة الثالثة هي المشي وكان بعضنا يضطر إليها عندما لا تكون معه عملات يدفعها للمواصلات أو يدفعها للوكالة.

وبعد أن انتهيت من كتابة هذه الحكاية لاحظت أن شخصا قد تسلل وجلس إلي جانبي. ميزت في وجهه ملامح الصلادم، لكنه جاء هذه المرة شبه متخف، لا أدري لماذا؟ فهل الجن يحبون أن يظهروا في صور مختلفة حتى لا نمل نحن الإنس منهم؟ ربما. المهم أنه خاطبني قائلا: ألا تري أن المصريين شعب صبور لدية قدرة عجيبة علي التحمل؟

- هذه مسألة ليس فيها أدني شك أيها الصلادم.
- لكن من أين جاءهم هذه الصفة؟
- علي ما أعتقد، أيها الصلادم، أن هذا الشعب طوال تاريخه تعود علي أن يكون منهوبا. وإذا قرأت كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور" لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفي وجدته يذكر ما تركه القادة بعد رحيلهم. فقد خلفَّ الأمير أحمد بن طولون من الذهب العين عشرة آلاف ألف دينار، ومن المماليك المشتراوات سبعة آلاف مملوك، ومن العبيد الزنج أربعة وعشرين ألف عبد، ومن الخيول سبعة آلاف فرس، ومن البغال ستة آلاف بغل، ومن الجمال عشرة آلاف جمل، ومن الفصوص والجواهر مائة صندوق، ومن

المراكب الحربية ألف مركب، هذا خارجا عن الضياع والأملاك والبساتين وغير ذلك. أما الأمير جوهر القائد فما وجد له بعد موته من الذهب العين ستمائة ألف ألف دينار، ومن الدراهم أربعة آلاف ألف درهم، ومن اللؤلؤ الكبار واليواقيت أربعة صناديق مجلدة، ومن القصب الزمرد ألف قصبة، ومن الثياب الديباج خمسا وسبعين ألف قطعة، ووجد عنده دواة من الذهب طولها ذراع وهي مرصعة بالدرر والياقوت، فقوم ما عليها من الجواهر باثني عشر ألف دينار.. الخ الخ. أما تركة الأمير برجوان الذي كان الحاكم بأمر الله لا يتصرف في شيء من أمور المملكة إلا برأيه فقد وجد عنده بعد وفاته أضعاف ما وجد عند الأمير جوهر القائد، فمن جملة ذلك من الذهب العين مائتي ألف ألف دينار، ومن الفضة الدراهم خمسين أردبا، ووجد له من القماش مائتين وستين بقجة، ووجد له ألف قميص حرير سكندري، واثني عشر صندوقا بها جواهر وفصوص، ووجد من الفرش والأواني ما لا يحصي، حتى قيل كان ينقل من حارة برجوان إلي قصر الزمرد، في كل يوم، دفعتان علي مائتي جمل، نحو أربعين يوما في موجود برجوان وهو لا يفرغ، هذا خارجا عن الضياع والأملاك والدواب والبهائم والعبيد والجواري وغير ذلك.

- وماذا كانت حالة الشعب في ذلك الوقت؟ ألا يمكن أن تكون هذه التركات جزءا من حالة الانتعاش التي كانت تعيشها البلد في تلك الأيام البعيدة؟
- كلا يا سيدي، الشعب كان يعاني من الفقر والجوع والمرض مثلما يعاني في هذه الأيام، ويحكي ابن إياس نفسه، وكأنه يتحدث عن هذه الأيام، فيقول عما حدث سنة ست وتسعين وستمائة من الهجرة: "وقع الغلاء بمصر وأعمالها، وانتهي سعر القمح إلي مائة وسبعين درهما، وانتهي سعر الشعير إلي مئة وعشرين درهما كل أردب، وكذلك الفول، وبلغ الرطل اللحم إلي سبعة دراهم، وبيعت الفروج بخمسة عشر درهما، وبيعت البيضة الواحدة بأربعة دراهم، وبيعت التفاحة والرمانة والسفرجلة كل واحدة منها بثلاثين درهما، وبيعت قطعة السكر بثقلها فضة. فلما اشتد الأمر علي الناس أكلوا القطط والكلاب والحمير والبغال والخيل والجمال، ولم يبق عند أحد شيء من الدواب، حتى قيل بيع كل كلب بخمسة دراهم، وكل قط بثلاثة دراهم. وقد عم الغلاء سائر البلاد الشامية، حتى مكة والمدينة.

تركني الصلادم ومضي لحاله، ووصلت أنا إلي مدخل القرية. كانت ماكينة الطحين علي يساري، وهي مكان لي فيه ذكريات كثيرة قديمة. وهناك انحدرت يمينا لأصل إلي الوحدة المجمعة حيث مقر اللجنة الانتخابية، لكن ما أثار انتباهي أمام ماكينة الطحين هو أني وجدت شخصا كان زميلا لي في المدرسة الابتدائية، كان دقيق الحجم، ولكنه الآن طول بعرض كما يقولون في

القرية.. فعلا وجدته فارع الطول، قوي البنية، عريض الكتفين، يقف متحفزاً وهو يحمل نبوتا أطول منه ويبدو مستعدا كل الاستعداد لأي معركة قد تحدث، وحوله عدد كبير من الأفراد متحفزين مثله، وفي حالة تأهب للانقضاض إن كان ذلك مطلوبا. كان المرشح من قريتنا لانتخابات مجلس الشعب شخص استطاع أن يكون له شعبية واسعة بين الناس، علي الرغم من أنه أمي لا يقرأ ولا يكتب، لكنه كان يدرك بحكمته البسيطة أن الناس في بلادنا لا تريد من عضو مجلس الشعب إلا أن يكون خادما لمصالحهم.. فالمصالح كلها تقريبا تحتاج إلي من يحركها، لدرجة أن استخراج جثة قادمة من الخارج من مطار القاهرة تحتاج إلي إجراءات وأوراق ومقابلة البيه الملازم، والباشا المقدم، ووكيل النائب العام وغير ذلك، وكان السعيد القدح – وهذا هو اسمه – يتمتع بشخصيه قوية: جرأة لا يمتلكها أي شخص آخر، وجسم فارع الطول، وقدرة علي التصرف ولهذا كان يدخل علي أي مسئول: المحافظ، أو نائب المحافظ، أو بهوات وبشوات هذا الزمان أو حتى الوزير نفسه، ويخرج دائما وطلباته مجابة لاسيما بعد أن أصبح عضوا في مجلس الشعب، وكان الناس في قريتنا والقرى المجاورة يحبونه ويقدرونه. وقد وقفوا معه ذات مرة في محنته عندما تقدم أحد خصومه بمذكرة ضده للجنة اختيار المرشحين تتهمه بأنه أمي وأجري له امتحان في القراءة والكتابة فرسب، مع أن كثيرين قبل الامتحان تطوعوا بإعطائه دروسا حتى يجتاز الامتحان، لكن – كما يقال – النقش في الكبر كالنقش علي الماء.

ومع أنه رسب في الامتحان ولم يستطع الترشيح لمجلس الشعب في الانتخابات التي أجريت أيام ممدوح سالم في عهد السادات، فإن الناس ظلت تحبه وتقدره، وظل هو يمارس دوره في خدمة الناس. وفي أول انتخابات جرت

لمجلس الشعب في عهد حسني مبارك كان الحزب يبحث عن ذوي الشعبية فأعاد ترشيح هذا الرجل.

وصلت إلي مقر اللجنة الانتخابية وفي ذهني أني سوف أقوم بأداء دوري الوطني علي نحو ما رأيت في إسبانيا، وعلي نحو ما يحدث في أنحاء العالم بعد أن أدركت الشعوب أن الفرد له دور في الحكم وفي السياسة، وأن صوته مهم لأنه يمكن أن يساعد في وصول هذا الحزب أو ذاك إلي السلطة، وأن السلطة لابد أن يتم تداولها بين الأحزاب السياسية. وكانت وعود حسني مبارك تملأ الصحف وأجهزة الإعلام بأن الانتخابات سوف تكون نزيهة، وأن أي مواطن سوف تكون له الحرية الكاملة في الإدلاء بصوته، وغير ذلك من وعود صدقها الناس لأن حسني مبارك كان جديدا علي الحكم وربما يكون صادقا في وعوده.

لكن أول اختبار لي مع التصويت في الانتخابات باء بالفشل العظيم، فقد وصلت إلي اللجنة ووجدت الموظفين الموجودين بها يقولون لي:

- خلاص يا دكتور!
- إيه يعني خلاص؟
- يعني صوتك وصل إلي الصندوق
- وكيف تصوتون لي وأنا لم أصل بعد؟

ووجدتهم يدخلون معي في كلام لا معني له، وأسئلة سخيفة مثل: هل أنا ضد مرشح القرية الذي يقوم بخدمة الناس؟ وما الفرق بين أن يصوتوا لي وأن أصوت لنفسي؟ فالنتيجة واحدة، طالما أنه ليس هناك خلاف بيننا حول المرشح.

كانت أصداء ما شاهدته في إسبانيا مازالت ترن في ذهني، فأخذت سيارتي وتوجهت إلي مسئولي الداخلية في طنطا، ولكني كنت كلما دخلت مكتبا وجدت الشخص المسئول ينظر إليَّ في تعجب وكأن أمامه شخصاً مخبولا.. فمن هذا الذي جاء ليبلغ عن التعدي علي صوته؟!!. فالناس في بلادنا ينظرون إلي تزوير الانتخابات علي أنه نوع من الشطارة وهذا هو الفهم السائد لدي عامة الناس، أما أن يتحول هذا الفهم إلي سياسة متبعة وخطة قائمة منذ أن تولي حسني مبارك الحكم إلي الآن فهذه هي المصيبة، والكارثة التي لحقت بالشعب المصري طوال الثلاثين عاما الماضية. يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه "الإسلام والاستبداد السياسي": "لقد تتبعت أقوال طائفة من المتحدثين عن الإسلام فوجدت تصور هم لأسلوبه في الحكم غامضا، وآذاني أشد من ذلك أنهم وقفوا مكتوفي الأيدي أمام الافتيات المستمر علي سلطان الأمة كأن ما يحدث تحت سمعهم وبصرهم خارج عن الدائرة التي تخص الدين بالفتوى فيها. ولقد فهم أحد الظرفاء هذا الموقف فأرسل إلي لجنة الفتوى هذا السؤال: رجل حلف بالطلاق أن الانتخابات التي حدثت سنة كذا مزورة، فهل تطلق امرأته؟ ولم تقع لجنة الفتوى في هذا الشَرَك (بفتح الشين والراء) ولن تقع ولو بقيت المرأة معلقة أبد الدهر".

غادرت طنطا عائدا إلي القاهرة وأصداء ما حدث في القرية تتلاطم في ذهني، والأسئلة تلح عليَّ: هل أفعل مثلما يفعل الناس ولا أذهب أبدا للتصويت في أي انتخابات؟ ولكن هذا موقف سلبي. وماذا نفعل إذا كان نظام حسني مبارك قد أدمن تزوير الانتخابات، والشعب لا حول له ولا قوة؟ أذكر أن انتخابات مجلس الشورى التي جرت منذ شهور (عام **2010**) لم يذهب إليها أحد تقريبا، ومع ذلك قالت وزارة الداخلية إن نسبة من أدلوا

بأصواتهم ذادت علي العشرين في المائة، وأنا متأكد أنها لم تصل إلي ثلاثة في المائة، فقد سألت كثيرين ممن قابلتهم هل أدلوا بأصواتهم فردوا بالنفي، وأنا شخصيا لم أذهب مع أن لجنة الانتخابات في منطقة شيراتون قريبة مني جدا، ولكني أصبحت علي اقتناع تام بأنه طالما ظل حسني مبارك في السلطة فإنه لا إصلاح ولا تغيير ولا توقف عن تزوير الانتخابات.

الفصل الرابع

الزعامات الوهمية

- "ما يمنع المسلمين من الإفادة من نظام الدساتير الحديثة إلا أهم مغلوبون علي أمورهم من قديم، والمرء لا ينظم بيته إلا إذا كان سيدا فيه، وقديما قال المتنبي:

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزم

(محمد الغزالي "الإسلام والاستبداد السياسي")

- "ولا تكون الحكومة ظالمة من غير أن تكون لها أيدِ تمارس مظالمها. والواقع أن من المستحيل ألا تعمل هذه الأيدي في سبيل نفسها، ولذلك يكون اختلاس الأموال الأميرية أمراً طبيعيا في الدول المستبدة"

(مونتسكيو "روح القوانين")

- "المستبد يتحكم في شئون الناس بإرادته لا بإرادهم، ويحكمهم بهواه لا بشريعتهم، ويعلم من نفسه أنه الغاصب المعتدي، فيضع كعب رجله علي أفواه الملايين من الناس يسدها عن النطق بالحق والتداعي لمطالبته. المستبد عدو الحق، عدو الحرية وقاتلها. والحق أبو البشر والحرية أمهم، والعوام صبية أيتام نيام لا يعلمون شيئا، والعلماء هم إخوهم الراشدون، إن أيقظوهم هبوا، وإن دعوهم لبوا، وإلا فيتصل نومهم بالموت"

(عبد الرحمن الكواكبي "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد")

كنت وما زالت أعتقد أن المثقف موقف، لاسيما في مثل هذه الظروف التي نعيشها من استيلاء مجموعة قليلة علي السلطة يتداو لونها فيما بينهم فقط مع وجود زعيم أوحد هو صاحب الأمر والنهي في كل شيء. ولهذا كنت دائما أبحث عن أعمال المثقفين المناضلين أصحاب المواقف، والعلماء الأفذاذ الذين حملوا رايات التجديد والانعتاق من أسر الأعراف والعادات والتقاليد البالية: رفاعة الطهطاوي، وعلي مبارك، وجمال الدين الأفغاني، والإمام محمد عبده، وأحمد لطفي السيد، وعباس العقاد، وطه حسين وسواهم. لم أقابل طه حسين علي الإطلاق، ولم أتتلمذ عليه أو علي تلاميذه في كلية الآداب، ولكني قرأت كل كتبه وانفعلت بمواقفه الثورية ورؤاه التقدمية لدرجة أني مازلت أحفظ إلي الآن فقرات طويلة من حوار أجراه معه غالي شكري قبيل وفاته (أي طه حسين) بشهرين تقريبا عام **1973** وكنت أيامها طالبا بالسنة الرابعة بالكلية. كان سؤال غالي شكري يدور حول الإنجازات التي قامت بها ثورة **23** يوليو **1952** في جميع المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وما هو موقف طه حسين من هذه الإنجازات؟ ولماذا انقلب في آخر حياته ليكتب في موضوعات إسلامية؟. ومن وصف غالي شكري لوجه طه حسين في تلك اللحظة ندرك أنه استشاط غضبا ورد علي غالي شكري بالكلمات التالية: "أنت تتحدث لغتهم.. شعارات، شعارات. البلد كما أحس به مازال في مرحلة التحرير، من إسرائيل هذه المرة، والبلد كما أشعر به مازال فقيرا ومتخلفا ومريضا وجاهلا. نسبة الأميين كما هي، نسبة أنصاف المتعلمين كما هي، نسبة المثقفين تتناقص بصورة تدعو إلي الانزعاج. يخيل إلي أن ما كافحنا من أجله مازال يحتاج إلي كفاحكم وكفاح الأجيال القادمة بعدكم.. تحدث طه حسين أيضا عن المثقفين الذين رحلوا وهم يرون صعوبة خروج البلد مما

هي فيه مثل عباس العقاد ومحمد مندور.. وختم طه حسين كلامه بقوله: إنني رجل في آخر أيامي ألملم أوراقي وسأمضي قريبا، أودعكم بقليل من الأمل وكثير من الألم".

ومازالت ترن في أذني هذه الكلمات لطه حسين وكأني سمعتها منه شخصيا. كما أن دراستي في إسبانيا واطلاعي علي أدب شبه الجزيرة الأيبيرية والأدب في أمريكا اللاتينية وضع يدي علي أن المثقفين كانوا دائما طليعة التغيير والخروج من الأنفاق المظلمة التي تقبع فيها الشعوب في بعض المراحل التاريخية. وفي رحلة قمت بها إلي الاسكندرية مع ماريو بار جس يوسا أديب بيرو الذي كان مرشحا لرئاسة الجمهورية في أوائل التسعينيات، وكانت الرحلة في أوائل عام **2000**، تحدثت معه عن الفساد والدكتاتوريات في بلدان أمريكا اللاتينية وذكرته بما كتبه في بعض مقالاته: لقد وصف ماريو بارجس الفساد في بلاد أمريكا اللاتينية بأنه مثل التنين في قصص الفرسان يلتهم أحشاءه. وهو تنين من الداخل يتمثل في شياطين الطبقات المتميزة، والنزعة العسكرية، والإقطاعيات الفوضوية، والرقابة، وسيطرة جنس الذكور، والديماجوجية، والقواعد الصارمة، والبيروقراطية البورجوازية التي تقوم علي خدمة السلطة. وهناك تنين من الخارج يتمثل في التبعية الاقتصادية. ذكرته أيضا بما قاله من أن بلاد العالم الثالث تعاني من حالة فساد جماعي. فالكل مدانون، والكل مشتركون في هذا الفساد إما بالفعل، وإما بالتواطؤ، وإما بالصمت واللامبالاة. فالواقع إذن في غاية السوء، لكن الحياة يجب أن تتغير، والقصّاص مدعو للمساعدة في إحداث هذا التغيير، والخروج من هذه الأزمة الجماعية.

لكل هذا لم أنتظر طويلا وبدأت أبحث عن حزب أنضم إليه. لم يكن يؤرقني الجانب الإيديولوجي، فأنا أعرف أن الإيديولوجيات بدأت تسقط في أوائل السبعينيات عندما صدرت مذكرات الشاعر الشيلي المشهور بابلو نيرودا. وأيامها بدأ المثقفون في كل أنحاء العالم يتساءلون عن جدوى الالتزام بإيديولوجية صارمة ومحددة. كنت أبحث عن أي حزب منظم وهمه مصلحة البلد أنضم إليه. وكانت الأحزاب قد بدأت تصدر جرائدها الخاصة ولقيت هذه الجرائد إقبالا جماهيريا منقطع النظير، ولم يتصور الناس أيامها أن هذه الجرائد هي الشيء الوحيد الذي يعمل في الأحزاب، وأن وضعها سوف يستمر كذلك إلي هذه اللحظة.

اتصلت بحزب "الأحرار" وأخذت موعداً مع رئيسه مصطفي كامل مراد. وصلت إلي مقر الحزب في وسط البلد فوجدت رئيس الحزب ينتظرني، وحوله اثنان من رفقائه، تحدثنا عن أهمية التجربة الحزبية بالنسبة لمستقبل البلد، وأهمية أن تكون للحزب كوادر بشرية منتشرة في أنحاء البلاد، وأعلنت له عن رغبتي في الانضمام للحزب. رحب بى الرجل حقيقة لكنني لم أحس بأن الحزب لديه رغبة في أن ينضم إليه أحد. كررت التجربة مع حزب التجمع وإن كنت لم أقابل خالد محي الدين وإنما قابلت بعض مساعديه، وخرجت بنفس الانطباع. واستقر رأيي أخيرا علي أن أنضم لحزب الوفد. ذهبت إلي المقر في مصر الجديدة، وقابلت المسئول هناك وملأت استمارة انضمام، وبدأت أحضر الاجتماعات.. وقد أدهشني أن معظم الكلام يدور حول خدمة المواطنين، فاعترضت علي ذلك قائلا إن الحزب لابد أن تكون له أهداف، وسياسة عليا، ورؤية حزبية متطورة، وليس من المعقول أن نظل في دائرة التفكير الساذج عن خدمة المواطنين، لأن عمل الحزب الأساسي يجب

أن يتوجه للدعوة إلي أن يأخذ كل مواطن حقه بدون تدخل أحد. أحسست أن كلامي لم يعجبهم، ورأيت أنهم ينظرون إلي وكأني قادم من عالم غريب. واصلت الاجتماع معهم لبعض الوقت لكني أدركت أن هذه الاجتماعات مضيعة للوقت، وأنه من الأجدي أن أقضي وقتي في البحث والدراسة، فربما تتغير الأوضاع ويصبح لدينا أحزاب حقيقية مثل معظم بلدان العالم.

كان من الواضح منذ بداية التجربة الحزبية في مصر أن نظام حسني مبارك لا يريد أحزابا ولا يحزنون. والتجربة الحزبية داخلة ضمن هذه التركيبة العجيبة التي حكمت الأوضاع في مصر طوال العقود الثلاثة الأخيرة وهي تركيبة لا يقدر علي صياغتها بشر عاديون، ولهذا استدعيت الصلادم وسألته:

- هل يستطيع شياطين الجن أن يخترعوا تركيبة مثل التي اخترعها حسني مبارك ومعاونوه؟
- وما هذه التركيبة؟
- هي تركيبة الواقع والقشرة الخارجية، الباطن والظاهر، الكلام ونقيضه، الفعل ومظهره، الوضع الحقيقي والكلام المعسول.
- وهل استطاعوا أن يسوِّقوا هذه التركيبة؟
- نعم، لقد سوقوها بنجاح لا مثيل له، ومازالوا يحرزون النجاح في تسويقها.
- هل يمكن أن تعطيني أمثله من ذلك؟
- نعم، كثير من الأمثلة: فحسني مبارك يعلن في كل وقت أنه منحاز للكادحين والواقع يقول إنه منحاز للأثرياء فقط. وحسني مبارك يزور المصانع ويسلم علي العمال والعاملات

والواقع يقول إنهم يبيعون هذه المصانع بتراب الفلوس لأي مغامر، يأتي فيوقف المصنع ويطرد العمال ويسقع الأرض ويبيعها بالمليارات. ونظام حسني مبارك يقيم مهرجانات للثقافة والواقع يقول إن الثقافة لم تأخذ ضربتها القاضية إلا في عهد حسني مبارك. وحسني مبارك يقول الكفن ليس له جيوب والواقع يقول إن الكفن به آلاف الجيوب. وحسني مبارك يؤكد أن الانتخابات ستكون نزيهة والواقع يقول إن عهد حسني مبارك لم يشهد أي انتخابات نزيهة، وهو يؤكد علي دعم التجربة الحزبية والواقع يقول إن الأحزاب قد شهدت الانهيار في عهد مبارك.. الخ. إضافة إلي عنصر أخطر من كل العناصر الأخرى في هذه التركيبة وهو ما أسميه "المسرحية الهزلية"، فكل شيء يتم إما علي الورق، أو بصياغة مسرحية أهم ما فيها هو المظهر فقط، فكل شيء يتم إعداده بطريقة مسرحية بحيث يبدو كل شيء تمام وعال العال مع أن الواقع عكس ذلك تماما. خذ مثلا الاحتفالية التي تقيمها وزارة الأوقاف في ليلة القدر كل عام، إذ تبدو وكأن وزارة الأوقاف ليس لها عمل طوال العام إلا الإعداد لهذه الاحتفالية بما تتضمن من فقرات، لأن المهم في هذا البلد ليس الفعل بل المهرجان والتصوير التليفزيوني والتسويق الإعلامي والضحك علي ذقون العامة، ودغدغة أحاسيس المتدينين. وبما أننا شعب عاطفي تجوز عليه المشاعر فإن حكامنا يجنون الكثير من وراء هذه الاحتفالات

المظهرية. ولا شك أن وزارة الأوقاف لها مهمة أخرى تنشط كل النشاط لتحقيقها وهي توحيد الأذان، كأننا قد فرغنا من كل المشاكل ولم يبق إلا توحيد الأذان!!.

- ولكن إذا كان الشعب تجوز عليه كل هذه المظاهر فلماذا تنقد الحكام؟.

- الشعب يا أيها الصلادم مطحون وغارق في مشاكله ولا همَّ له إلا البحث عن لقمة العيش. فالإنسان المصري الآن مثل الطاحونة تدور طوال النهار وجزءاً كبيراً من الليل. أعرف موظفين عندنا في الكلية يقضون وقتهم صباحا في عملهم الرسمي، وفي المساء تراهم في مكان آخر. إضافة إلي أن غالبية الناس في بلادنا لديهم مفهوم عجيب عن الحكم. وقد حلل الإمام محمد عبده هذا الوضع في كتابه "الإسلام بين العلم والمدنية" عندما قال "أخطأ المسلم في فهم معني الطاعة لأولي الأمر والانقياد لأوامرهم، فألقي مقاليده إلي الحاكم ووكل إليه التصرف في شئونه ثم أدبر عنه حتى ظن أن الحكومة يمكنها القيام بشئونه جميعا من إدارة وسياسة بدون أن يكون لها منه عون سوى الضريبة التي تفرضها عليه". وتحدث الإمام محمد عبده بعد ذلك عن أن ثقة الناس بالحاكم قد بلغت إلي حد التأليه. ثم تحدث عن أن الحكام كانوا أقدر الناس علي انتشال الأمة مما سقطت فيه، لكن الذي حدث هو عكس ذلك تماما. وهذه هي حال الشعب وحال الحكام عندنا أيها الصلادم. فلا الشعب قادر

علي إحداث أي تغيير ولا الحكام لديهم الرغبة في هذا التغيير.

- لكن ألا تعتقد أن هناك عنصرا آخر في التركيبة الحاكمة يقوم علي التناقض الظاهري؟
- نعم، أيها الصلادم، هذا واضح جدا، فالحكومة – مثلا – تطارد الإخوان المسلمين وتعتقلهم وتحاكمهم، لكنها في واقع الأمر حريصة جدا علي وجودهم واستمرارهم، لأسباب كثيرة من بينها أنها تستخدمهم دائما فزاعة أمام أمريكا والأنظمة الغربية، وكأنهم بعبع أو مارد إذا انطلق من قمقمه سوف يدمر الحياة علي الكرة الأرضية، ثم إنها تستخدمهم لاستمرار فرض حالة الطوارئ، وإحكام القبضة الأمنية، ولذلك تراها ترخي لهم الحبال حتى في مجال الأموال والاقتصاد، وعندما تراهم أوشكوا علي تجاوز الخط الأحمر تنقض عليهم مثلما ينقض النمر علي فريسته. فهل لديكم في عالم الجن، أيها الصلادم، تدبيرات شيطانية مثل هذه؟
- أصدقك القول: إننا لا نستطيع أن تكون لنا تدبيرات كهذه. ولا أدري ما الذي أوقعكم في هذه الحبائل الجهنمية؟ إن نظام الشاه محمد رضاه بهلوي في إيران،علي قسوته، لم يبلغ هذه الدرجة من التدبير والإحكام وحوك الدسائس واصطناع الوسائل الكفيلة بالقضاء علي أي

حركة – مهما صغر شأنها – تهدد نظام الحكم أو تحول دون استمراره.

تركني الصلادم ومضي وهو يضرب كفا بكف متعجبا من أن تظل حياتنا علي مدي ثلاثين عاما تقريبا محكومة بالجمود، والفساد، والتزييف، ومع ذلك تظل الصور الإعلامية فاعلة ومؤثرة وهدفها الأول والأساسي هو تثبيت نظام الحكم بل واستمراره بنفس الأسلوب ونفس النهج.

ونظرا لأن المصريين يحسون بصعوبة الخلاص من هذا النظام فقد أصيب كثيرون منهم بالاكتئاب، والملايين منهم تركوا البلد إلي غير رجعة، والشباب يلتمسون أي فرصة للهروب إلي الخارج، وكثيرون منهم يتزوجون من أجنبيات، والفتيات داخل البلد يطاردهن شبح العنوسة.. فالشاب إذا لم يكن والده ميسور الحال وعمل حسابه في السكن والزواج لا يستطيع أن يتزوج. فمن أين يأتي بثمن الشقة أو إيجارها الشهري، وحتى بعد الزواج كيف يستطيع أن يعول أسرته؟!!.. ومن العجيب أن حكومة أحمد نظيف الآن تقيس مقدار النمو الاقتصادي بعدد السيارات التي تسير في شوارع القاهرة. وتنسي حكومة نظيف أن هذه السيارات منتج أجنبي متوفر بكثرة. فمصانع السيارات في الشرق والغرب تحدف إلينا يوميا أعداداً لا حصر لها، ولذلك أصبح سعر السيارات رخيصا إذا قارناه بأي شيء آخر. ويمكن لأي شخص حاليا أن يقتني سيارة بعشرة آلاف جنيه فقط.. سيارة قديمة، أي نعم، لكنها تسير في شوارع القاهرة وتنفث العادم، وتزيد أعداد السيارات. وإذا قارنا وضع السيارات بوضع الشقق نجد أن الأخيرة لم تعد في استطاعة الغالبية العظمي من أبناء هذا الشعب لأنها منتج محلي. فالشقة في مصر الجديدة مثلا يتعدي ثمنها نصف مليون جنيه والشقة في المناطق الشعبية والعشوائية يصل

ثمنها إلي مائتي ألف جنيه. فمن يستطيع أن يمتلك هذا المبلغ إلا إذا سافر للخارج أو تاجر في الممنوعات؟!.

ومن العجيب أن كثرة السيارات التي يعتبرها نظيف نعمة صارت نقمة شديدة.. فاليوم وأنا أكتب هذا الكلام في آخر يوم من سبتمبر **2010** كانت منطقة شيراتون المطار متوقفة تماما، في كل مداخلها:من الطريق القادم من الاسماعيلية إلي طريق العروبة إلي الطريق الدائري، وليت التوقف استمر لنصف ساعة أو ساعة. لقد استمر لساعات. وراكب السيارة كان يبدو مثل الفرخة المحبوسة التي تبحث عن مخرج بأي طريقة فلا تجد.. ما الذي أوصلنا إلي هذه الحالة؟ وهل يمكن أن تستمر الحياة في القاهرة الكبرى علي هذا النحو الانحباسي؟. إن حكومة نظيف في معظمها ما هي إلا مجموعة من المهندسين الذين لم يكن لهم جميعا أي صلة بالسياسة أو الفكر السياسي وليس عندهم رؤية أو تصور لحل أي مشكلة، لكنهم باقون في الحكم لأن رئيس الدولة نفسه، والحاكم الأوحد، ليس عنده تصور لأي شيء، فالكل عنده سواء من عمل ومن لم يعمل. ولهذا تجد العجب العجاب: فهناك مسئولون جديرون بمناصبهم ويعملون في جد وإخلاص، ولكن للأسف الشديد عددهم قليل جدا، والغالبية العظمي من المسئولين لا يعملون بل يخرِّبون، لكن الجميع عند حسني مبارك سواء: كلهم باقون، وكلهم عملات نادرة، وبما أنه صاحب القرار الأوحد في هذا البلد فإن كل شيء يمضي حسب إرادته.

ومن الأساليب التي أجادها نظام حسني مبارك البوليسي أسلوب الاختراق وهو عنصر من عناصر التركيبة العجيبة التي تحدثت عنها، بمعني أنه لا مانع من أن تنشأ أحزاب، وهي علي أي حال لا يُعلن عنها إلا بعد موافقة ما يسمونه لجنة الأحزاب المكونة من أعضاء من الحزب الوطني الحاكم، وهذا

أمر ليس له مثيل في الدنيا، ولكنه جزء من المضحكات التي أشار إليها أبو الطيب المتنبي في قوله:

وكم ذا بمصر مـــن المضحكات ولكنـــــه ضحك كالبكا

بـــها نبطـــي من اهـــل السواد يـــعلم أنساب أهل الفلا

وأســـــود مشـــــفره نصـــفه يقال له أنت بدر الدجي

والقضية ليست في نشأة الحزب، فهذا جزء من الواجهة البراقة أو القشرة الخارجية التي يحرص عليها النظام، ولكن أهم شيء هو كيف يمكن تطويع الحزب وتفريغه من مضمونه بأحد الأساليب المتبعة، والأسلوب المفضل هنا هو أسلوب الاختراق، بمعني أن تقوم الحكومة بدعم شخص يتولي رئاسة الحزب أو مجموعة أشخاص يتوجهون بالحزب نحو الأهداف التي يريدها النظام. وهذا الأسلوب تم استخدامه بنجاح في كل الأحزاب وكل النقابات الخارجة عن سيطرة الدولة، أما المصالح الحكومية فهذه أمرها معروف ومحسوم وفقا للمبدأ المقرر "من ليس معنا فهو ضدنا" ولهذا لا يمكن أن يصل إلي أي منصب قيادي في الدولة أي شخص يمكن أن يكون له موقف مستقل، وإذا حدث وأخطأوا ذات مرة في الاختيار يكون الطرد من نصيبه عند أول تجديد.

وبهذا الأسلوب استطاع نظام حسني مبارك أن يحكم قبضته علي الأحزاب والنقابات والمصالح الحكومية وكل شئون الحياة. ومن سوء الحظ أن هذه المجموعة التي تحكم مصر، والتي أسماها أحد الروائيين "عصابة العشرين أو الأربعين" قد أدخلت البلاد في نفق مظلم لم يعد الخروج منه سهلا. فوفقا لما نشر من إحصاءات وتحقيقات نجد في مصر الآن **1221** منطقة عشوائية يعيش فيها **60**% من السكان. وهذه المناطق العشوائية – كما هو معروف – تفتقر

إلي أدني مقومات الحياة، ويمكن أن تكون قنبلة موقوتة لابد أن تنفجر في يوم ما. هناك أيضا **40**% من الشعب المصري يعيشون تحت خط الفقر وحوالي **30**% من الأميين علي الرغم من وجود هيئة لمحو الأمية تقع في طريق السويس ويرأسها وزير سابق. وقد احتاجوا مني ذات يوم أن أكتب لهم تقريراً عن برنامج محو الأمية التي اخترعته كوبا وطبق بنجاح في عدد من الدول. وكتبت التقرير وذهبت لمقابلة المسئول، وبدلا من أن يناقش معي التقرير وجدته يسترسل في الكلام عن مشكلته مع موظفي الهيئة الذين يبلغ عددهم حوالي خمسمائة موظف. تركته ومضيت وانتظرت أن يتصل بى أحد فلم يتصلوا إلي هذه اللحظة. ولا شك أن هذه الهيئة مثل هيئات أخرى قد تنشأ لمجرد أن يركنوا فيها موظفا كبيرا سابقا، يؤيدهم ويؤازرهم أو هو عضو في الحزب أو لجنة السياسات ويريدون أن يكافئوه علي ولائه لا أكثر ولا أقل. فنحن في زمن الولاء المطلق، والخضوع الكامل لسلطان أولياء الأمور. أما مصر ومستقبل مصر فمسألة هينة لا تستحق أن نشغل أنفسنا بها.

ومما يجدر ذكره أن أسلوب الاختراق قد نجح أيضا في مواجهة أخطر تحدِّ واجهه نظام الحكم في مصر بعد انتخابات الرئاسة عام **2005**، وهو ما عرف بانتفاضة القضاة. لقد طالب القضاة بنظام حكم ديمقراطي حقيقي، وبالعدالة الاجتماعية، ونزاهة الانتخابات، والفصل بين السلطات الثلاث: التنفيذية والتشريعية والقضائية، وتداول السلطة، وحرية تأسيس الأحزاب. وقد انشغل الناس لفترة غير قصيرة بهذه الحركة المباركة وتمنوا لها النجاح ولكن النظام استطاع أن يخترق هذه الحركة، فألب القضاة بعضهم علي بعض وأثار الفرقة بينهم، وقرّب إليه عدداً من القضاة الذين تمكنوا من ضرب الحركة في مقتل. ومن العجيب أن الناس في بلادنا يمكن استمالتهم بسهولة لصالح النظام

الحاكم، وفي هذه الحالة يكونون علي استعداد لعمل أي شيء من أجل إرضاء النظام وتحقيقا لمصالحهم الخاصة: ترقي في الوظائف، أو الحصول علي مكافأة مجزية أو احتلال موقع مؤثر. كنت أقارن ذلك بما كان يحدث في نفس الفترة في باكستان وأتعجب لانحطاط شأننا وهوان أمرنا. لم يستطع برويز مشرف الحاكم العسكري في باكستان أن يخترق القضاة أو يستميلهم لصفه، وعندما استخدم معهم أسلوب القمع وأقال القاضي افتخار شودري رئيس المحكمة الدستورية العليا اتحد القضاة جميعهم ضد هذا القرار وانتشرت الاضطرابات في كل أنحاء باكستان، وسقط برويز مشرف وعاد افتخار شودري إلي موقعه. أما عندنا فإن الحكومة تنتصر دائما. وهكذا نجح أسلوب الاختراق في القضاء علي أعظم حركة إصلاح شهدهّا في حياتي.

وبعد أن نجحت الحكومة في اختراق الأحزاب وتحويلها إلي أحزاب كرتونية كما يصفها بعض المحللين أو الأحزاب/ الجرائد كما يقول عنها البعض الآخر جعلت منها وسيلة لإضفاء الشرعية علي نظام بلا شرعية. وقد استخدمت هذه الطريقة الجهنمية بصورة ناجحة جدا في انتخابات الرئاسة عام **2005**. فالنظام يعرف جيدا أنك لكي تكون بطلا لابد أن يكون أمامك خصم قوى، أي أن رئيس الجمهورية لكي يكون شرعيا، بعد التعديلات التي أدخلت للتحول من نظام الاستفتاء إلي نظام الانتخاب، فينبغي أن يكون أمامه مرشحون أقوياء، وأجهزة الإعلام في مثل هذه الحالة تجد وتجتهد لكي توحي للناس وللأحزاب بأن الانتخابات سوف تكون نزيهة.. ومن العجيب أن الناس في بلادنا تصدق أن نظاماً تعود علي التزوير المبرمج لمدة خمسة وعشرين عاما يمكن أن يتحول فجأة وبدون مقدمات إلي نظام ديمقراطي حر. كان أمير الشعراء أحمد شوقي واعيا جدا لهذه المسألة، ولهذا كتب قصيدته المشهورة عن

الثعلب الذي أراد أن يتحول إلي واعظ، وكانت هذه القصيدة مقررة علينا في المرحلة الابتدائية، ومازلت أحفظها. تقول:

برز الثعـــلب يومـــا في ثيـــاب الواعظينـــا
فمشي في الأرض يهـــدي ويســـب المـــاكرينـــا
ويقـــــول الحمـــد لله إلــــــه العـــالمينـــا
يـــا عبــــاد الله توبوا فهـــــو خـــير التائبينـــا
وازهدوا في العـــــيش إن العـــيش عيش الزاهدينـــا
واطلـــبوا الديـــك يؤذن لصـــــــلاة الصبح فينـــا
فأتي الديك رســـول من إمـــــام النـــاســـكينـــا
عرضوا الأمـــــر عليـــه وهـــو يرجـــو أن يليـــــنا
فأجاب الديـــك عـــذرا يـــــا أضل الملحديـــــنا
بلـــغ الثعـــــلب عنـــي عـــن جـــدودي الصـــالحينا
أنهـــم قـــــالـــوا وخير القول قـــول العارفينـــــــا
مخـــطـــئ مـــن ظـــــن يومـــا أن للثعـــلب ديــــنا

انطلت الحيل كالعادة علي رؤساء الأحزاب فقرروا خوض الانتخابات الرئاسية، وكان أبرزهم أيمن نور من حزب الغد، ونعمان جمعة من حزب الوفد. انطلقت الدعايات الانتخابية وأذكر أني أيامها كنت في الاسكندرية فكانت يافطات أيمن نور تملأ طريق الكورنيش بوصفه المرشح الشاب الذي ينافس علي رئاسة الجمهورية. أما نعمان جمعة فبالإضافة إلي اليافطات التي ملأت الشوارع كانت جريدة الأهرام تنشر له صفحتين كاملتين متقابلتين يوميا دعاية انتخابية، وقد علمنا أيامها أن الجريدة أرادت أن تلغي اتفاق النشر لما كان يتضمنه الإعلان من كلمات قوية ولكن جاءهم تعليمات فورية

من الرئاسة بالاستمرار في نشر الإعلان. لم تصل أي رسالة إلي نعمان جمعة مما حصل، وهذا دليل علي أننا نعيش في مأزق تاريخي لا مثيل له. فالزعماء الآن يختارهم الحزب الوطني علي هواه ويصنعهم علي النحو الذي يريده، ويستخدمهم لتمرير مشاريعه. فهم زعماء مفرغون من أي مضمون للزعامة. والزعيم الذي لا يمكن أن يكون علي هوي الحزب الوطني يزاح تماما مثلما حدث مع إبراهيم شكري زعيم حزب العمل الذي كانوا يطلقون عليه في جريدة الحزب صفة "المجاهد الأكبر". ولا شك أن الحزب الوطني كان مستعدا لغض النظر عن إبراهيم شكري وعن هذه الصفة التي لا تطلق إلا علي الزعماء التاريخيين الحقيقيين. ولكن بما أن حزب العمل كان يصدق أنه كيان يتجاوز حدود الجريدة وورقها المملوء بالمقالات النارية، ويصدق أن فيه هذا المجاهد الأكبر، فلا شك أن الخطوة الحاسمة هنا تكون في ضرب الحزب وإيقاف الجريدة، وذهاب كل الناس إلي بيوتهم لنري من فيهم سوف يكون المجاهد الأكبر بحق وحقيق.

لقد خلقت الدولة زعامات وهمية صدقت نفسها، وصدقت الحكومة، وصدقت المقالات التي تنشر في الجريدة. الشخص الوحيد – في رأيي – الذي لم يخدع بألاعيب النظام وخططه الجهنمية هو محمد البرادعى الذي قدم اقتراحا مكونا من سبع نقاط لخوض تجربة الانتخابات الرئاسية القادمة، وبما أن هذا النظام، طالما بقي علي قيد الحياة، لن يتخلي أبدا عن ألاعيبه فقد أعلن البرادعى أنه لن يرشح نفسه للانتخابات الرئاسية وأنه يدعو فقط إلي التغيير في مصر، ثم إنه قد دعا إلي مقاطعة انتخابات مجلس الشعب التي سوف تجرى قريبا في نوفمبر **2010**. ومما لاشك فيه أن البرادعى لطول إقامته في الخارج ورئاسته لهيئة دولية عليا لأكثر من دورة يدرك إدراكا واعيا ما هي

الديمقراطية، وكيف يتم تطبيقها. ومن ثم فإن الألاعيب المتبعة لا تنطلي علي أمثاله. لقد كنت واحدا ممن عبروا عن فرحتهم بقدوم البرادعى ودعوته للإصلاح والتغيير في مصر، وكتبت مقالا في ذلك أرسلته إلي جريدة "الشروق" ولكن الجريدة أخذت منه سطوراً قليلة نشرتها في بريد القرّاء. ويومها نصحني الصديق المرحوم فوزي شلبي بأن أحتج علي الجريدة، ولكني لم أتخذ أي إجراء لعلمي بأن هذه الجرائد جزء من حالة الفساد والتشويش التي نعيشها. ويمكن للقارئ الاطلاع علي هذا المقال بالملحق المرفق بهذا الكتاب.

كانت نتيجة الانتخابات الرئاسية التي جرت عام **2005** هي حصول حسني مبارك علي **90%** تقريبا، وجاء أيمن نور في الموقع الثاني، ونعمان جمعة في الموقع الثالث. وهذه كارثة لحزب له تاريخ مثل حزب الوفد. كيف قبل أن يخوض هذه الانتخابات بدون ضمانات وبدون إصلاح حقيقي؟ وأين زعماء الوفد الحاليون من الزعامات التاريخية: سعد زغلول ومصطفي النحاس وفؤاد سراج الدين. والأخير لم تعطه الحكومة أي فرصة لإصلاح الحزب لكنه لم يسقط في براثن الحيل والألاعيب والتكتيكات التي برع هذا النظام في حياكتها. زعماء الوفد الحاليون لا يختلفون في شيء عن زعماء الأحزاب الأخرى الكرتونية، وتستطيع الحكومة أن تضحك عليهم في كل وقت وحين، وتستطيع أن تنتقم منهم بالطرق التي تجيدها. وهذا ما حدث بعد الانتخابات الرئاسية السابقة: نعمان جمعة عاني من الإضطرابات والقلاقل داخل الحزب إلي أن اختير بديل له وهو محمود أباظة، وأيمن نور دخل السجن بتهمة التزوير، وإذا كانت تهمة التزوير تضع المرء داخل القضبان فإن نظام حسني

مبارك بكل أفراده مطلوب للمحاكمة بتهمة تزوير إرادة المصريين علي مدي ثلاثين عاما تقريبا.

الآن ونحن نتأهب لانتخابات مجلس الشعب ثم الانتخابات الرئاسية نجد أن السيناريو لم يتغير في شيء علي الإطلاق: رفضت مطالب البرادعى، والمذكرة الدولية التي وصلت للقبول بإشراف دولي علي الانتخابات لم يُرد عليها، وبعض الأحزاب وعلي رأسها حزب الوفد تقرر خوض الانتخابات. وكان لابد أن تُرتب الأوضاع في حزب الوفد بحيث يكون علي رأسه شخص رأسمالي كبير مثل السيد البدوي لدعم فكرة خوض الانتخابات. والنظام يعرف جيدا أن معظم الناس في مصر حاليا تبحث عن مصالحها ولذلك يكفي أن يكون علي رأس الحزب أو النقابة شخص مضمون الولاء يتم دعمه معنويا وربما ماديا إن احتاج الحزب أو النقابة إلي المال، وعندئذ سوف تأتي القرارات لصالح النظام. فالشعب الآن يعيش في حالة توهان، واختلاط للقيم والمفاهيم، وقد رصد هذه الحالة المرحوم أحمد بهاء الدين في أواخر الثمانينيات عندما تحدث عن اختلاط الحابل بالنابل. ولا شك أن انتخابات مجلس الشعب سوف يتم ترتيبها علي النحو الذي تريده الحكومة، أما الانتخابات الرئاسية فلم يحدد الرئيس موقفه بعد، وهل سيرشح نفسه لفترة سادسة، أم سوف يرشح الحزب الوطني نجل الرئيس الأصغر جمال مبارك؟. والرئيس في مثل هذه الأمور لا يأخذ القرار إلا في الوقت المناسب بحيث يكون الموضوع في صالحه مائة في المائة. وليخبط الناس رءوسهم في الحيط، فهم منذ ثلاثين عاما تقريبا يفعلون ذلك ولا شيء يتغير، بل إن الرئيس لو فكر في تعيين شخص في منصب مهم وأصبح الأمر مثار اهتمام في الصحف وأجهزة الإعلام فإنه يعاند ويرجع عن قراره، لأن القرار ليس في يد أحد غيره، وكما يقول مونتسكيو "فإن طبيعة الحكومة المستبدة هي أن يحكم فيها واحد وفق رغائبه وأهوائه".

والحكم الفردي في العادة كل شيء فيه غير واضح، وكل شيء غامض ومبهم. وفي هذا الشأن يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه "الإسلام والاستبداد السياسي": "طبيعة الخير الوضوح والتكشف، وطبيعة الشر الغموض والإبهام. الرجل الطيب لا يسوءه أن تظهر أعماله أو تستعلن أحواله، وهو يستطيع أن يقول للناس دائما: "هاؤم اقرءوا كتابيه". فليس فيه ما يخشي مغبته ويحاذر عقوبته. والرجل الخبيث يحرص علي أن يطوى جوانب حياته فلا تقع الأعين منه إلا علي ظاهر خادع وطلاء كاذب. أما ما وراء ذلك من إثم فقد ضرب عليه ليل طويل. كذلك الحكم الصالح والحكم الفاسد".

وهكذا تستعد البلاد لانتخابات مجلس الشعب ويستعد السيد الرئيس لانتخابات الرئاسة، وقد بدأ يجري لقاءات مع طوائف مختلفة بدأت بعدد ممن الفنانين، ثم أعقبها لقاء أحد عشر مثقفا توجهوا إلي القصر الجمهوري صباح الخميس **30** سبتمبر **2010**، وجلسوا مع الرئيس لمدة أربع ساعات تقريبا وخرجوا يدلون بالتصريحات ويكتبون المقالات. ولن أستفيض هنا في وصف ما دار في هذا اللقاء، فلهذا قصة أخري سوف نعرض لها في موضع آخر من هذا الكتاب.

الفصل الخامس

الصحافة

تستلزم طبيعة الحكومة في الدول المستبدة طاعة متناهية، فإذا ما عرفت إرادة الأمير مرَّة كان لها من الأثر المقدر كالذي تناله الكرة من أخرى عندما تطرح عليها.وليس هنالك مزاج ولا تبديل ولا إصلاح ولا مواعيد ولا أكفاء ولا مفاوضات ولا ملاحظات مطلقا، ولا شيء يعد ندًّا أو أصلح من سواه للاقتراح، فالإنسان مخلوق يطيع مخلوقا يريد.

(مونتسكيو "روح القوانين")

وقد ظهر أن تفكير المستبدين واحد علي اختلاف العصـــور، وأهـــم لا يتركون غرورهم مهما تلطف المصلحون معهم. ولو أمكن تقليم أظـــافرهم لوقاية الأمم من شر هم ثم تركهم أحياء بعد ذلك يفعلون ما يشاءون لأشرنا بذلك، ولكن الآيات التي سنتلوها تتضافر علي اهام الاستبداد السياسي بأن الشر ذاتي فيه فلا أمان لحضارة إلا إذا خلت منه.

(محمد الغزالي، "الإسلام والاستبداد السياسي")

يعيش الإنسان في ظل العدالة والحرية نشيطا علي العمل بياض نهاره، وعلي الفكر سواد ليله، إن طعم تلذذ، وإن تلهي تروح وتريض.. أما أسير الاستبداد فيعيش خاملا خامداً، ضائع القصد، حائرا لا يدري كيف يميت ساعاته وأوقاته، ويدرج أيامه وأعوامه كأنه حريص علي بلوغ أجله ليستتر تحت التراب.

(عبد الرحمن الكواكبي "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد")

عندما بدأنا نقرأ، في منتصف الستينيات تقريبا، لم يكن العسكريون قد تمكنوا بعد من القضاء علي العقل العربي، وعلي التعليم. وكانت المبادئ التي حرص عليها عبد الناصر مازالت فاعلة ومؤثرة: مجانية التعليم، هيئة القوى العاملة التي كانت تتيح الوظيفة للشباب بعد التخرج مباشرة، التعليم كالماء والهواء، لكل الناس ولكل الفئات وهو الشعار الذي أطلقه الدكتور طه حسين، الحرية والاستقلال، والمنافسة في مجالات النهوض والتقدم، وغير ذلك من قيم ومبادئ وأعراف تسيّدت في المجتمع آنذاك وصارت عوامل جذب وتشجيع للشباب الجديد. صحيح كان الفساد ينخر في عظام النظام العسكري، وهذا شيء طبيعي في الأنظمة العسكرية، وقد ظل النخر يفعل فعله حتى هوت البلاد في صبيحة يوم السادس من يونيه عام **1967**، وهو يوم الهزيمة الأكبر التي أطلقوا عليها اسما مخففا جدا وهو النكسة. والنكسة اسم يأتي من نكّس (بتشديد الكاف) أو انتكس، وكما جاء في المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية فإن: نكّس الله فلانا في العمر أي أطال عمره حتى بلغ أرذل العمر فعاد إلي حال كحال الطفولة في الضعف والعجز، وفي القرآن الكريم: "ومن نعمره ننكسه في الخلق"، والشيء: جعل أعلاه أسفله. أما فيما يتعلق بـــ"انتكس" فيقال انتكس الشيء أي انقلب، ويقال نكسه فانتكس. والمريض: عاودته العلة بعد النقه، والمنكوس: المقلوب، والناكس: المطأطئ رأسه من ذل. وهكذا تحولت الهزيمة الفادحة إلي نكسة فقط. ولهذا فإن الأنظمة العسكرية مستبعدة تماما عن الحكم في الأنظمة الديمقراطية الحقيقية؛ فوزير الدفاع لابد أن يكون مدنيا، وكذلك وزير الداخلية، بل إنهما قد يكونان امرأة.

وعلي الرغم من كل هذا كان مجتمعنا في ذلك الوقت مازال فتيا، وكانت الآمال والطموحات قائمة وقوية، وكانت الأحلام تداعب أذهان الشباب، ولم تكن الأمور قد وصلت إلي حالة الانهيار المطلق الذي نراه الآن. كان عدد كبير من الطلاب يدركون أن الثقافة الخارجية جزء لا يتجزأ من عملية التعليم، ولهذا كانوا يعطون للكتب الخارجية وللثقافة العامة اهتماما لا يقل عن الكتب التعليمية – وأذكر في هذا الشأن أن زميلا لنا في المرحلة الثانوية كانت لديه القدرة علي شراء الجريدة يوميا فكان صديقي إسماعيل الهنداوى يسلم عليه بطريقته الضاحكة ويقول له: "يا أستاذ علوان، قل لنا ما قل ودل".. هكذا يخاطبه بالأستاذ لتميزه ويطلب منه ملخصا لما يقرأ علي طريقة أحمد الصاوى محمد وعموده المشهور "ما قل ودل" – أما نحن فلم نكن نملك إلا أن نذهب إلي مكتبة قصر الثقافة ونستعير منها الكتب بالبطاقة التي استخرجناها منها، إضافة إلي أننا كنا نمر علي بعض باعة الكتب القديمة لاسيما ذلك الشخص المسمي "عبد الحميد"، وكان إسماعيل الهنداوى بتباسط معه كثيرا ويطلب منه إحضار بعض الكتب غير الموجودة لديه.

أما فيما يتعلق بالصحافة فكانت جريدة "الأهرام" في تلك المرحلة كنزا لا يفني بالنسبة لنا. ففيها كبار الكتاب: توفيق الحكيم، ونجيب محفوظ، وزكي نجيب محمود، ويوسف إدريس، ولويس عوض، ويوسف السباعي، وسواهم من أصحاب الرأي والفكر والموقف. لم يكونوا – مثلما نري هذه الأيام – كتابا تابعين للسلطة وعندهم استعداد لبيع كل شيء في سبيل الحصول علي أي منفعة خاصة. كانوا كتابا أصحاب مبادئ وقيم ورغبة حقيقية في نهضة الوطن. وأذكر أني كنت أقص مقالاتهم من الجريدة وأحتفظ بها. ومن أهم ما

احتفظت به مقالان للدكتور لويس عوض كل منهما في صفحة كاملة، وأولهما عنوانه "العميد" والثاني "الوزير" وكلاهما عن طه حسين.

كانت الجريدة في ذلك الوقت عنصرا فاعلا في صقل عقلية الشباب الجديد. فأي شيطان أوصلنا إلي الحالة التي صرنا عليها اليوم؟. إن الجرائد التي لدينا الآن تنقسم إلي ثلاثة أقسام: أولها ما يسمي بالجرائد القومية، وهي لا تحمل صفة القومية، وإنما هي جرائد حكومية مائة بالمائة وتابعة للحزب الوطني الديمقراطي. وهذه الجرائد – في رأيي – تنقسم إلي قسمين: جرائد لا تستطيع أن تقرأها أو تقترب منها لأن درجة النفاق فيها وصلت إلي حد لا يمكن تصوره، وإلي حالة من الانهيار لا مثيل لها مثل "الجمهورية" و"الأخبار" و"أخبار اليوم"، ولذلك أصارح القارئ أني منذ سنوات لم أعد أستطيع أن أتصفح هذه الجرائد أو أشتريها، فهي صفحات يمكن أن تجلب لك الغثيان أو ترفع الضغط أو تصيبك بالكرب العظيم. فأنا لا أستطيع أن أتصور أن يكون مجتمعنا قد وصل إلي هذا الحد من الانهيار الأخلاقي والمهني والثقافي.

فعندما كنت أتردد علي إسبانيا في الثمانينيات، وكان الشاعر عبد الوهاب البياتي مازال يقيم في مدريد، كان لدينا صديق مشترك هو وليد صالح وهو عراقي حصل علي الدكتوراه من إسبانيا ويعمل الآن في جامعة مدريد **Autonoma**. كان وليد عندما أزوره في بيته يطلعني علي ما تكتبه الصحف العراقية عن صدام حسين، وكنا نتعجب كيف يصل مجتمع إلي هذا المستوى من الانحطاط؟!.

ما يحدث عندنا الآن يشبه ما كان يحدث في العراق في عهد صدام حسين. فجريدة "الأهرام"، وهي الجريدة الوحيدة من الصحف الحكومية التي مازلت أقرأها لأنها مازالت تحمل بعض الخير، فيها انحراف كبير نحو النفاق

غير المسئول وأشياء أخرى كثيرة أتوقف عندها. ولعل آخر صورة من صور النفاق غير المحسوب، وكانت لها أصداء عالمية، هي ذلك التلاعب الذي أحدثته الجريدة في الصورة التي ضمت الزعماء الخمسة الذين افتتحوا المفاوضات المباشرة بين الفلسطينيين والإسرائيليين في البيت الأبيض يوم 2 سبتمبر 2010. الصورة الأصلية يأتي فيها الرئيس الأمريكي باراك أوباما في المقدمة بينما يأتي الباقون خلفه بقليل وهم الرئيس الفلسطيني محمود عباس ورئيس الوزراء الإسرائيلي نتنياهو والملك عبد الله ملك الأردن، والرئيس مبارك. ولكن المنافقين بلا حياء – كما يطلق عليهم جابرييل جارثيا ماركيز – قالوا لأنفسهم: إن الرئيس مبارك حتى ولو كان في البيت الأبيض وفي قلب أمريكا لابد أن يكون في المقدمة، ولهذا غيروا الصورة وجعلوا مبارك فعلا في المقدمة. وكانت فضيحة عالمية في الصحف ومواقع الفيس بوك والتويتر. فقد قالت صحيفة الجارديان البريطانية إن "الأهرام" رأت أن الرئيس مبارك هو الأنسب للمقدمة. وقالت إن الصحف المصرية التي تديرها الحكومة لديها سجل حافل في تحسين صورة النخبة السياسية في مصر، لكن في مواقف أقل وضوحا من التي حدثت هذا الأسبوع. وقالت هيئة الإذاعة البريطانية BBC إن الأهرام تعرضت لهجوم شديد بسبب تلاعبها في صورة الرئيس. أما جريدة "بديعوت أحرونوت" الإسرائيلية فقد نشرت تقريرا عنوانه "التعديل الإبداعي" قالت فيه: إن الأهرام كان لديها صعوبة في التعامل مع الصورة التي تظهر الرئيس مبارك وهو يسير علي حافة السجادة الحمراء، لذا عدَّلت الصورة ليظهر الرئيس في المقدمة"، وأضافت: إذا لم تكن الجريدة قد غيَّرت ترتيب العالم فإنها غيَّرت علي الأقل الطريقة التي يسير بها قادة العالم. ووصفت صحيفة "تورنتو ستار" الكندية الوضع بأنه مثير للضحك، وقالت إن هدف

"الأهرام" من تعديل الصورة هو إثبات وجود مبارك في مقدمة الجميع. ومما يذكر أن بعض التعليقات في وسائل الإعلام الأخرى لجأت إلي السخرية مما حدث. فقد اتهم أحدهم مصمم الجرافيك الذي تلاعب بالصورة بالفشل لأنه غيرَّ لون رابطة عنق الرئيس الأمريكي دون أن يدري. وقال آخر: توقعت أن تنشر الصحيفة القومية صورة لأوباما جاثيا علي ركبتيه"، وربط آخر بين الطريقة التي عُدِّلت بها الصورة والطريقة التي جرت بها المحادثات قائلا: "إن الصورة تعكس لنا الطريقة التي دارت بها محادثات السلام في أمريكا وكيف تنقلها الصحف المصرية".

أما أسامة سرايا رئيس تحرير "الأهرام" فقد حاول أن يدافع عما فعلت جريدته فجاء تعليقه أشبه بنكته أشد سخفا. فقد قال – لا فض فوه – إن الصورة التي نشرتها "الأهرام" في **14** سبتمبر **2010** صورة تعبيرية وضعت الرئيس في موقع يقود المفاوضات الجديدة بعد القمة الافتتاحية في واشنطن باثني عشر يوما. وقال سرايا أيضا: "إن الصورة تعبر تعبيرا حيا وموجزا وصحيحا عن الموقف السياسي لمكانة الرئيس مبارك وموقعه في القضية الفلسطينية ودوره المتفرد في قيادتها قبل واشنطن رغم أهمية واشنطن ودورها". وهذا كلام معناه أن المسئولين عن الصحف عندنا الآن فقدوا صفة الحياء، وهناك حديث نبوي مشهور يقول: الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان".

وهذا الموقف الذي اتخذته "الأهرام" جزء من طبيعة العمل في هذه الجريدة الآن بعد أن كانت قلعة من قلاع الصحافة في مصر والعالم العربي. ويذكرني هذا الموقف بآخر مشابه حدث في بغداد قبل حرب **2003** التي شهدت سقوط صدام حسين. كان ذلك قبل الحرب بشهرين، وكانت

القوات الأمريكية وقوات التحالف محتشدة في الخليج وتتأهب للانقضاض علي بغداد، ومع أن الموقف لم يكن يتحمل أي صورة من صور النفاق، فإن المنافقين بلا حياء في وطننا العربي المنكوب لم يتورعوا عن منح الأجيال صورة أخرى بشعة من صور النفاق، إذ قرر المنافقون في بغداد أن يقيموا ساعة في أحد الميادين، ساعة ضخمة تتكلف أموالا طائلة، وبدلا من أن تدور عقاربها علي أرقام كالساعة العادية فإنه استبدل بهذه الأرقام اثنا عشر اسما من أسماء صدام "الحسني" كالمهيب والركن وغير ذلك. هذا إذن هو النفاق الذي أوصل العرب إلي أن يكونوا أضحوكة العالم، بأنظمتهم الدكتاتورية المتوحشة وسط عالم حدث فيه تغير كبير نحو الأفضل، وأفعال النفاق المزرية التي ليس لها مثيل في أي مكان، وفتاوى كبار قادهم الدينيين مثل شرب بول الرسول وإرضاع الكبير، وأوضاعهم الاجتماعية البائسة التي أتصور أن السائحين عندما يتجولون في مدننا يقولون لأنفسهم: هل ما زال في العالم بشر يعيشون في هذه الأوضاع المتدنية؟!. إنني عندما أترك سيارتي في الجراج الموجود بساحة عبد المنعم رياض في التحرير، وأريد أن أنتقل إلي الجهة الأخرى للذهاب إلي مبني الإذاعة والتليفزيون في ماسبيرو أرتب نفسي أن أتصرف كما يفعل البهلوان، وتدور في ذهني تساؤلات الرد عليها فوري ومباشر: كيف أمرق من بين السيارات التي تأتي مسرعة جدا وكأن أصحابها في مهمات عاجلة في أماكن أخرى؟ وكيف أحاول يشتي الطرق أن أكون في منطقة وسط بحيث أتجنب حماقة هذا ورعونة ذاك؟ ولابد أن أبرع في استخدام الأيدي فربما أنجح في أن أجعل السائق يهدئ من اندفاعه، وعندما أنتقل إلي الجهة الأخرى أحمد الله أنني انتقلت بنجاح وتجنبت المخاطر، وأنظر حولي فأري السائحين الذاهبين إلي فندق "هيلتون رمسيس" يفعلون مثلي فأقول في

نفسي: تري ماذا يدور في أذهاهم عن هذه الشعوب التي تبدو وكأها لم تشهد حضارة قط؟ وهل يمكن أن نقنعهم بأن العرب كانوا أصحاب حضارة راقية في المشرق وفي الأندلس؟ وهل نقول لهم إن قرطبة كانت مبلطة ومضاءة بالفوانيس ليلا علي حين كانت باريس تغوص في الوحل؟. كلام لم يعد يصلح الآن لكننا مازلنا نعيده ونجتره لأننا نعيش في وضع يزداد كل يوم سوءاً.

مازلنا مع هذا القسم الأول من أقسام الصحف عندنا، ومازلنا مع جريدة "الأهرام" التي قلت إنني أداوم علي قراءاها لأسباب كثيرة من بينها: أنني حريص علي قراءة صفحة الوفيات يوميا، لأها تعطيني فكرة أستطيع أن أقول إها دقيقة عن الثروة المالية والأهمية التي أصبحت لها في المجتمع. فعندما يموت رجل الأعمال أو أي شخص صاحب ثراء أو جاه تظل صفحة الوفيات مشغولة به لمدة تتناسب مع مقدار ثروته أو مقدار جاهه وعظمته بالمفهوم السائد الآن، وعندما يموت أديب كبير ينشر له اتحاد الكتاب نعيا قصيرا، ولم يعد أحد يتضايق من هذا الوضع لأننا ألفناه تماما وكأننا ولدنا عليه. في الأهرام أيضا عدد كبير من الكتاب الشرفاء المخلصين لكنهم يعانون من التهميش والتضييق، وأي واحد منهم يرفع رأسه أو يعبر عن نفسه كما يريد هو لا كما يريدون هم يمكن أن يمنع مقاله من النشر، بل إنه قد يُزاح من الجريدة كما حدث مع سلامة أ حمد سلامة وفهمي هويدي. فالنظام وأتباعه يطبقون بصرامة القاعدة التي أشرت إليها من قبل وهي: "من ليس معنا فهو ضدنا". وإضافة إلي ذلك فإن "الأهرام" مازالت تشبه أولاد الأصول، وهؤلاء مهما ألقي عليهم الدهر بكلكله فإهم يظلون محتفظين ببعض ما كان عندهم. ولهذا يجد القارئ للأهرام تحقيقات مهمة في مجالات متعددة: اجتماعية، واقتصادية، وطبية وغيرها.

وإذا كانت الثقافة قد ضُربت في كل الجرائد الحكومية والحزبية والمستقلة فإنها علي نحوما، مازالت تنبض في "الأهرام"، فعلي الرغم من كثرة ما ينشر من غثاء فإنك يمكن أن تعثر علي مقالة جيدة لكاتب متميز. لكن المحصلة النهائية هي أن جريدة "الأهرام" لم تعد هي الجريدة التي كنا نقرأها في الستينيات والسبعينيات والثمانينيات.

نأتي إلي القسم الثاني من الصحف عندنا والمتمثل في صحف الأحزاب. وقد قلت من قبل إن هذه الصحف هي الأحزاب والأحزاب هي هذه الصحف، أي أن الأحزاب والصحف كيان واحد. وبما أن الأحزاب ليس لها نشاط أو امتداد جماهيري فإن هذه الصحف هي التي تقوم بكل شيء. وإذا كانت الأحزاب مخترقة فإن هذه الصحف أيضا مخترقة. وقد ظلت فترة طويلة جدا تتجنب ما كانت تسميه "الخط الأحمر"، بمعني أن الصحفي يمكنه أن يهاجم كل المسئولين بمن في ذلك رئيس الوزراء، لكن الاقتراب من الأسرة الحاكمة ممنوع وقد ظل الأمر علي هذا النحو إلي أن تجرأ عبد الحليم قنديل وتجاوز هذا الخط، وصار يكتب بشكل مباشر عن أسرة مبارك. وقد تزامن ذلك مع الانتخابات الرئاسية السابقة أو قبلها بقليل. ومن المقالات التي كتبها عبد الحليم قنديل في جريدة "الكرامة" عندما كان رئيسا لتحريرها العناوين التالية: "في أي شيء صدق مبارك؟"، و"خلع الرئيس قبل تغيير الدستور" و"الفساد اسمه عائلة مبارك" و"مقبرة مبارك في شارع عبد الخالق ثروت". ومما جاء في مقالة "الفساد اسمه عائلة مبارك" المنشور يوم الثلاثاء **6** يونيه **2006** قوله: "إن محاولات مبارك أو نجله الإيحاء بموقف ضد الفساد هو ضحك علي الذقون. فعائلة مبارك هي حجر الزاوية في الفساد الذي يحكم مصر الآن. العائلة والفساد توءم ملتصق ووجها عملة واحدة. وتحرير مصر من احتلال

عائلة مبارك هو وحده الذي يعطي معني لحرب اجتثاث الفساد. فلسنا – في قصة الفساد المصري – بصدد عوارض لسوء أخلاق، ولا بصدد ظاهرة تضخمت في غيبه قانون، بل إن حاميها حراميها وبالمعني الحرفي المقصود في المثل الشعبي السيار. فالفساد تحول إلي بنية حكم وإيديولوجيا له في ذات الوقت. حكم عائلة مبارك لا ينتمي إلي يمين ولا إلي يسار ولا إلي وسط. إنه – بالدقة – حكم بإيديولوجيا النهب العام ومن وراء الأقنعة التي تبدو لنا في صورة مؤسسات لدولة حديثة. من وراء أقنعة لا تجد غير عصابات مافيا في سلاسل مربوطة للرأس من بيت الرئاسة. فقد تحللت في محنة الربع قرن الأخير دولة الأجهزة القديمة وحلت محلها دولة العائلة". وختم عبد الحليم قنديل هذا المقال بقوله: "انتهينا إلي حكم عصابة من المليارديرات تحتمي بالقصر الجمهوري. انتهينا إلي حكم لصوص بالمعني الدقيق المقصود في علم السياسة. حكم عائلي أشبه بمكتب تصدير واستيراد بالجملة. يصدر الثروة ويستورد السياسة. حكم وظيفته تجريف الثروة وتصديرها ربما إلي حسابات الظلام السويسري، فيما يجرى استيراد السلطة والبقاء السياسي بسبيل "المقايضة" مع الراعي الأمريكي الإسرائيلي. ولا تستغرب – من هذه الصورة – أن يتضخم أحمد عز بملياراته التي لا تُعد في معية "أونكل مبارك"، وأن تحفظ أمريكا دعمها ومعونتها لمبارك في نفس أسبوع تفجر فضيحة أحمد عز بالبرلمان.

والحجة الأقوى بنص دورية "تقرير واشنطن الوثيقة الصلة بالمخابرات أن مبارك سمح لطائرات عسكرية أمريكية بعبور أجوائنا لغزو العراق في **36553** طلعة فقط لاغير- الرقم مفزع تماما كثروة أحمد عز المملوك المدلل للإبن المدلل. إنه فساد العائلة التي تحكم مصر".

ولا شك أنه كان من المنطقي جدا أن يُزاح عبد الحليم قنديل من رئاسة تحرير جريدة "العربي" لسان الحزب الناصري، ومن رئاسة تحرير جريدة "الكرامة" وهو حزب سوف يظل طول عمره تحت التأسيس، وأن يطارد في كل مكان يذهب إليه، ويخطف ويجرد من ملابسه ليلاً في منطقة صحراء جرداء. وهو الآن ممنوع من الكتابة في أي جريدة حزبية كانت أو مستقلة (وهي القسم الثالث من جرا ئدنا)، لأن كل هذه الصحف تقوم علي مبدأ مسك العصا من المنتصف. وأنا بوصفي فلاحا أعرف أن مسك العصا من المنتصف يعني أنك لا تفعل شيئا علي الإطلاق. فكيف تضرب بعصا ممسوكة من وسطها؟!.

انتهز الصلادم فرصة أني أكتب عن مسك العصا من المنتصف فوجدته يتهادي نحوي بخطي تعكس بعض السخرية وكثيرا من التعجب وسمعته يقول لي:

- إن أمركم لعجيب. كيف تريدون التغيير وأنتم تشبهون البدر في المثل المعروف: كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا؟!.
- لا أخفي عليك أيها الصلادم أني التقيت منذ شهرين تقريبا بشخص ذي نفوذ في "الجبهة الوطنية للتغيير" فكان ملخص ما قال أنهم يمسكون بالعصا من المنتصف.
- وهل يعرف محمد البرادعى ذلك؟
- لا أعتقد.. لأنه من مجمل الحوارات التي سمعتها منه، ضد هذا المبدأ لكن من المؤكد أنه مخدوع في كثيرين من الملتفين حوله، لأنه ربما لا يدرك أننا نعيش الآن في مجتمع مريض، أوصلته حالة الاستبداد والفساد منذ الانقلاب العسكري

في يوليه 1952 إلي الوضع الحالي الذي يشبه حالة مريض أصابه الوهن الشديد من كثرة العلل، وأصبح مكانه المفضل هو حجرة العناية المركزة.

- لكن مجتمعا كهذا كيف يصحو من غفوته؟
- لن يصحو إلا إذا تبدلت أفكار النخب المثقفة والمتعلمة وأدركت أن الحل الوحيد لخروج هذا المجتمع من أزمته الطاحنة هو أن يصبح مجتمعا حديثا، ديمقراطيا بالمفهوم الحقيقي لا بالمفهوم المزيف الذي اتخذه نظام الحكم أداة للاستمرار حتى الموت، بل للتوريث إن أمكن. ولابد من الفصل بين السلطات الثلاث: السلطة التنفيذية، والسلطة التشريعية، والسلطة القضائية فصلا حقيقيا غير مزيف. فهذه السلطات موجودة عندنا جميعا في قبضة رجل واحد: تزور الانتخابات لكي يحوز الحزب الحاكم علي الأغلبية المطلقة في مجلس الشعب، ورئيس الوزراء والوزراء هم جميعا سكرتارية عند الحاكم الأوحد، وقد اعترف بذلك أحد أعمدة النظام لفترة طويلة وهو الدكتور يوسف والي أمين الحزب الوطني ووزير الزراعة الأسبق، أما السلطة القضائية فقد استطاع النظام بأجهزته الأمنية والبوليسية واختراقاته وأساليبه الجهنمية أن يوجه إليها ضربة قاضية.

انسحب الصلادم في هدوء وتركني أتجول بين الجرائد التابعة للأحزاب وأيضا بين الجرائد المستقلة (وهي إلي حد ما مختلفة عن الصحف الحزبية) لأن كل هذه الصحف تسير علي مبدأ واحد هو "مسك العصا من المنتصف".

صحيح أنها في فترة من الفترات، وخاصة خلال عقدي الثمانينيات والتسعينيات كانت تأخذ الأمور بجدية أكبر، وكان لكل جريدة جمهورها الواسع لدرجة أنك في بعض الأيام كنت لا تستطيع أن تلحق العدد في السوق إذا كان هناك حدث ما تريد أن تعرفه من جرائد المعارضة. لكن مع بداية الألفية الثالثة بدأ الناس يملون الأخبار والتعليقات والحوارات وغير ذلك مما ينشر في هذه الجرائد لأنه قد ثبت أن النظام يستخدم كل هذا للتنفيس، مثل الحَلّة البريستون لابد وأن يكون فيها مخرج للتقليل من درجة غليان الماء. وبعض العاملين في الصحافة والنشر كتبوا عن حرية النباح لا أكثر ولا أقل. وهذه من الأساليب التي ابتدعها نظام حسني مبارك: "اترك الناس ينبحون طالما أننا أصحاب القرار وأصحاب الفعل". ولا أدري هل النظام علي علم بالمثل العربي الذي يقول: "أشبعتهم سباً وأودوا بالإبل" أم لا؟ لكنه علي كل الأحوال طبق هذا المثل ببراعة تفوق الوصف.

لم يكن عبد الحليم قنديل هو وحده المعرض لرفض مقالاته في هذه الصحف وإنما أي شخص يتجاوز الخطوط الحمراء، ولو قليلا، لابد أن يمنع. وقد حدث لي هذا كثيرا. فبعض المقالات نشرت لي إذا كانت خفيفة اللهجة لكنك إذا غُصت في الأعماق وتطرقت إلي أشياء يمكن أن تعرض الجريدة للخطر سوف يُرفض مقالك. والخطر المحدق بهذه الجرائد كبير مثل سحب التمويل المخصص للحزب، أو قفل الجريدة وربما الحزب أيضا بالضبة والمفتاح كما حدث مع حزب العمل وجريدته، وليصرخ العاملون بالجريدة ما شاءوا أو يقوموا بتظاهرة من تلك التظاهرات القليلة الحيلة، والتي لا تخيف ولا تشكل أي تهديد فهذا لن يغير من الأمر شيئا. وعدد قليل من جنود الأمن المركزي كفيل بفض التظاهرة وضرب أصحابها علقة لن ينسوها

أبدا.. فنحن في مجتمع لا يهتم فيه عامة الناس بشيء، ولا يعينون أحدا حتى لو استنجد بهم، والنظام يعرف هذا جيدا. ومن يقرأ كتاب "بدائع الزهور في وقائع الدهور" لابن إياس الحنفي يتأكد من أن الحكام في جانب والشعب بكامله في جانب آخر. كان المماليك يقتتلون علي السلطة، فيموت الحاكم ويخلفه قاتله، والشعب لا يحرك ساكنا. ومن يقرأ الكتاب المذكور سوف يطلع علي أمثلة لا حصر لها، لكني هنا أذكر له مثلا واحداً: فعندما انتصر سيف الدين قطز انتصارا باهرا علي المغول في معركة "عين جالوت"، وأثناء عودته مظفراً إلي مقر حكمه في القاهرة قتله نائبه الظاهر بيبرس.

ويروي ابن إياس هذه الحادثة علي النحو التالي: "ثم قصد (أي قطز) العودة إلي الديار المصرية، وظن أن الوقت قد صفا له وأن الدهر ساعده، فكان كما قيل في المعني:

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت ... ولم تخف غب ما يأتي به القدر

وسالمتك الليالي فاغتررت بهـــا ... وعند صفو الليالي يحدث الكدر

فلما خرج من دمشق، ووصل إلي قريب من الصالحية، اتفق جماعة من الأمراء علي قتله، وكان المشار إليه في ذلك الوقت الأمير بيبرس البندقدارى. فلما وصل الملك المظفر إلي القرين قصد يسير في الفضاء فرأي أرنبا فساق خلفه، فلما ساق، ساق معه الأمراء، فدنا منه الأمير بيبرس البندقدارى ليقبل يده، وكان الملك المظفر أنعم عليه بجارية مليحة من سبايا التتار فظن أنه جاء يقبل يده بسبب ذلك. فلما مد يده إليه قبض عليه وضربه بالسيف، ثم حمل عليه بقية الأمراء بالسيوف فقتلوه وتركوه ميتا ملقي علي الأرض، ثم ساقوا

وهم شاهرون سيوفهم إلي الوطاق، فجلس الأمير بيبرس علي مرتبة السلطان قطز وأخذ المملكة باليد".

أما كيف دخل الظاهر بيبرس القاهرة فهذا ما يرويه ابن إياس قائلا: "فلما قتل الملك المظفر أخذ المملكة باليد، وجلس علي مرتبة السلطنة، وباس له الأمراء الأرض، وذلك بمنزلة القرين، ثم حلَّف سائر الأمراء لنفسه، فحلفوا له علي مصحف شريف. فلما جرى ذلك قصد الدخول إلي القاهرة، فدخلها تحت الليل، وطلع إلي القلعة، وكانت القاهرة قد زينت للملك المظفر بسبب هذه النصرة؟. فلما طلع النهار نادي المنادي في القاهرة: "ترحموا علي الملك المظفر قطز، وادعوا بالنصر للملك الظاهر بيبرس". فمن الناس من فرح بسلطنة الملك الظاهر بيبرس، ومن الناس من تأسف علي قتل الملك المظفر قطز، فإنه قتل من غير ذنب، وله الراية البيضاء في دفع التتار وقتالهم ومنعهم من دخول مصر".

انتبهت إلي الصلادم وهو يهمس في أذني قائلا: هل أدلك علي أسلوب اتخذه نظام الحكم عندكم منهجا ونجح نجاحا باهراً في تطبيقه، لدرجة أننا نحن الشياطين لا نقدر علي صياغته ولا علي تطبيقه؟

- نعم، نعم، أيها الصلادم، فقد أصبحنا في حيرة مما وصلت إليه أحوالنا من انهيار وسقوط، لدرجة أننا أصبحنا نألف هذه الأوضاع ونتمسك بها، ولا نتصور أنها يمكن أن تتغير.
- إنه أسلوب التقزيم.
- هل يمكن أن تعطيني مثالا، أيها الصلادم الهمام؟
- الأمثلة عندكم لا حصر لها، ولكن من الواضح أنكم صرتم في غيبوبة، وصار كل شيء ينطلي عليكم.

لاحظت أن الصلادم قد أصابه اليأس منا ومن أوضاعنا، وأنه لا يتصور أن هناك شعوبا في بداية الألفية الثالثة للميلاد يمكن الضحك عليها بسهولة، ويمكن خداعها بأبسط الطرق وأيسرها. أخذت أفكر فيما قاله الصلادم، وهو مجرد إشارة إلي ما أسماه "أسلوب التقزيم". لم يقدم لي أمثلة، ولم يفتح لي الطريق، بل طلب مني أن أقدح زناد الفكر، وقد فعلت ذلك فعلا واهتديت إلي أن النظام بأساليبه الجهنمية النابعة من تفكير أمني بوليسي قد توصل إلي طريقة تجعل البلد بالنسبة له مثل قطعة من الطين الصلصال يشكلها كما يشاء وفق رغباته وأهوائه.

لقد عمل النظام علي تقزيم كل السلطات، فيما عدا سلطته الخاصة، بدءا من الخفير وانتهاء بالوزير. فمن في يده القرار لابد أن يكون قزما، ولهذا يتم اختيار أضعف شخصية في المصلحة الحكومية أو المؤسسة للقيادة حتى يمكن السيطرة عليه سيطرة كاملة، بل إن هذه الشخصية الضعيفة لا تحتاج في الأساس إلي أن يسيطر عليها لأنها بطبيعتها تقدم أكثر مما يطلب منها. وسوف أترك هذا الموضوع الآن لأنه سوف يطرح في فصول أخرى، لاسيما وأن هذا التقزيم قد لعب دوراً تخريبيا لثلاثة عقود تقريبا.

كانت الخطة هي ألا يظهر زعماء حقيقيون لهذا الشعب. ولا شك أن هذه الخطة قد نجحت، فلم يعد في مصر زعماء من أمثال أحمد عرابي ومصطفي كامل وسعد زغلول ومصطفي النحاس ومحمود فهمي النقراشي وأحمد ماهر وسواهم علي المستوى السياسي، ولا زعماء دينين وثقافيين من مثال أحمد لطفي السيد وعباس محمود العقاد وطه حسين وغيرهم. ولما كانت الشعوب لا يمكن أن تعيش بدون زعامات، لاسيما بعد اختراق الأحزاب السياسية وشل حركتها، وضرب الثقافة بل وأدها، فقد اهتدت السلطة إلي

خلق زعامات وهمية يتم اختيارها بدقة من بين الصحفيين ورجال الإعلام. والدقة في مثل هذه الحالة تعني أن يكون الشخص ممن يسهل التعامل معه، ويصلح أن يكون عنصرا داخل مسرحية هزلية يتم الإعداد لها بإحكام شديد.

وكانت النتيجة هي تقزيم الزعامات وتقزيم أصحابها، فبيت الأمة الذي كان يقيم فيه بطل ثورة 19 سعد زغلول يصبح شقة في عمارة تصدر عنها جريدة مستقلة يديرها شخص فشل في أن يكون كاتبا وتخصص في شتم مبارك وشلة مبارك. وهنا تصبح الجريدة واسعة الانتشار ويتردد اسم هذا الصحفي في كل مكان، ويتحول من مهني عادي جدا إلي نجم كبير يكون ضيفا دائما علي القنوات الفضائية. وبهذا يتحول إلي زعيم، ويمكن أن يتهم في قضية ما ويحاكم ويحكم عليه بالسجن، لكن رئيس الدولة يتدخل ويصدر قراراً بالعفو عنه، ثم تتكرر الأزمات والمحاكمات، ويزداد الصحفي وجاهة وشهرة، وتتجمع نقابة الصحفيين لمؤازرته، ويصير حديث الناس في كل مكان، ويرفع راتبه من خمسة وعشرين ألف جنيه في الشهر إلي خمسة وسبعين ألفا. وفي غيبة الزعماء الحقيقيين يصبح هو الزعيم الأوحد.. ويتأمل أمثالي ممن قضوا أعمارهم في تحصيل العلم والمعرفة فيتعجب لما وصلت إليه بلادنا من ضحالة، ويتوقع إذا استمرت الأمور هكذا أن نصير من الهالكين.. فهذا الزعيم الذي أفرزته العقود الأخيرة كل مؤهلاته أنه يجيد شتم الرئيس، وبالطبع له أمثال آخرون، والرئيس يعرف جيدا أن هذه ورقة رابحة يستخدمها في زياراته لأمريكا وأوربا، ولذلك فإنه حريص كل الحرص علي وجود هؤلاء الشتامين الذين ليس لشتمهم أية عواقب، وهو يعرفهم جيدا، ويعرف أنهم يؤدون مهمتهم بنجاح. ولهذا فهم دائما تحت مظلة الحماية. أما الآخرون الذين لا تستطيع الأجهزة المعنية أن تدخلهم علي خشبة المسرحية

الهزلية فإنهم يطاردون في كل مكان يذهبون إليه سواء كان صحفا مستقلة أو تابعة للأحزاب أو قنوات فضائية خاصة، مثل عبد الحليم قنديل وحمدي قنديل.

وهكذا أصبح لدينا نوع جديد من الكتابة هو "شتم الرئيس" وزعماء من طراز مختلف عن كل زعماء العالم وهم الصحفيون الفاشلون إلا في شيء واحد. ولأني أشعر بالدهشة الشديدة حيال ما يجري أمامي كل يوم سألت الصلادم:

- هل رأيت شعوبا في عالم اليوم وصلت إلي الديمقراطية الحقيقية عن طريق زعماء تخصصوا في شتم الرئيس؟.
- كلا لم أجد هذا قط، ولكن أموركم أكثر من العجب.
- ماذا تعني بهذا؟
- أعني أن الزعماء عندكم صورة طبق الأصل من الديمقراطية عندكم. وإذا كانت الديمقراطية عندكم هي ديمقراطية الكلام والنباح، فإن الزعماء لابد أن يكونوا من أصحاب الشتم، وأن تكون إمكانياتهم دائرة في هذا الإطار. هل تتصور أنه سوف تكون عندكم أحزاب تتداول السلطة. وأن يسقط رئيس الحزب عندما يفشل في الوصول بالحزب إلي السلطة، وأن تكون هناك انتخابات داخل الحزب يفوز فيها الزعيم الحقيقي مثلما حدث في انتخابات حزب العمال أخيرا، إذ فاز الأخ الأصغر علي أخيه الأكبر الذي كان وزيراً للخارجية في حكومة العمال السابقة. فهذه أشياء بينكم وبينها مسافات طويلة.. يكفيكم حاليا أن يكون رئيس تحرير

جريدة كذا المستقلة هو زعيمكم الأوحد، ومقدم برنامج كذا في إحدى القنوات الخاصة هو أحد الزعماء.. وهلم جرا. إنكم الآن تعيشون فترة الزعامة الصحافية، ولا أدري ما الذي أوصلكم إلي هذا الوضع المهين، وقد كان لديكم في النصف الأول من القرن العشرين ديمقراطية تخلق زعماء حقيقيين؟ لا يسعني إلا أن أقول لك: أليس منكم رجل رشيد؟ ثم لماذا استكنتم لهذه الأوضاع ورضيتم بها؟

- إنك تخجلني أيها الصلادم، فلم أكن أتصور أننا وصلنا إلي هذه الدرجة من المهانة. لكن أكثر ما يخجلني هو أننا راضون بهذا الوضع وكثير من الناس يصدقون أن عندنا ديمقراطية، بل إن بعض الكتاب يكتبون أن مصر تعيش في وضع ديمقراطي لم يحدث في تاريخها. وصفوت الشريف أمين عام الحزب الوطني الديمقراطي يقول إننا نعيش أزهي عصور الديمقراطية.

- نعم يا صديقي: ديمقراطية من كلام وزعماء استمدوا زعاماتهم من الشتائم. فما أهون هذه الشعوب التي صار الزعيم فيها كاتبا فاشلا وصحافيا جاءت نجوميته من أوضاع مزيفة اشتركت في صياغتها عناصر أمنية ومخابراتية ورغبة في صنع قشرة مزيفة تغطي علي العمق الحقيقي الذي يحكم كل الأمور داخل إطار ممزق ومتهرئ.

الفصل السادس

الأزهر

- لا يخاف المستبد من العلوم الدينية المتعلقة بالمعاد، المختصة ما بين الإنسان وربه، لاعتقاده أنها لا ترفع غباوة ولا تزيل غشاوة، وإنما يتلهي بها المتهوسون للعلم، حتى إذا ضاع فيها عمرهم، وامتلأت بها أدمغتهم، وأخذ منهم الغرور ما أخذ، فصاروا لا يرون علما غير علمهم فحينئذ يأمن المستبد منهم كما يؤمن شر السكران إذا خمر. علي إنه إذا نبغ منهم البعض ونالوا حرمة بين العوام لا يعدم المستبد وسيلة لاستخدامهم في تأييد أمره ومجاراة هواه في مقابلة أنه يضحك عليهم بشيء من التعظيم ويسد أفواههم بلقيمات من فتات مائدة الاستبداد.

(عبد الرحمن الكواكبي "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد")

- والفاسقون عن أمر الله من ولاة الأمر لما استبدوا بالحكم واستعبدوا الشعوب عرفت الرعية عنهم الكثير من المناكر، ثم ابتلعت ما عرفت أو تناجت به في خفوت.

(محمد الغزالي، "الإسلام والاستبداد السياسي")

- وا أسفاه!! لم يبق للمسلم من الدين إلا هذه الثقة فيه، أما الدين نفسه فقد انقلب في عقل المسلم وضعه، وتغير في مداركه طبعه، وتبدلت في فهمه حقيقته، وانطمست في نظره طريقته، وحق فيه قول علي كرم الله وجهه: "إن هؤلاء القوم قد لبسوا الدين كما يُلبس الفرو مقلوبا".

(الإمام محمد عبده، "الإسلام بين العلم والمدنية")

في صباح السبت الموافق أول يوليه **1989** كنت في الكلية أباشر أعمال الكنترول بقسم اللغة الألمانية. اتصل بي عامل التليفون ليتأكد من وجودي، وقال لي إن شخصا يريد أن يقابلك. وصل هذا الشخص بعد دقائق وقال لي إن الرائد نادر مصطفي العبد ينتظرك في مباحث أمن الدولة بميدان لاظوغلي الساعة الثانية ظهرا. قلت له إن وقتي مشغول في الكنترول، أعطني تليفونه وسوف أتصل به. عدت إلي البيت في حوالي الساعة الواحدة والنصف واتصلت بالرائد نادر فقيل لي إنه خرج في مهمة وسوف يعود في الساعة الثالثة. اتصلت به في هذا الوقت فرد علي بنفسه وقال لي: لماذا لم تحضر؟ أتريد أن تأتي هذا المساء في التاسعة والنصف؟ قلت له: هذا موعد يناسبني.

كان لدي في ذلك اليوم في السادسة والنصف مساء ندوة في "الاتحاد العام لرعاية نشئ وشباب العمال" بشارع الجمهورية في العتبة عن رواية "الناس في كفر عسكر" للأديب أحمد الشيخ. وقد انتهيت من الندوة في حوالي التاسعة والربع، فأخذت تاكسيا وذهبت إلي ميدان لاظوغلي. كنت أتوقع موضوع هذا اللقاء وسببه. فقد كنت مع بعض الأخوة من الكلية ومن الجامعة نحاول الدعوة إلي إصلاح التعليم في الأزهر. وقد كتبنا مذكرة بهذا الشأن وعرضناها علي رئيس جامعة الأزهر الدكتور عبد الفتاح الشيخ في منتصف شهر يونيه **1989**. أخذنا موعدا معه ذات خميس (أظنه يوم **22** يونيه) وذهبنا إليه. كان الوفد مكونا من الدكاترة عبد الله أبو هشة، ومحمود العزب، ومحمد السيد عيد، وكاظم الظواهري وأنا. وقد نفي السكرتير وجود أي موعد مع رئيس الجامعة، ودخل إليه وتحدث في ذلك وعاد يقول لنا إن وقته مشغول. ولما ألححنا علي السكرتير دخل إليه مرة أخرى فقال له: قل

لهم يأتوا يوم الأحد المقبل. ولكننا تداولنا الأمر فيما بيننا وتأكدنا أنه لا يريد هذا اللقاء ولا يرحب به ويحاول التخلص منه.

كان الموقف محرجا بالنسبة لنا لاسيما وأننا كنا نعرف أن رئيس الجامعة ليس مشغولا كما يدعي. ولذلك اتفقنا علي أن نترك له ورقة كتبناها بأسلوب فيه بعض الجفاف، وقلنا له إننا أخذنا ثلاثة مواعيد معه وعملنا ما علينا تجاهه، فقد كنا نريد أن نناقشه حول مذكرة قدمناها له من أسبوعين حول موضوع إصلاح التعليم في الأزهر والدعوة إلي مؤتمر عام لمناقشة هذه القضية علي غرار ما يحدث في جامعة القاهرة. وقد دخل إليه السكرتير بالورقة ثم خرج طالبا منا الدخول إليه. دخلنا فبادرنا بقوله: إن أجندته ليس فيها أي موعد معنا. فرد عليه الدكتور محمود العزب بشيء من العصبية قائلا: هذه ليست مشكلتنا وإنما هي مشكلة سكرتارية سيادتك. تدارك الدكتور عبد الفتاح الشيخ الأمر بسرعة وقال له: "خليك هادئ"، "بلاش عصبية" وطلب منا الجلوس. أعطيناه صورة من المذكرة التي قدمنا إلي سكرتاريته أصلها من قبل فأخذ يقرأها بندا بندا ويرد علي ما جاء في كل بند، وقال لنا إنه يقوم بهذا الإصلاح في هدوء وبدون "شوشرة"، وإنه لا يحّبذ الدعوة إلي مؤتمر حتى لا يدخل أو يندس فيه من يريدون تصفية حسابات وخلافات شخصية.

مكثنا في مكتب الدكتور عبد الفتاح الشيخ أكثر من ساعتين ونصف الساعة. ومن بين ما دار في هذه الجلسة ويستحق الذكر هنا أننا عندما دخلنا مكتب رئيس الجامعة وجدناه يقرأ ورقة الاحتجاج التي قدمناها له عن عدم رغبته في استقبالنا، وكانت هذه الورقة تضم أسماءنا وتوقيعاتنا فسأل الدكتور عبد الفتاح:

- أين الدكتور محمد السيد عيد؟
- تقدم إليه محمد السيد عيد رحمه الله تعالي، فقد توفي إثر إصابته بمرض عضال في ريعان شبابه، فقال له الدكتور عبد الفتاح: أنت الذي تحضر اللجان الثورية؟

ومن هذه اللحظة عرفت أن هناك لجنة تجتمع في كلية اللغة العربية بالدراسة كل يوم اثنين في الساعة الواحدة ظهراً وتناقش مشاكل التعليم في الأزهر.

وبعض المجتمعين كانوا من كبار المسئولين مثل الدكتور عوض الله حجازي رئيس الجامعة الأسبق، والدكتور عبد اللطيف خليف نائب رئيس الجامعة السابق، وكذلك الدكتور إبراهيم الخولي من كبار أساتذة كلية اللغة العربية. وقد ذكر لنا الدكتور الشيخ أن المجتمعين يتناولون شيخ الأزهر بكلام غير لائق، ويطالبون بأن يكون منصب شيخ الأزهر بالانتخاب لا بالتعيين، ويدعون إلي إعادة هيئة كبار العلماء. وقد خرجنا من مكتب الدكتور عبد الفتاح الشيخ بعد أن وعدنا بأنه سوف يدرس ما جاء في المذكرة.

موقف الدكتور الشيخ من استقبالنا يذكرني بموقف آخر حدث معي وحدي في منتصف عام **1992**. فقد وصلني عقد للعمل بكلية اللغات والترجمة بجامعة الملك سعود في الرياض، وقمت بتجهيز كل الأوراق الخاصة بهذا الموضوع، ولم يبق إلا توقيع رئيس الجامعة بالموافقة علي السفر، ولكن الدكتور الشيخ لم يوافق فحفظت الأوراق، وذهبت في حوالي التاسعة صباحا أسأل في إدارة البعثات بالجامعة عما تم بشأن موضوعي فقالوا لي إن رئيس الجامعة لم يوافق. ركبتني كل العفاريت التي يمكن أن يتصورها المرء في هذه اللحظة، لأن عدم الموافقة يعني أن رئيس الجامعة يعطي نفسه كل الصلاحيات

ويتخذ القرار الذي يتفق مع هواه حتى ولو كان ظلما وعدوانا وتعديا علي حقوق الآخرين. فكرت في أن أوسط بيني وبينه شخصا يكون علي صلة حميمة معه، ولكني راجعت نفسي وعزمت علي أن أتوجه إلي مكتبه وأقابله وحدي وليكن ما يكون. اخترقت الدهليز الذي يفصل بين إدارة البعثات وبين مكتب رئيس الجامعة وهو مثل كل الدهاليز أو الردهات في المصالح الحكومية يخلو من النظافة، والمياه التي تتسرب من الدورات تكاد تخرج منها، خاصة وأن المسئولين في المكاتب الحكومية في غالبيتهم لا يولون أي اهتمام لهذه الأشياء ويتركون الحنفيات تشر المياه ليلا ونهارا.

طلبت من سكرتارية المكتب أن يبلغوا رئيس الجامعة بأني أريد مقابلته، فخرج الموظف من عنده يقول لي: انتظر لأنه مشغول الآن. فهمت أنه لا يريد أن يقابلني، ولكنه أيضا لا يريد أن يصرفني لأن لي مواقف سابقة معه، وبالتالي فإنه من الأفضل أن يُسلمني إلي الانتظار ثم الزهق حتى أغادر المكتب من تلقاء نفسي. ظللت أنتظر من الساعة التاسعة والنصف صباحا، وكلما مر ت ساعة قلت للسكرتير ألا يمكن أن أدخل؟ فيتركني لحظة ثم يعود ليقول لي: مازال مشغولا. حاولت في ذلك اليوم أن أكتم غيظي بكل ما أوتيت من قوة، وأن أصبر وألتزم الهدوء، ولكن عندما دقت الساعة الواحدة ظهرا تقدمت من السكرتير وقلت له: أنا سوف أدخل لرئيس الجامعة شئت أم أبيت، وعليك أن تقول له إنني سوف أدخل إليه شاء هو أم أبي. قرأ السكرتير في عيني ملامح الغضب فدخل مسرعا ليبلغ الدكتور عبد الفتاح الشيخٍ بذلك، وخرج ليقول لي: تفضل، إنه في انتظارك. حاولت أن أهدئ من نفسي قبل أن أدخل إليه، وبحثت عن كلمة طيبة أخاطبه بها في البداية فلم أجد إلا أن أحييه بتحية

الإسلام. رد عليَّ السلام وطلب مني الجلوس، ووجدتني أقول له بعد ذلك مباشرة:

- لماذا تقف في طريقي؟
- كيف أقف في طريقك؟
- ألم تأت إليك أوراقي الخاصة بالإعارة فرفضت الموافقة عليها؟
- بلي، لأنك رئيس قسم وأنا اتخذت قراراً بعدم سفر رؤساء الأقسام في إعارات.
- ولكني لست رئيس قسم، لقد جاءتك أوراقي منذ أشهر للترشيح لرئاسة القسم فرفضت، ولأني لا تهمني هذه المسألة لم آت إليك لأكلمك في هذا الشأن.
- طالما أنك لست رئيسا للقسم قل لعميد الكلية يعيد عرض أوراقك وسوف أوافق.

ودعته شاكرا ووجدته حريصا علي أن يقول لي: لماذا تكون عصبيا في كلامك؟ ولم أشأ أن أقول له: كل شيئ في هذا البلد يؤدى إلي الانفعال والعصبية. يكفي أننا مازلنا بعقولنا إلي الآن.ولم يلبث أن رافقني الصلادم وهو يقول لي:

- مبروك!!
- علي ماذا أيها الصلادم؟
- علي أنك حصلت علي موافقة رئيس الجامعة. والآن يمكن أن تسافر إلي المملكة العربية السعودية لمدة ست سنوات،

وبحسبك أن تترك مصر ومشاكلها وضآلة دخولها وتعيش في مجتمع مختلف.

- لقد رأيت أيها الصلادم أني لم أحصل علي موافقة رئيس الجامعة إلا بالجرأة، والمطالبة بالحق، وكان يمكن لشخص غيري أن يعلم بعدم الموافقة من إدارة البعثات فيذهب لحال سبيله، وتضيع عليه فترة الإعارة. والإعارة في هذه السنوات العجاف، أيها الصلادم، هي المخرج الوحيد لأساتذة الجامعة – فدخولهم محدودة لاسيما في الكليات التي يقل فيها عدد الطلاب مثل كليتنا. وحكومتنا الرشيدة تركت كل شيء للصدف والحظوظ، فأساتذة كلية الطب يأخذون نفس رواتبنا، ويفتحون العيادات التي يقضون فيها معظم أوقاهم، وكذلك المستشفيات، وأساتذة الهندسة لهم مكاتبهم الخاصة.. الخ، أما الكليات التي ها أعداد كبيرة من الطلاب فقد تركت الحكومة الحبل علي الغارب للأساتذة يبيعون المذكرات ويكسبون الآلاف، ولا يحتاجون لإعارة.. هكذا حياة ليس لها ضوابط ولا معايير تركت حكومة حسني مبارك الناس يتخبطون فيها، وكل واحد وحظه، لأن هذا النظام العجيب لا يهمه إلا الاستمرار في الحكم وتوريثه إن أمكن.
- لكن عامة الشعب يعانون، وليس هناك من ينصفهم، لأن مجتمعكم صار مثل الغابة يأكل القوي فيها الضعيف، بل يأكل الناس بعضهم بعضا، وكل منهم حرب علي الآخر.

- يبدو أيها الصلادم أن الشعب متعود علي هذا منذ آلاف السنين.كنت أقرأ بالأمس في كتاب الدكتور جاك تاجر "أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلي عام **1922**" الذي صدرت طبعته الأولي عام **1951** فوجدته في الفصل رقم **5** المعنون "سياسة الولاة المستقلين – الدولة الطولونية والإخشيدية" يقول إن بن طولون بدأ عهده بإجراء حاز قبول المسلمين والنصارى علي السواء وهو إلغاء جميع الضرائب الهلالية التي فرضها صاحب الخراج أحمد بن المدبر.. وقد اطمأن الشعب لهذا الإجراء وعاد إلي عمله. ويؤكد بعض رواة العرب أن قيمة الضرائب التي جلبت إلي بيت المال لم تبلغ سوى ثمانمائة ألف دينار في أول هذا العهد، بينما بلغت أربعة ملايين وثلاثمائة ألف دينار قبل وفاة ابن طولون. وقدرت ثروة الوالي الشخصية بأكثر من عشرة ملايين دينار.. فتأمل أيها الصلادم كيف بلغت قيمة الضريبة أو الخراج وكيف بلغت ثروة الوالي الشخصية؟!!
- من الواضح يا سيدي أن شعوبكم العربية رضيت بالاستكانة بل ألفتها. وفي هذا الشأن أذكرك بما قاله عبد الرحمن الكواكبي في كتابه "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد": "نحن ألفنا الأدب مع الكبير ولو داس رقابنا. ألفنا الثبات، ثبات الأوتاد تحت المطارق. ألفنا الانقياد ولو إلي المهالك. ألفنا أن نعتبر التصاغر أدبا، والتذلل لطفا، والتملك فصاحة، واللكنة رزانة، وترك الحقوق سماحة،

وقبول الإهانة تواضعا، والرضا بالظلم طاعة، ودعوى الاستحقاق غروراً، والبحث عن العموميات فضولا، ومد النظر إلي الغد أملا طويلا، والإقدام تهورا، والحمية حماقة، والشهامة شراسة، وحرية القول وقاحة، وحرية الفكر كفرا، وحب الوطن جنونا."

- هناك شيء آخر مهم أيها الصلادم وهو أن كل الموظفين في الدولة المستبدة يمثلون الاستبداد علي هذا النحو أو ذاك. أذكر وأنا عميد للكلية أن قام أحد الموظفين في شئون الطلاب بضرب طالب وتمزيق ملابسه، وقد قام باقي الموظفين بترضية الطالب وجمعوا مبلغ مائة جنيه ودفعوها له، وأخفوا عني ما حدث إلي أن علمت به مصادفة فاستدعيت الموظف وعنفته وحولته إلي لجنة التحقيق بالجامعة.. أتدري ماذا حدث له؟ لم يحدث شيء، لأن ثقافتنا تعطي الموظف كل الحقوق، فهو ممثل السلطة أو ممثل فرعون كما قال ذات مرة نجيب محفوظ. وقد قال مونتسكيو في كتابه "روح القوانين": "تنتقل السلطة بأسرها في الحكومة المستبدة إلي أيدي من تفوض إليه، والوزير هو المستبد بعينه، وكل موظف خاص هو الوزير". ويقول مونتسكيو في سياق آخر: "بما أن القانون ليس غير ما يريد الأمير، وبما أن الأمير لا يمكنه أن يريد غير ما يعرف فإنه يجب وجود أناس لا يُحصون يريدون نيابة عنه ومثله". وهكذا يتحول الموظفون جميعا في الدول المستبدة إلي

مستبدين يسومون الناس سوء العذاب. ويمكن أن يكونوا من رجال الدين أو الداعين إلي القيم الفاضلة لكنهم عندما يمارسون السلطة يطبقون فنون الاستبداد بطريقة طبيعية جدا وتلقائية لأنهم لم يتربوا إلا علي ذلك، ولا يدركون أن للناس حقوقا، وأنهم يعملون في خدمة الناس. وهذا مفهوم لا أعتقد أن بلادنا سوف تصل إليه بسهولة، فما زال أمامنا طريق طويل.

لم نخرج بشيء من لقائنا مع رئيس الجامعة الدكتور عبد الفتاح الشيخ وأحسسنا أن وعده لنا بأنه سوف يدرس المذكرة المقدمة له ما هو إلا كلام "وفك مجالس" كما يقال. ولهذا فكرنا في الذهاب مباشرة إلي شيخ الأزهر. وبعد ذلك بأيام قليلة اتصلت هاتفيا بالدكتور عبده زايد أسأله هل عندهم ماء، وكانت المياه عندنا مقطوعة، فقال لي نعم وإنه سوف يكلمني في أمر مهم. ذهبت إليه فأخبرني أنهم أخذوا موعداً مع شيخ الأزهر صباح الغد لمقابلته، والوفد سيكون مكونا من الدكتور محمد السيد عيد، والدكتور كاظم الظواهري، والدكتور حامد أبو أحمد والدكتور عبده زايد، وسوف نقدم لشيخ الأزهر صورة من المذكرة التي رفعناها من قبل إلي رئيس الجامعة.

اتفقنا علي اللقاء أمام مشيخة الأزهر بميدان الحسين، وكان ذلك صباح يوم الخميس الموافق **1989/6/29**. ميدان الحسين كالعهد به ممتلئ بحشود من الناس، والسيارات تمرق هنا وهناك، والمارة مطالبون – كما هي طبيعة الحياة في مصر – أن يعبروا الشارع وسط السيارات. الآن هناك نفق ولكنه لا يستوعب الزحام ويمكن أن نقول إنه لم يغير من الوضع شيئا. وأنا في الحقيقة أسأل دائما: هل المسئولون في بلادنا لم يسافروا قط إلي الخارج ولم يروا تخطيط

المدن والشوارع؟!! أم أن المصريين ومن يزورونهم مطالبون بأن يعانوا أشد المعاناة في عبور الشوارع؟ إنني لكثرة ما أشاهد وأصاب بالدهشة والعجب في هذا الشأن أعتقد أن حكام هذا الشعب البائس حريصون علي تدويخه وتعذيبه، أو أنهم يتصورون أنه إذا لم يعش حياته علي هذا النحو يمكن أن يتحول إلي وحش ضار يقضي عليهم ويوقف ما يحصلون عليه من متع ونهب وسرقة ومص للدماء.

دخلنا مبني المشيخة، وهو مبني قديم يدل علي مجد غابر، أيام أن كانت المباني في مصر لها طابعها المميز بما في ذلك المباني السكنية كما نشاهد في حي روكسي بالقاهرة أو مصر الجديدة التي بناها البارون إمبان أو منطقة الأزهر أو الحي القديم بالاسكندرية. تقدمنا إلي مكتب سكرتير الشيخ وقلنا له إن لدينا موعدا مع فضيلة شيخ الأزهر في العاشرة صباحا. طلب منا السكرتير أن ننتظر، وأثناء الانتظار قال أحدنا متندراً: "تلاقي الشيخ بيتصل الآن بالمباحث، فهذه هي عادته عندما يقابل أحداً". وقد ضحكنا لهذه الكلمة وتبادلنا إشارات صامتة تؤكد اتفاقنا جميعا علي هذه الملاحظة. وبعد ربع ساعة تقريبا أدخلونا إلي مكتبه فقابلنا بترحاب شديد لدرجة أننا قارنا بين ما فعله معنا رئيس الجامعة وبين هذا الاستقبال الحار من جانب المسئول الأول في الأزهر. كان معه في مكتبه الشيخ مهدي عبد الحميد مستشاره الإعلامي ومقدم أحد البرامج الدينية في التليفزيون. وبعد السلام والتحيات قدمنا له المذكرة فقرأها بنداً بنداً مثل رئيس الجامعة، وبدأ يناقش ويرد علي النقاط المثارة، فإذا كان بعضها ضعيفا أوسعه مناقشة وإذا كان قويا مرَّ عليه مرور الكرام مثل مسألة التوسع العشوائي في الجامعة، حيث قال الشيخ جاد الحق – كي يحسم الأمر في هذا الموضوع – إنني مستعد لأن أفتتح كلية يوميا في

أي قرية من القرى. وقد جاء علي لسانه أثناء حديثه قوله: إن مذكرتكم تعكس عدم قربكم من الواقع. وقد رد عليه الدكتور عبده زايد قائلا: بل نحن قريبون جدا من الواقع ونعاني من تردي المستوي الطلابي في الجامعة. وأشار الدكتور عبده إلي واقعة بعينها هي أنهم كانوا يمتحنون الطلاب بكلية اللغة العربية في مادة "القرآن الكريم" ففوجئوا بأن الثلاثين طالبا الذين امتحنوا لم يكن فيهم إلا طالبان يحفظان القرآن، والباقون بلغ بهم الأمر أنهم لا يستطيعون القراءة في المصحف.

انتهي لقاؤنا مع الشيخ جاد الحق في الحادية عشرة والنصف تقريبا، وودعنا الرجل بمثل ما استقبلنا بمودة شديدة، وإن كنت قد أحسست أننا لم نخرج من اللقاء إلا بهذه المودة وهذا الترحيب. ولذلك كانت مفاجأة شديدة استدعاء المباحث لي بعد يومين فقط من هذا اللقاء، أي يوم السبت الموافق أول يوليه **1989**. ذهبت إلي الرائد نادر العبد في مباحث أمن الدولة بلاظوغلي. لم يكن هناك مشاكل في الدخول فيما عدا التحقق من الشخصية وهذه أشياء طبيعية ومقبولة في أي مكان الآن بعد انتشار العمليات الإرهابية. وما إن جلست علي الكرسي حتى بادرني الرائد بقوله:

- ماذا عن الانتفاضة؟
- أي انتفاضة؟
- الاجتماعات التي تعقدونها في كلية اللغة العربية.
- لم أحضر أيا من هذه الاجتماعات.
- فلماذا إذن ذهبت مع وفد إلي شيخ الأزهر؟
- كنا منذ فترة نعد مذكرة لإصلاح التعليم في الأزهر، قدمنا نسخة لرئيس الجامعة، ونسخة لشيخ الأزهر.

- لماذا لم تحاولوا الإصلاح عن طريق القنوات الشرعية؟
- أليس شيخ الأزهر ورئيس الجامعة من القنوات الشرعية؟!
- أعني مثلا الأقسام العلمية في الكليات أو نادي أعضاء هيئة التدريس.
- نادي أعضاء هيئة التدريس بالأزهر ضعيف جدا، والأقسام العلمية لا دخل لها بما نفعله لأننا نستهدف إصلاح الوضع في الأزهر بصفة عمة سواء في الجامعة أم في المعاهد الأزهرية.
- ألا يكون النادي قويا إلا في حالة مهاجمته لسياسة الدولة مثلما يفعلون في نوادي الجامعات الأخرى؟

كانت نوادي أعضاء هيئة التدريس في ذلك الوقت في جامعة القاهرة وعين شمس وجامعات أخرى في الأقاليم قوية ونشيطة ولها مطالب كثيرة لإصلاح الأوضاع السياسية بصفة عامة وإصلاح الوضع في الجامعات. وكان نادي أعضاء هيئة التدريس في الأزهر ضعيفا ولا صوت له علي الإطلاق. والآن تساوت كل النوادي في الضعف. فسياسة الإزاحة التي اتبعها نظام حسني مبارك، وإقصاء كل من له صوت، ودعم الضعفاء والمزيفين وأصحاب الأهداف والمصالح الخاصة، كل هذا أدي إلي الموات والجمود بل والعفن في كل شيء وفي كل مكان. ومثلما اتبع النظام سياسة الاختراق في الأحزاب، وسياسة التقزيم في الزعامات والصحافة وأجهزة الإعلام اتبع سياسة الإزاحة في الجامعات، فكل من يخرج عن الجادة يستبعد أو يقال، والجادة هي الالتزام بسياسة الدولة حتى ولو كانت فاشلة، والدفاع عن هذه السياسة بكل ما أوتي المسئول من قوة وبراعة، وبهذا يمكنه أن يصل إلي أعلي المناصب ويتبوأ مكانة

رفيعة في المجتمع حيث المال والوجاهة والحصول علي المنافع الخاصة، والشاليهات في الساحل الشمالي، وعضوية المجالس النيابية سواء من خلال الانتخابات المزورة أو التعيين أو ما يسمي حاليا بالكوتة وغير ذلك.

وواصل الرائد نادر العبد أسئلته

- ماذا تقول عن الإعلانات التي يعلقوها في الكليات عن خدمات يقدموها للأساتذة وللطلاب؟
- وما هو العيب في هذا؟
- إنهم يفعلون ذلك بعد أن يكونوا قد وزعوا الخدمات علي أنفسهم.
- ليس لدي معلومات عن هذا الموضوع وإن كنت أعرف أن هؤلاء المجتمعين من الأساتذة الأفاضل، ومنهم من كان رئيسا للجامعة أو نائبا للرئيس.
- فلماذا إذن لا تحضر اجتماعات كلية اللغة العربية؟
- لأنني لم أدع إليها.

وتواصل الحديث بيننا عن ضعف التعليم في الأزهر، وقلة الإمكانيات، وتدهور التعليم في الكليات العلمية التي يلتحق بها الطلاب المستنفذون وأصحاب المجاميع المنخفضة، وكان هو يوافقني تماما في ذلك بل يسبقني أحيانا إلي رصد بعض الظواهر.

وانتهزت فرصة الحديث الودي بيننا لأسأله:

- من الذي أخبركم عن ذهابنا إلي شيخ الأزهر واجتماعنا معه؟

فرد بدبلوماسية شديدة قائلا:

- شيخ الأزهر مستاء جدا، ورئيس الجامعة، ورئيس الوزراء (د.عاطف صدقي) ورئيس الجمهورية (محمد حسني مبارك). وأضاف: هل أنت الذي تحدثت عن نظرية داروين؟
- تحدث عنها زميل آخر هو الدكتور كاظم الظواهري.
- نعم، إنه الشخص الملتحي.

وأثناء الحديث أشرنا إلي أحد المطالب التي تقدمنا بها وهو الدعوة إلي مؤتمر عام لإصلاح التعليم في الأزهر علي غرار ما يحدث في جامعة القاهرة. وقال الرائد نادر العبد: لو اطلعت علي قرارات مجلس الجامعة الأخير لوجدت أنهم وافقوا علي الدعوة إلي مؤتمر لمناقشة التعليم في الأزهر. قلت: إذن أثمرت دعوتنا.

تأكدت أثناء حديثي مع الرائد نادر العبد أن ما حدث في مكتب شيخ الأزهر أثناء لقائنا معه لابد أن يكون واحدا من اثنين: إما أن يكون بالمكتب جهاز تسجيل سجَّل كل ما دار من مناقشات، وإما أن الشيخ مهدي عبد الحميد أو شيخ الأزهر نفسه كتب مذكرة بما دار في اللقاء ورفعها إلي مباحث أمن الدولة. ومثل هذه الأمور لا يمكن أن نستغربها الآن، فشيخ الأزهر منذ الفترة التي تلت رحيل المرحوم الدكتور عبد الحليم محمود صار موظفا في الدولة، ينطبق عليه ما يجرى مع كل الموظفين، ومن ثم لابد أن يكون مخلصا للدولة، حريصا علي مصالحها لا علي مصالح الناس، يفعل ما يفعله باقي الموظفين الكبار ومنهم الوزراء ورؤساء الوزارات، وقد صرح الدكتور يوسف والي وزير الزراعة الذي ظل في الوزارة عشرين عاما: "إننا كلنا سكرتارية عند السيد الرئيس". شيخ الأزهر أيضا أصبح موظفا يعينه رئيس الدولة ويختار بعناية شديدة حتى يكون شخصية مطيعة، أليفة، لا تسبب

للدولة أية مشاكل، ولا تثير أي قضايا تتصل بإصلاح الحكم أو الدعوة إلي العدل، أو منح المواطنين حقوقهم المقدسة بموجب الشريعة الإسلامية الغراء، وموجب القوانين والأعراف والمبادئ والقيم.. ولطول فترة الانصياع لأوامر الدولة وتوجهاها وأحكامها ورؤيتها للأمور ترسخ هذا الوضع وصار مألوفا جدا لدرجة أن شيخ الأزهر الأخير الدكتور أحمد الطيب اعتبره أمرا طبيعيا جدا ولا عيب فيه إطلاقا. وقد جاء ذلك في حواره مع نقيب الصحفيين مكرم محمد أحمد الذي نشر "بالأهرام" يوم السبت الموافق **10** يوليه **2010** حيث سأله الأستاذ مكرم: هل أفهم من إجاباتك يا فضيلة الإمام أن استعادة الأزهر لدوره ومكانته وقف علي تخريج علماء ودعاة أجلاء، وأن الأمر لا علاقة له بسيطرة ولي الأمر علي الأزهر أو تعيين شيخ الأزهر بدلا من انتخابه؟!. فرد الدكتور أحمد الطيب:

"دعنا نكن صرحاء في الرد علي هذا السؤال، لأنه ما من مؤسسة دينية في العالم أجمع يمكن أن تكون خارج إطار الدولة، أو يطلب منها العمل ضد نظام الدولة بما في ذلك الفاتيكان الذي برغم أنه دولة داخل الدولة إلا أنه جزء من النظام الغربي الذي لا يخرج عن سياساته العليا. وعندما سألوني في قطر عن مدي تبعية الأزهر للحكومة آثرت أن يكون ردي مختصرا وقلت لهم: هل يستطيع الشيخ القرضاوى أن ينطق حرفا ضد نظام سمو أمير قطر؟. وما أستطيع أن أؤكده لك وأنا شيخ الأزهر أن مؤسسة الأزهر لا تحمل أجندة الحكومة علي عاتقها، لكن الأزهر لا ينبغي أن يكون ضد الحكومة لأنه جزء من الدولة، وليس مطلوبا منه أن يبارك كل ما تقوم به الحكومة. وعندما جئت شيخا للأزهر وافق الرئيس مبارك علي استقالتي من عضوية المكتب السياسي للحزب الوطني كي يتحرر الأزهر من أي قيد، ولا أظن أن هناك

دولة إسلامية تتمتع فيها المؤسسة الدينية بما يتمتع به الأزهر من مكانة وكرامة وتحرر. وبالمناسبة أنا لست ضد انتخاب شيخ الأزهر من هيئة علمائه، لكنني أخشي الشللية والمجاملة التي أفسدت انتخابات عمداء الكليات".

ولا شك أن هذا الكلام ينطوي علي مغالطات، كما أنه يحمل فكرا أحاديا حزبيا وفي الوقت نفسه فإنه فكر شمولي يعبر عن الدولة الشمولية التي سادت في مصر منذ انقلاب يوليه 1952 ولاسيما الأوضاع التي نعيش فيها منذ ثلاثين عاما والتي أوصلتنا إلي حالة الخراب والدمار لدرجة أن معظم الناس الآن يقارنون بين دولة مبارك ودولة المماليك. وإذا كان شيخ الأزهر قد استقال من لجنة السياسات السيئة السمعة لدي الشعب المصري فإن المسألة ليست مجرد ورقة استقالة تقدم وإنما هي انتماء ومن الواضح جدا أن انتماء شيخ الأزهر إنما هو للجنة السياسات وللحزب الوطني. وهذه كارثة كبرى أن يصل الأزهر إلي هذا الوضع ويصبح مثل كل المؤسسات في الدولة تابعا للحزب الوطني بعد أن كان قلعة يحتمي بها الضعفاء والمهمشون والمظلومون، وقلعة للحرية والعدالة، وقلعة للمفاهيم الإسلامية الصحيحة التي تدافع عن الناس وتحميهم من عسف الأنظمة الحاكمة. الآن الأزهر تابع للدولة ويتحدث باسم الدولة ولا يخرج عن الإطار الذي تضعه الدولة. وأزهر كهذا أعتقد أن الناس في غني عنه، وبحسبهم ما هم فيه من قهر، وتسلط، وسلب ونهب، وتفاوت طبقي رهيب، حيث هناك من يسكنون القصور، ولهم قصور في أماكن كثيرة، وهناك أصحاب العشش والمساكن غير الآدمية والمناطق العشوائية وهم الغالبية العظمي من أبناء هذا الشعب البائس الفقير.

ومن العجيب أن يستشهد الدكتور أحمد الطيب علي كلامه ببراهين غريبة أولها أن أي مؤسسة دينية في العالم أجمع لا يمكن أن تكون خارج نطاق

دولتها أو يطلب منها العمل ضد نظام الدولة، بما في ذلك الفاتيكان. لكن الدكتور الطيب نسي أن يقول لنا أي دولة ينسب إليها الفاتيكان، وإنما قال إنه دولة داخل دولة، أي داخل الدولة الإيطالية، وهذه أول مرة أسمع فيها هذه المعلومة، ثم استدرك بأنه، أي الفاتيكان، جزء من النظام الغربي لا يخرج عن سياساته. والسؤال هو: هل النظام الغربي دولة واحدة؟ وحتى لو افترضنا أنه كذلك فكيف يكون النظام الغربي ديمقراطيا ويطلب من إحدي دوله أن تكون تابعة بالمفهوم الاستبدادي الدكتاتوري السائد في بلدان العالم الإسلامي المنكوبة؟ إذن فقد بطلت هذه الحجة. الحجة الثانية والأكثر إثارة للتعجب هي سؤال الدكتور أحمد الطيب: هل يستطيع الشيخ القرضاوى أن ينطق حرفا ضد نظام سمو أمير قطر؟. والدكتور القرضاوى في الأساس مصري من قرية صفط تراب التابعة للمحلة الكبرى، وإن كان يحمل الجنسية القطرية. ولو كان النظام في مصر حريصا علي مصلحة الأزهر لاستدعي الشيخ القرضاوى ليكون شيخا للأزهر فهو أكبر علماء الأزهر الموجودين حاليا، وأكثرهم علما، وأشدهم حرصا علي المصلحة العامة، لكن النظام في مصر لا يمكن أن يطمئن للشيخ القرضاوى فهو لا يريد إلا مسئولين أتباعا يتحدثون باسمه ولديهم استعداد لعمل أي شيء من أجل مصلحة النظام واستمراره. حتى رئيس الوزراء هو نفسه موظف أو سكرتير لدي الأسرة المالكة التي حولت مصر إلي ضيعة خاصة يتحكمون فيها كما يشاءون.

وأثناء الحوار مع الرائد نادر العبد قال لي إنه علي استعداد لأن يطلب مقابلة لي مع رئيس الوزراء أو رئيس الجمهورية إذا أردت ذلك. كما قال إن استدعائي لم يكن إلا للدردشة وللصالح العام، فجامعة الأزهر منذ سنتين هادئة تماما ولم تحدث مشاكل لا مع الطلاب ولا مع أعضاء هيئة التدريس

التي هي – في رأيه – راضية تماما عن مرتباهًا التي زادت وأوضاعها التي تحسنت. طلب الرائد نادر لي قدحا من الشاي وأخذنا ندردش في كلام خارج عن نطاق الرسميات، وبما أن اللقاء تحول إلي نوع من المودة والتباسط فقد ذكر لي أنه هو المسئول عن جامعة الأزهر ومعه شخص آخر أقل رتبة منه يساعده، ومنذ تلك اللحظة وأنا أعرف أن كل الجامعات يتحكم في كل منها شخصان من مباحث أمن الدولة يجلسان في الخلفية ويديران كل شيء، وما رئيس الجامعة ونوابه والعمداء إلا صور مظهرية تحافظ علي المظهر العام. وقد تأكد لي هذا عندما أصبحت عميدا للكلية لمدة سنتين فقط، وهذا ما سوف أرويه – إن شاء الله – في فصل آخر من هذا الكتاب.

وفي نهاية اللقاء ودعني الرائد نادر العبد حتى بسطة السلم الذي يدلف إلي الخارج وهو يقول لي: لعلها أول مرة تستدعي فيها إلي البوليس فقلت له: نعم، ولكني لا أرهب البوليس لأننا جميعا مصريون ونسعى لصالح مصر. تركته وانطلقت إلي الشارع وأصداء قصيدة أمل دنقل المعنونة "صلاة" من ديوان "العهد الآتي" ترن في أذني:

أبانا الذي في المباحث. نحن رعاياك
باق لك الجبروت
وباق لنا الملكوت
وباق لمن تحرس الرهبوت

* * *

تفردت وحدك باليسـر   إن اليمين لفي خُسـرْ.
أما اليسار ففي العسـر   إلا الـذين يمـاشون

إلا الذين يعيشون يحشـــون بالـــصحـــف المشتـــــراة
العيون .. فيعيشـــــون إلا الـــذيـــن يشـــــون. وإلا
الذيـــن يوشّـــون ياقـــات قمصانهم بـــرباط السكوت!
تعاليت. مـــاذا يهمـــــك ممن يذمك؟ اليـــوم يـــومك
يرقـــي السجــــين إلـــي ســـــدة العـــــــــرش..
والعرش يصبح سجنا جديداً ..وأنت مكـــــــانك: قـــد
يتبدل رســـمك واســـمك. لكن جـــــوهــــرك الفرد
لا يتحول. الصمت وشمك. والصمـــــــت وسمـــــــك
والصـــمت – حـــيث التفـــت – يـــرين ويـــــسْــــــمُك
والصمـــت بين خــــيوط يديـــك المصمغتين المشبكتين يلـــف
الفراشة.. والعنكبوت.

* * *

أبانا الذي في المباحث. كيف تموت
وأغنية الثورة الأبدية..
ليست تموت!؟

الفصل السابع

الخصخصة

- "قراصنة الاقتصاد Economic Hit Men أو اختصارا EHM هم خبراء محترفون ذوو أجور مرتفعة مهمتهم هي أن يسلبوا ملايين الدولارات بالغش والخداع من دول عديدة في سائر أنحاء العالم. يحولون المال من البنك الدولي، وهيئة المعونة الأمريكية وغيرها من مؤسسات المساعدة الدولية ليصبوه في خزائن الشركات، وجيوب حفنة من العائلات الثرية التي تسيطر علي الموارد الطبيعية للكرة الأرضية. وسائلهم لتحقيق ذلك تشمل اصطناع التقارير المالية، وتزوير الانتخابات، والرشوة، والابتزاز، والجنس، والقتل. يلعبون لعبة قديمة قدم عهد الإمبراطوريات، لكنها تأخذ أبعاداً جديدة ومخيفة في هذا الزمن.. زمن العولمة".
- "ومثل نظرائنا من رجال المافيا نؤدي نحن قراصنة الاقتصاد بعض الخدمات، مثل منح قروض لتنمية البنية التحتية، وبناء محطات لتوليد الكهرباء، ومد طرق رئيسية، وإنشاء مواني ومطارات ومناطق صناعية. هذه القروض مشروطة بأن تتولي إدارة هذه المشروعات شركات إنشائية وهندسية من بلادنا. جوهر الأمر ألا يخرج القدر الأكبر من أموال القروض من الولايات المتحدة، بل تنقل من مكاتب البنوك في واشنطن إلي مكاتب الشركات الهندسية في نيويورك أو هوستن أو سان فرانسيسكو. ورغم أن المال يعود بشكل مباشر تقريبا إلي مانحي القروض وهم أعضاء منظمة الكوربوقراطية Corporatocracy فإن البلد التي حصلت علي هذه القروض عليها أن تردها مضافا إليها قيمة الفائدة".
- يحقق قرصان الاقتصاد أكبر نجاح عندما تكون القروض كبيرة لدرجة تضمن عجز الدولة المستدينة عن سداد ما عليها من ديون في ظرف سنوات قليلة. آنئذ نسلك سلوك المافيا ونطلب رطلا من اللحم مقابل الدين (إشارة إلي مسر حية شكسبير "تاجر البندقية")، وتتضمن قائمة طلباتنا واحدة أو أكثر مما يلي: السيطرة علي تصويت الدول في الأمم المتحدة، أو إنشاء قواعد عسكرية، أو الهيمنة علي موارد الثروة كالبترول، أو قناة بنما. بالطبع يبقي المدين مثقلا بالدين، وبذلك يضاف بلد آخر إلي إمبراطوريتنا العالمية"

جون بر كنز "الاغتيال الاقتصادي للأمم"

عندما بدأت الخصخصة وبدأت عمليات بيع القطاع العام في عهد حسني مبارك كنت أحس كأنهم يبيعون قطعا من جسد هذا الوطن. وقد كتبت كثيرا أحذر من هذا الأمر، وتحدثت كثيرا في حوارات عن الأخطار التي يمكن أن تنجم عن ذلك. ولكن الدور الهامشي للمثقفين الذي وصل إلي أقصي مدى له في زمن حسني مبارك جعل أصواتنا غير مسموعة، بل كنا نشعر أننا ننفخ في قربة مقطوعة. ومازال هذا هو وضعنا إلي الآن.. فالأنظمة العسكرية في العادة لا تسمع لأحد خاصة إذا كانت أنظمة دكتاتورية استبدادية شمولية. وقد حدث هذا في أمريكا اللاتينية وفي كثير من بلدان العالم، لكن مقاومة الشعوب ومقاومة النخبة المثقفة أدت إلي تغيير الأوضاع. ووفقا لبعض الإحصائيات الأخيرة فإن هناك في العالم الآن حوالي مائة وعشرين دولة تحكم وفقا للنظام الديمقراطي الحقيقي ليس من بينها بلد واحد في العالم العربي، لأن البلاد التي كان يمكن أن تشهد وجود ديمقراطية حقيقية مثل لبنان مازالت تعاني من مشاكل طائفية طاحنة، والبلاد التي تدعي أن فيها ديمقراطية مثل مصر ما هي إلا ديمقراطية الكلام أو التنفيس لا أكثر ولا أقل.

ويبدو أن الصلادم انتبه لما كتبته في السطور السابقة فجاءني مسرعا متلهفا وجلس إلي جواري وبدأ يسألني:

- لماذا حزنت علي بيع القطاع العام؟
- لأنه كان دائما الملاذ الأخير لفقراء هذا البلد، وعددهم كبير جدا. ألم تقرأ الإحصائيات الأخيرة الصادرة عن جامعة الدول العربية بالتعاون مع أحد أجهزة الأمم المتحدة تحت مسمي "تقرير الإنماء العربي"؟
- وماذا قالت هذه الإحصائيات؟

- قالت إن نصف الشباب يعاني من البطالة، وإن أ كثر من أربعين في المائة من السكان يعيشون تحت خط الفقر.
- ولكن القطاع العام كان يعاني دائما من الخسارة.
- هذا صحيح، ولكن القطاع العام لم يكن كله يخسر، بل إن هناك مصانع وشركات كانت تحقق مكاسب كبيرة جدا، وكان العمال يشاركون في إدارة المصنع أو الشركة ويحصلون علي حقهم من الأرباح. ثم إن خسارة القطاع العام إن وجدت كان يمكن تداركها لو صدقت النوايا وتغير المبدأ السائد وهو "تفضيل أهل الثقة على أهل الخبرة". وهذه هي الكارثة التى وقعنا فيها في مصر.. فالنظام إلي الآن لا يثق إلا فيمن يدينون له بالولاء الكامل، ولا يهم بعد ذلك أن يكسب المكان أو يخسر فهذه مسألة ثانوية عند حكامنا وأولي الأمر فينا.. المهم هو الولاء حتى ولو أدي ذلك إلي تدمير كل شيء. فبلادنا تدار بمنطق العزبة التابعة لولي الأمر.. ألم تتابع ما حدث أخيراً بين فاروق حسني وزير الثقافة ومحسن شعلان المسئول عن متاحف وزارة الثقافة؟
- نعم، عرفت أن لوحة "زهرة الخشخاش" قد سرقت من متحف محمد محمود خليل بالدقي، وأن محسن شعلان حُول إلي النيابة ومكث في الحجز فترة غير قصيرة، وأراد أن يقلب الطاولة علي فاروق حسني، وأن الصحافة جعلت من هذا الموضوع قضية كبرى، وأن فاروق حسني قال في بعض

حواراته التليفزيونية ما يفيد بأن محسن شعلان لو لم يتهمه لوقف إلي جانبه، وكان يمكن ألا تتطور الأمور علي النحو الذي حدث.

- أتدري إلام انتهي هذا الموضوع؟
- أريد أن أسمع ذلك منك.
- لقد ذهب محسن شعلان إلي مقر وزارة الثقافة في الزمالك، والتقي بوزير الثقافة وقال له أنت قائدنا، وتصالح الاثنان كأن لم يحدث شيء.
- من المؤكد أن محسن شعلان لم يجد له مخرجا إلا هذا!
- هذا هو حالنا يا عزيزي.. فالبلد عزبة كبيرة، وكل مسئول يمتلك عزبته الخاصة بدءا من رئيس الجمهورية إلي أقل موظف في الدولة. فهل كنت تنتظر أن ينهض القطاع العام في وضع كهذا؟ ومع ذلك فإنه – كما قلت- كان يمثل الملاذ الأخير للفقراء وذوي الحاجات، ثم إنه بالنسبة لشخص مثلي علامة مهمة لفترة تاريخية لا يمكن أن ننساها.
- كيف ذلك؟
- القطاع العام، أيها الصلادم، كان بالنسبة لأبناء جيلي مثالا للتحرر من أسر الإقطاع وسيطرة رأس المال علي الحكم، كما كان حلما للتحرر من سيطرة الاستعمار، وحلما للخروج من حالة الفقر والحاجة والعوز التي فرضت علي الشعب المصري طوال تاريخه البعيد والقريب
- ولكن هذا الحلم انهار بسرعة..

- نعم، مثلما انهار كل شيء.. إن ثورة يوليو الحقيقية استمرت خمسة عشر عاما فقط، وبدأ الانهيار مع هزيمة **1967**. صحيح أن حرب اكتوبر **1973** أعادت للجندي المصري كرامته وثقته في نفسه، ولكن السادات أجهض كل هذا باعتقاده المشئوم أن **99%** من الأوراق في يد أمريكا، وأن حل كل أزماتنا الإقليمية والوطنية لن يتم إلا من خلال أمريكا. ومن سوء حظنا أن من اختاره أنور السادات ليخلفه كان ومازال مؤمنا بذلك، وبما هو أكثر من ذلك. ولعل إيمانه بذلك في البداية كان لمصلحة الوطن، ولكن الأمر تحول بعد هذا إلي حالة شخصية بحتة هي الرغبة في الاستمرار في الحكم إلي آخر نفس في حياته، كما قال في إحدي خطبه، أو توريث الحكم لابنه. وفي كل الأحوال فإن أمريكا هي البلد الوحيد الذي يجب أن تقدم إليه فروض الولاء والطاعة حتى تغض الطرف عما يجري في مصر.
- أنا أتفق معك في هذا التوصيف، لاسيما وأن أمريكا عندما تكون لها مصلحة يمكن أن تغض الطرف عن كل شيء.. وقد حدث هذا أخيرا بالنسبة لانتخابات الرئاسة في السودان في أوائل هذا العام **2010** حيث تناسي الأمريكان ما حدث من تزوير في هذه الانتخابات، وقالوا هذا صراحة علي لسان المتحدثين باسم الخارجية الأمريكية، وبرروا ذلك بأنهم يريدون أن يجري الاستفتاء علي انفصال جنوب السودان في التاسع من يناير القادم **2011** بدون مشاكل.

- هذا هو حال العرب، أيها الصلادم، فهل تريد أن تواصل الانشغال بمشاكلهم وأزماقم؟

زمَّ الصلادم شفتيه وتركني ومضي لحاله فلديه شئونه الخاصة في عالمه، عالم الجن، وربما كانت مشاكلهم أخف كثيرا من مشاكلنا، اللهم إلا إذا كانت هناك قوي أو إمبراطوريات مثلنا همُّها الأول هو الهيمنة علي الأمم والشعوب.

عدت إلي الفترة التي أخذت أراقب فيها ما يحدث من بيع للقطاع العام ولكل ممتلكات الدولة في إطار خطة الخصخصة التي بدأت مع وصول حسني مبارك إلي الحكم. وكانت قد سبقتها مرحلة الانفتاح في عهد السادات التي جعلت كاتبا كبيرا مثل نجيب محفوظ يكتب قصته المهمة "الحب فوق هضبة الهرم" وهي قصة تنبأت بالأزمة التي حدثت بعد ذلك في المساكن ومازالت ممتدة إلي الآن.. فبطلا هذه القصة ظلا مخطوبين لفترة طويلة ثم عقد قرانهما لكنهما لا يجدان مسكنا يقيمان فيه، ولذلك كان لابد من اللجوء إلي الحل المتاح وهو "الحب فوق هضبة الهرم". ولاشك أن هذه القصة وقصص أخري لنجيب محفوظ تناولت الآثار السيئة لعصر الانفتاح الذي لم يكن انفتاحا بالمفهوم المعروف في الاقتصاد العالمي وإنما كان عملا يشبه السداح مداح. وإذا كانت مجموعة "الحب فوق هضبة الهرم" قد ظهرت طبعتها الأولي عام **1979** فإن من يقرأ رواية نجيب محفوظ "يوم قُتل الزعيم" التي نشرت لأول مرة عام **1985** يجد أن موضوع الارتباط بالزواج مازال يلح علي نجيب محفوظ لاسيما في عنفوان المشاكل الجديدة التي جاء بها عصر الانفتاح. ولأن نجيب محفوظ كان دائما يتوارى خلف شخصيات قصصه فإننا نقرأ كلاما كثيرا عن الواقع علي لسان هذه الشخصيات. فعلوان فواز محتشمي يقول:

"النصر يتكشف عن لعبة والسلام عن تسليم" (طبعة مكتبة مصر ص 46)، ويقول: "لا يبقي علي حاله التي كان عليها إلا الشجر والعمائر. وتدوي خطبة من راديو في مكان ما فتنشر الأكاذيب في الجو مع الغبار. تعب.. تعب.. فلنعد إلي الكلام. خرابة صغيرة بمائة ألف. الجرائم الأكاديمية في الجامعة. كم عدد أصحاب الملايين؟ الأقارب والأصهار والطفيليون. المهربون والقوادون والشيعة والسنة. حكايات ولا ألف ليلة. الجرسون عنده أيضا حكاية وعند ماسح الأحذية. متى تبدأ المجاعة؟. الرشوة عيني عينك وبأعلى صوت. الاستيلاء علي الأراضي. شيخ العصابة له أوراد. والفتنة الطائفية من يوقظها؟ مجلس الشعب كان مكانا للرقص فأصبح مكانا للغناء. الاستيراد بدون تحويل عملة. أنواع الجبن. البنوك الجديدة. بكم البيضة اليوم؟ والنقوط في ملاهي الهرم. وفسخ الخطبة!. ماذا قال إمام جامع علي مسمع من جنود الأمن المركزي؟ لا مرحاض عام في الحي كله. لم لا نؤجرها مفروشة؟. ما هو إلا ممثل فاشل. وضرب المفاعل العراقي؟. صديقي بيجين.. صديقي كيسنجر. الزى زى هتلر والفعل شارلي شابلن" (ص47). ونقرأ علي لسان محتشمي زايد: "ما ذنب حفيدي يا حثالة الأرض؟ ورَّثتم أبناءكم المال والأمان وأورثتمونا الضياع والفقر والديون، وكأن الثورة ما قامت إلا من أجل سعادتكم وتعاستنا" (ص54)، ويقول أيضا: "صبرنا آلاف السنين حتى انقلب الصبر رذيلة والتمني عاهة" (55). ويقول: "فإلي جنة الخلد يا زمردة وياهلوبة ويا أم طاقية، ويا جميع المنحرفين والمنحرفات ممن لم نقر بفضلهن حتى ورد الزمان علينا بأبطال النحس والفاقة والهزائم" (ص55). ويقول محتشمي زايد في مكان آخر: "إنه لا يحب الظالمين. ما هذا القرار أيها الرجل؟!. تعلن ثورة 15 مايو ثم تصفيها في 5 سبتمبر؟. تزج في السجن بالمصريين جميعا من

مسلمين وأقباط ورجال أحزاب ورجال فكر؟ لم يعد في ميدان الحرية إلا الانتهازيون. فلك الرحمة يا مصر "ومن كان في هذه أعمي فهو في الآخرة أعمي وأضل سبيلا" (ص65). ونختم هذه النقول من رواية "يوم قُتل الزعيم" بهذا الحوار الذي دار بين علوان وهناء، حيث قالت الأخيرة:

- اشتريت اليوم كتابا لا يقدر بثمن هو "كيف تصلح أجهزتك المترلية"، لعله يحررنا من السباك والكهربائي.

وعند ذاك تساءل علوان:

- ألا يوجد كتاب يحررنا من الحكام؟ (ص 66)

كان من الواضح لمن له أدني بصيرة بالأمور أن البلد مع بداية عصر الانفتاح كانت تتجه نحو هاوية شديدة الانحدار. وكان حكامنا لجهلهم وللمساحة الواسعة التي تتيحها لهم الأوضاع للتصرف بمفردهم وفقا لأهوائهم وانطلاقا من رؤاهم الخاصة التي لا تحدها حدود يندفعون بقوة تجاه الرأسمالية لتطبيقها في مجتمعنا بدون أدني مراعاة للظروف التي تحكمنا.

وكانت الرأسمالية في الغرب تشهد اندفاعا نحو ما سميت فيما بعد "الرأسمالية البشعة" و"العولمة" التي أعطت للشركات الدولية الكبرى حق التحكم في اقتصاد العالم. وقد بدأ هذا التوجه الجديد الرئيس رونالد ريجان في أمريكا، ورئيسة الوزراء مارجريت تاتشر في بريطانيا، ثم تصاعد هذا المد الرأسمالي البشع بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، ولهذا أخذ العالم مع بداية التسعينيات يشهد الحملات الإعلامية الضخمة للتبشير بالعولمة وجعلها مقبولة لدى جمهرة الناس في كل أنحاء العالم. ولذلك انتشرت خلال العقد المذكور المؤتمرات والندوات التي تتحدث عن العولمة وتري أنها السبيل الوحيد

للخروج من دائرة الفقر. وكنا هنا في مصر ننظر إليها علي أنها المخلِّص الوحيد لنا مما نحن فيه، بل إن أي شخص يقول كلاما ضد العولمة كان ينظر إليه علي أنه لا يفهم شيئا، ويحتاج إلي من يوجه نظره نحو فوائد العولمة. ولهذا نشطت حكومتنا الرشيدة في بيع كل الأصول، والتخلص من كل ما تملكه ويملكه الشعب دون أن يكون لدي أي شخص من حكامنا الأفذاذ النظر بروية في مسائل كهذه يمكن أن تؤدي إلي الخراب. اندفع حكامنا لتقليد الغرب ولم يدركوا أننا مختلفون تماما عن الغرب، وأنه كان من الأفضل لهم ولنا أن ينظروا في تجارب بعض الأمم التي تشبهنا.

ومع بداية الألفية الثالثة بدأ الغربيون أنفسهم يؤلفون الكتب عن سيئات العولمة والرأسمالية البشعة. وقد نقل كثير من هذه الكتب إلي اللغة العربية، أذكر من بينها (ضمن سلسلة "عالم المعرفة" بالكويت)

- "فخ العولمة" تأليف: هانز– بيتر مارتين وهارالد شومان
- "إمبراطورية الثروة" تأليف: جون ستيل جوردون
- "اقتصاد يغدق فقرا" تأليف: هورست أفهيلد
- "السيطرة الصامتة" تأليف: نورينا هيرتس

وقد كتبت دراسة عنوانها "هوية الأدب في ظل المتغيرات العالمية الجديدة" استعنت فيها بالإحصائيات الواردة في هذه الكتب. وكان مما قلت: "إن الشركات العالمية الكبرى أو عابرة القارات تحاول الهيمنة علي اقتصاد العالم حتى ولو أدي ذلك إلي شيوع البطالة وأنذر بحدوث انفجارات كبرى علي نحو ما حدث أخيرا في بلد مثل الأرجنتين اندفع نحو الخصخصة بخطوات واسعة، مما أدي إلي خلل قوى في النظام الاقتصادي للبلاد، أسفر عن اضطرابات سياسية، تلتها محاولات لرأب الصدع، ومازالت خطط المواجهة

وتقليل الخسائر الناجمة عن هذا الخلل تتوالي. وإذا تأملنا في إحصائية حول العالم نشرت خلال الفترة الأخيرة نجد أن حظ العالم الثالث من العولمة يدخل في نطاق التحذير من خطر المجاعات: فهناك **20**% من دول العالم تعد أكثر الدول ثراء وتستحوذ علي ما نسبته **84.7**% من الناتج الإجمالي العالمي، وعلي **84.2**% من التجارة الدولية. ويمتلك سكانها **85.5**% من مجموع مدخرات العالم. وفي نفس الوقت هناك تحذيرات خاصة بالقارة الأفريقية منها أن **60**% من سكان هذه القارة يمكن أن يتعرضوا للمجاعات خلال السنوات القادمة".

كما تحدثت هذه الدراسة عن بعض سمات العولمة ورصدتها فيما يلي:

1-انتصار أممية رأس المال علي أممية الطبقة العاملة. ومن العجيب أننا كعرب نعتبر متلقين في كلتا الحالتين.

2-ومن سمات العولمة فشل الاقتصاد المعولم في تحقيق نسب نمو مرتفعة، وفي الحد من ظاهرة البطالة، ثم إنه أدي إلي نسف المكاسب الاجتماعية القديمة، ومن ثم أدي إلي انهيار فئات كانت تحظي بعمل ثابت، واستقرار اجتماعي لا بأس به، ورمي بها إلي هوة الفقر والبطالة.

3-كذلك فإن من سمات العولمة أن الإنتاج الثقافي بمفهومه الواسع، من صحف ومجلات وقنوات تليفزيونية وغير ها أصبح بأيدي الطبقة المالكة لرءوس الأموال، أو بأيدي الدول في العالم الثالث، ومن ثم فلا غرابة أن يترلق النموذج الثقافي نحو الأسفل وتطغي مظاهر الرداءة والسطحية والانحطاط. وقد اشتكي من ذلك الشاعر المفكر المكسيكي

أوكتابيوباث قبيل وفاته في أواخر التسعينيات عندما سئل عن واقع الثقافة تحت سيادة أجهزة الإعلام واسعة الانتشار مثل التليفزيون. وفي هذا الصدد أذكر أن كثيرين من الإسبان الآن يطلقون علي جهاز التليفلزيون مسمي "الصندوق المعتوه" لأن من يجلس أمامه لفترة طويلة قد يصاب بالعته لكثرة ما يتلقي من مواد مسطحة بل تافهة.

انطلق حكامنا المغاوير في قطار الخصخصة يبيعون كل شيء حتى توقعنا أنهم يمكن أن يبيعوا الماء والهواء. وكما قلت فإنهم لم يدركوا أن ظروفنا مختلفة عن الظروف والأوضاع في الغرب. فالغرب يتمتع بديمقراطيات حقيقية يمكن أن تغير الحاكم عندما يزداد شططه، أما نحن فمحكوم علينا بالحاكم الأبدي الذي لا يتركنا إلا بالموت. والغرب لا يملك فيه الحاكم القرار المطلق وإنما هناك مجالس نيابية قوية تحد من سلطاته وتوقفه عند حده، أما نحن فمجالسنا النيابية مجرد ديكور شكلي، وأعضاؤها يعينهم الحاكم سواء بتزوير الانتخابات الذي يتم عيانا بيانا، أو بصدور قرارات عليا بتعيين عدد من الأعضاء. وفي الغرب نقابات قوية تدافع عن حقوق العمال وتقف ضد أي شكل من أشكال التعدي علي هذه الحقوق، أما نحن فإن نقاباتنا تابعة هي الأخرى للحاكم الأوحد، وهي تدافع عن قرارات الحاكم بأكثر مما تدافع عن حقوق العمال، ويبدو النقيب وكأنه شخص معين من قبل السلطة. وفي الغرب فصل كامل بين السلطات الثلاث: السلطة التنفيذية، والسلطة التشريعية، والسلطة القضائية. أما عندنا فكل السلطات مركزة في يد شخص واحد علي الرغم من بعض المظاهر الشكلية التي قد تبدو علي السطح في هذا الوقت أو ذاك. وفي الغرب هناك وعي عام لدي الأفراد بحقوقهم وواجباهم،

كما أن الثقافة السائدة تتيح لكل فرد أن يعبر عن نفسه بدون خوف، أما نحن فبالإضافة إلي نقص الوعي فإن لدينا خوفا أبديا من السلطة.. الخ لكل هذا كان من الصعب جدا بل من الحمق أن تطبق الخصخصة في بلادنا بنفس الطريقة التي تطبق بها في الغرب.

لم يستوعب حكامنا هذه المحاذير ولذلك اندفعوا في طريق الخصخصة. ومن العجيب أن كل شيء كان يتم في سرية تامة وكأن المصانع والشركات والأراضي وغيرها كانت أملاكا للفئة الحاكمة أو عزبة خاصة تتصرف فيها كما تشاء. وأذكر أني، وقد كنت شديد الاهتمام بهذا الشأن، لم يصل إلي علمي لماذا بيع هذا المصنع أو ذاك؟ ومن الذين قاموا بالشراء؟ ولماذا تباع الأصول بأبخس الأثمان؟ ولمصلحة من يتم بيعها هكذا؟ أسئلة كثيرة لم أجد لها إجابات إلي الآن. وإذا كان هذا يحدث مع شخص مثلي مهتم جدا بهذا الأمر فما بالك بعامة الناس؟ إنها جرائم ارتكبت في حق هذا البلد، ولا أدري متى يأتي وقت مساءلة الجناة؟ ولا شك أني لم أكن أبدا ضد أن يتحول البلد من نظام اشتراكي إلي نظام رأسمالي. ولكني كنت ضد الاندفاع والتهور وعدم التفكير في النتائج التي قد تترتب علي ذلك، فضلا عن التعتيم وكأن الشعب كله انحصر في طبقة واحدة هي الطبقة الحاكمة المستغلة التي تفعل ما تريد ولا تخشي أي حساب. وفعلا: من يحاسب الحكام في بلاد مثل بلادنا، حيث الحاكم فرد أوحد كلمته هي الأخيرة في كل شيء. وأذكر في هذا الصدد أن مجلس الوزراء منذ عام تقريبا أخذ قراراً بنقل العاصمة من القاهرة إلي مكان آخر، ولما عرض الأمر علي رئيس الدولة رفض هذا القرار بحجة واهية أن هناك أولويات. ما هي هذه الأولويات؟ لا أحد يدري.. المهم أن قرار مجلس الوزراء لم يوافق مزاج السيد الأعظم الذي يتحكم في أكثر من ثمانين مليون

مواطن لا حول لهم ولا قوة. والآن تخرج من بيتك لأداء أي مشوار في القاهرة وأنت تعرف أنك قد لا تصل، وقد تضطر للعودة إلي بيتك لأن الطرق كلها مغلقة أو لأنك انحشرت في زنقة ما لا يمكن أن تفلت منها إلا بالعودة. فهل يعرف السيد الرئيس ذلك؟ أم أن الزبانية المخلصين ينقلون إليه أن الناس في غاية الارتياح، وفي غاية الانبساط في عهده السعيد، وأنهم يدعون له بطول العمر لكي يظل في السلطة إلي آخر نفس في حياته؟!!.

ولو أن حكامنا يهتمون بالقراءة لقرءوا في كتاب مونتسكيو "روح القوانين" أن ما يصلح لأمة لا يصلح لأمة أخري. وقد عالج هذا المفكر الفرنسي من عصر التنوير (القرن الثامن عشر) هذه المسألة في الفصل الثالث من كتابه المذكور. وقد قال مونتسكيو فيما يتعلق بحقوق الأمم: "حيث توجد شعوب مختلفة بحكم الضرورة تكون لهم قوانين سائدة لصلة هذه الشعوب فيما بينها، وهذه هي حقوق الأمم. والناس إذ يعيشون في مجتمع تجب المحافظة عليه تكون لهم قوانين سائدة لصلة الحكام بالرعية، وهذه هي الحقوق السياسية. ويكون للناس أيضا من القوانين ما يحفظ صلة جميع الأهلين فيما بينهم، وهذه هي الحقوق المدنية". ويتحدث مونتسكيو عن أكثر الحكومات ملاءمة للطبيعة فيقول: "وأفضل من ذلك أن يقال إن أكثر الحكومات ملاءمة للطبيعة هي الحكومة التى تكون ذات وضع يوافق أكثر من غيره وضع الشعب الذي قامت من أجله". فهل فعلت حكومة مبارك ذلك؟ كلا، علي الرغم من الأقوال المكررة في كل المناسبات من أن رئيس الدولة يعمل لصالح الكادحين، والناس كلها تعرف أنه لم يعمل إلا لصالح أصحاب رءوس الأموال من رجال الأعمال وغيرهم من الوجهاء، ولذلك وصل التفاوت الطبقي في مجتمعنا إلي وضع لا مثيل له في أي مكان في العالم. فالأغنياء يعيشون في قصور

فخمة مجهزة بأحدث ما عرفه البشر من تجهيزات ومن بينها البحيرات، حيث لم يعد أغنياؤنا يكتفون بما يسمي "البيسين" **La piscine** في عصر شحت فيه الموارد المائية وأصبحنا علي حافة الخطر، حيث يحذر الخبراء في مجال المياه والبيئة أن العرب بعد خمس سنوات فقط سوف يعانون من نكبة مائية.. الأغنياء عندنا لا يعرفون إلا متعتهم الخاصة وليس لهم دخل بالمستقبل، فهم يمتصون اللحظة الحاضرة مثلما يعصر الشخص الليمون، ولذلك تتعدد قصورهم داخل المدينة الواحدة، وفي الساحل الشمالي وغيره وربما في الخارج كذلك. أما الفقراء فلم يعد لهم إلا الدعاء بأن ينتقم الله من الفئة الباغية يستمطرونه في كل لحظة وهم ينتقلون محشورين في ميكروباصات سيئة لا تصلح للنقل الآدمي، أو وهم جالسون في عششهم المفتقرة إلي أدني أدوات المعيشة، والتي قد لا يوجد بها ماء أو كهرباء. وللأسف فإن نسبة كبيرة جدا من المصريين ربما تصل إلي **40%** يعيشون هذه العيشة. وهؤلاء ينتظرون أن يسعدهم الحظ بالظهور في برنامج "واحد من الناس" الذي يقدمه المذيع الناجح عمرو الليثى فلعلهم يفوزون بوظيفة أو شقة أو علي الأقل أي شيء مما تقدمه جمعيات البر والإحسان. وأنا في الحقيقة لا أتصور أن مجتمعا وصل إلي هذه الحالة المتردية يمكنه أن يخرج منها بسهولة. فكل ما يجري هو مجرد ترقيعات بسيطة جدا في مجتمع كان ينبغي أن يصل إلي مرحلة الكفاية والعدل لكل أفراد الوطن كما يحدث في كل الدول التي لا نقل عنها حضارة، وقد خطت خطوات قوية إلي الأمام بينما نحن مازلنا نتعثر في أوحالنا، ولا نستوعب فكرة المواطنة أو أي فكرة حديثة جعلت الناس كلهم سواسية.. وللأسف فإن هذه قاعدة مهمة في الإسلام لكن من يفهمها حق الفهم، ومن

يطبقها؟ ومشايخنا مشغولون بقضايا هامشية لا تمس أنظمة الحكم من قريب أو بعيد، ولا تأتي ناحية العدالة الاجتماعية.

ومما قاله مونتسكيو بشأن موافقة القوانين لحالة الأمة: "ويجب أن تكون تلك القوانين خاصة بطبيعة البلد، خاصة بالإقليم البارد أو الحار أو المعتدل، وبطبيعة الأرض وموقعها واتساعها، وبجنس حياة الأمم أو الزرَّاع أو الصيادين أو الرعاة. ويجب أن تناسب درجة الحرية التي يمكن أن يبيحها النظام، ودين الأهلين وعواطفهم وغناهم وعددهم وتجارتهم وطبائعهم ومناهجهم، ثم يوجد لتلك القوانين صلات فيما بينها، صلات بأصلها وبمقصد المشترع وبنظام الأمور التي قامت عليها، فيجب أن ينظر إليها من جميع هذه الأغراض".

فهل نحن فعلنا ذلك؟ أم أننا نقلنا الرأسمالية البشعة كما تطبق في الغرب لنطبقها في بلد تحكمه فصائل الأمن، ومؤسساته مجرد ديكور، والوزراء أو رجال السياسة لا صلة لهم بالسياسة لأنهم مختارون أمنيا ليكونوا أدوات مطيعة في يد الحاكم الأوحد، ولذلك لا تجد لأي واحد منهم موقفاً سياسيا سواء كانوا داخل السلطة أو خارجها، كذلك فنحن مجتمع يسلم نفسه بالكامل لأيدي الحكام. وقد قال الإمام محمد عبده في ذلك في كتابه "الإسلام بين العلم والمدنية": "أخطأ المسلم في فهم معني الطاعة لأولي الأمر والانقياد لأوامرهم، فألقي مقاليده إلي الحاكم، ووكل إليه التصرف في شئونه، ثم أدبر عنه حتى ظن أن الحكومة يمكنها القيام بشئونه جمعيا من إدارة وسياسة بدون أن يكون لها منه عون سوي الضريبة التي تفرضها عليه.. وقد بلغت ثقتهم بالحاكم إلي حد التأليه، من حيث ظنوه قادراً علي كل شيء بدون عون من أحد، وانقلبت تلك الثقة إلي الإدبار والتخلي عنه، من حيث إنهم تركوه

وشأنه لا يساعدونه في حادث، ولا يعينونه في أمر مهم، اللهم إلا إذا أرغموا علي ذلك، ومن ذا الذي يحسن عملا إذا ألجئ إليه بالرغم منه؟. ومن هنا انصرف المسلم عن النظر في الأمور العامة جملة، وضعف شعوره بحسنها وقبيحها، اللهم إلا ما يمس شخصه منها".

وإضافة إلي ذلك فإننا مجتمعات مازالت تعاني من الأثرة والأنانية والفساد والموت من أجل الثروة والوجاهة، ونحن دائما نميل إلي انتهاك القوانين، والحصول علي ما ليس من حقنا، ولذلك فإن فتح البلد علي مصراعيها للرأسمالية البشعة وإجراءاتها المتوحشة كان خطأً تاريخيا لا يغتفر يتحمل تبعته من قاموا به ونفذوه وأوصلوا البلد إلي حالة الخراب التي نعيشها الآن.

كذلك كان لإيمان السادات الراسخ، ومن بعده مبارك، بدور أمريكا وقدرتها أثر مدمر، لاسيما وأن كلا منهما أعطي ثقته الكاملة للبنك الدولي وهيئة المعونة الأمريكية. لم يفكر أي منهما في أن أمريكا مثل كل الامبراطوريات عبر التاريخ تبحث عن مصالحها الخاصة، ولم يقرأ أي منهما عن التاريخ الرهيب لأمريكا. ومعروف أن المهاجرين الأوربيين الذين استوطنوا هذه البلاد كان همهم الأول هو القضاء علي أهل البلد الأصليين من الهنود الحمر، ثم إن الاستغلال الأمريكي لشعوب أمريكا اللاتينية موضح وموثق في كتب كثيرة أذكر من بينها كتابا واحداً فقط هو "الأوردة المفتوحة لأمريكا اللاتينية" لمؤلفه إدواردو جاليانو، وهو كتاب صدرت طبعته الأولي عام **1971** يتحدث عن الفظائع التي ارتكبها الأمريكان في بلدان القارة المذكورة وصنوف الاستغلال التي مارسوها في حق الشعوب. وبالطبع فإني لا أقصد إلي ألا نتعامل مع أمريكا، بل علي العكس من ذلك فالتعامل بين الدول

والشعوب صار ضرورة من ضرورات الحياة، ولكني أعني أن نتعامل دائما بحذر، وأن ندرك كيف ندافع عن مصالحنا أولا. وما حدث عندنا للأسف الشديد هو أننا أسلمنا قيادنا بالكامل لأمريكا. وهذه هي مشكلتنا الكبرى في العصر الحديث، فنحن لا نعرف إلا أن ننبطح، ونحن نتحول تحولات سريعة وغير محسوبة من المعسكر الاشتراكي إلي المعسكر الرأسمالي. ونحن نعطي ثقتنا الكاملة لمن كانوا أعداء الأمس القريب. وهذا ما حدث خلال السنوات الأحد عشر التي حكم خلالها السادات. ومن الواضح أنه كان حريصا جدا علي أن يكون من يأتي بعده شخصا يحمل نفس التفكير ويمضي علي نفس النهج، ولهذا اختار نائبا له محمد حسني مبارك الذي أصبحت ثقته بأمريكا أكبر وإيمانه بدورها الخلاق إيمانا جازما ولهذا مضي بخطوات واسعة في طريق التحول من الاشتراكية إلي الرأسمالية، واتخذ الخصخصة طريقا ومنهجا في بلد يحصل أفراده علي قوت يومهم بشق الأنفس، ولأنه هو صاحب القرار الأول والأخير فإنه لم يلتفت إلي أي نقد أو اعتراض، ومضي قطار الخصخصة يلتهم كل مكتسبات الشعب العامل ويسلمه إلي الفقر والبطالة والضياع والتشرد علي حين تتمتع نسبة قليلة من الأفراد والأسر والعائلات بقدر من الثراء لم يحدث حتى في فترة ما قبل يوليو **1952**.

الاغتيال الاقتصادي للأمم:

وأود أن أتوقف فيما بقي لي من سطور في هذا الفصل عند كتاب صدر في أمريكا عام **2004** هو كتاب "اعترافات قرصان اقتصادي.. الاغتيال الاقتصادي للأمم" تأليف جون بركنز **John Perkins**، وقد ترجمه إلي العربية مصطفي الطناني ود. عاطف معتمد، وقدم له د. شريف دولار ونشرته

دار الطناني للنشر والتوزيع، الطبعة الأولي عام **2008** والطبعة الثانية عام **2010**. وما سوف أنقله من هذا الكتاب مأخوذ من الطبعة الثانية.

في هذا الكتاب يحكي جون بركنز تجربته، ومن ثم فإنها قصة حقيقية لقرصان اقتصادي عاش المؤلف كل دقائقها: المناظر، والناس، والأحاديث، والمشاعر، وكلها جزء من حياته، قصته الشخصية التي وقعت ضمن سياق أحداث العالم الكبير الذي كوَّن تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية ووصل بنا إلي ما نحن عليه اليوم. إنه إذن قرصان اقتصادي كان يحس بتأنيب الضمير دائما، لأنه قبل كل شيء إنسان كره المهمة القذرة التي أوكلت إليه وإلي أمثاله وأراد أن ينفض يده من الخطيئة بكتابة هذه التجربة وإذاعتها علي الملأ لعلها تجد آذانا صاغية لدي من في أيديهم الأمر لاسيما في بلاد العالم الثالث المنكوبة.

وقد نقلت في بداية هذا الفصل كلمات لبركنز عن تعريف القرصان الاقتصادي والمهمة التي يقوم بها، والآن أقول إن جون بركنز عمل في شركة "مين" **Main** وكانت بدايته مع معلمته كلودين في يوم من أيام عام **1971** عندما قالت له: "مهمتي أن أشكلك لتكون قرصان اقتصاد، وهذا الأمر ينبغي ألا يعرفه أي شخص حتى زوجتك" ثم أضافت: "وبمجرد أن تدخل هذا المجال فقد دخلت إلي الأبد". وصفت له كلودين ما يجب أن يفعله دون مواربة قائلة: إن مهمتك هي تشجيع زعماء العالم ليصبحوا جزءا من شبكة اتصالات واسعة تروج لمصالح الولايات المتحدة التجارية. وفي النهاية يقع هؤلاء القادة في شراك شبكة من الديون لنضمن خضوعهم لنا. وهكذا نستطيع الاعتماد عليهم كلما رغبنا في إشباع رغباتنا السياسية والاقتصادية والعسكرية. وفي المقابل يعضدون مكانتهم السياسية. بإنشاء محطات توليد كهرباء، ومنشأت

صناعية، ومطارات لمواطنيهم. وهكذا يغدو أصحاب شركات الإنشاءات الهندسية الأمريكية في ثراء فاحش".

ومما لاشك فيه أن هذه المهمة لها إجراءات شرحها جون بركتر، من بينها خلق أفكار زائفة، وإضفاء القداسة علي هذه الأفكار بمفهوم راسخ ويقيني كأنه إنجيل وهو أن النمو الاقتصادي يفيد البشرية عامة، وأنه كلما زاد هذا النمو ازداد انتفاع البشرية، ويترتب علي هذا تبعات منها أن النخبة الحاكمة وأولئك الذين يجيدون اللعب في لهيب عملية التنمية الاقتصادية لهم المجد والمكافآت والثروة، وأما أولئك الذين ولدوا مهمشين فينبغي استغلالهم كعبيد. ويتم تعزيز هذه النتيجة بترسيخ الاعتقاد بأن قيادات الصناعة الذين يريدون هذا النظام يجب أن يتمتعوا بأوضاع متميزة. وهذا الاعتقاد يشكل أساساً لكثير من مشاكلنا الحالية – هكذا يقول بركتر – وقد يكون سببا في ازدهار نظريات المؤامرة لأنه عندما يكافأ الرجال والنساء علي الطمع والنهم يصبح النهم باعثا خطيرا علي الفساد.

ومعروف أننا عندما نأخذ شيئا عن الآخرين نطبقه بطريقتنا الفوضوية العشوائية، ولذلكٍ كثر أصحاب الأوضاع المتميزة في بلدنا: الموظفون الكبار الذين ربما يصل دخل الفرد منهم إلي أكثر من مليون جنيه في الشهر، والفنانون والفنانات الذين يتقاضون أجورا بالملايين في الفيلم الواحد أو المسلسل الواحد، بل إنهم يطلبون الآلاف والملايين إذا ظهروا في برنامج حواري علي إحدي القنوات الفضائية. ومن العجيب أن أصحاب القنوات يدفعون لهم صاغرين، حتى ولو كانت ممثلة ناشئة لا يتعدي عمرها عشرين عاما، أما نحن الذين قضينا حياتنا في القراءة وتحصيل العلم فيطلب منا كل

شيء مجانا. ويحدث كل هذا في وقت لا يجد الشاب فيه وظيفة بمائتي جنيه في الشهر.

ويقدم لنا جون بركتز السبب في كتابته لهذا الكتاب فيقول: "لقد كتبته علنا نستفيق ونشرع في تصحيح المسار الذي تتجه إليه الحضارة الإنسانية. فلا شك أنه حين تدرك أعداد متزايدة منا كيف تستغلنا الآلة الاقتصادية التي تخلق شهوة لا ترتوي لالتهام ثروات العالم وتنتهي بأنظمة تحتضن العبودية فإننا لن نتقبلها، بل سنعيد بناء دورنا في هذا العالم الذي تسبح أقليته في الغني وتغرق الأغلبية في الفقر والتلوث والعنف، ونكرس أنفسنا للإبحار باتجاه التعاطف الإنساني والديمقراطية وإقرار العدالة الاجتماعية للجميع". وبهذا يتضح لنا أن هذا الغرق في الفقر والأمراض والتلوث والعنف الفردي الذي نعيش فيه الآن ولا نجد لنا خلاصا أو بابا للخروج من هذه الدائرة الجهنمية كان سياسة مقصودة للقوي العالمية الكبرى وشركاتها العابرة للقارات التي كانت ومازالت يحركها الجشع والنهم لالتهام ثروات العالم.

ويروي لنا بركتز أن كلودين معلمته الأولي عندما بدأ العمل كقرصان اقتصادي أخبرته أن هناك هدفين أساسيين لعمله، الأول: اختلاق مبررات للقروض الدولية الكبيرة التي ستعيد ضخ المال إلي شركة "مين" **Main** وشركات أمريكية أخري من خلال مشروعات هندسية وإنشائية ضخمة.

الثاني: العمل علي إفلاس تلك البلاد (بعد أن تكون قد سددت ديونها لشركة "مين" **Main** ولسائر المتعاقدين الأمريكيين) بحيث تبقي هذه البلاد مدينة لدائنيها إلي الأبد، وتصبح أهدافا سهلة عندما تدعو الحاجة إلي خدمات تشمل إنشاء قواعد عسكرية، أو تصويت في الأمم المتحدة، أو اتخاذها منفذاً إلي البترول والموارد الطبيعية الأخرى. ويذكر بركتز أن العنصر الخفي في كل

هذه المشروعات هو أنها صُممت من أجل خلق أرباح طائلة لشركات المقاولات، ولإضفاء السعادة علي حفنة من العائلات الغنية ذات النفوذ في البلاد المتلقية للقروض، بينما ترسخ هذه المشروعات للتبعية الاقتصادية وبالتالي الولاء السياسي من هذه الحكومات في جميع أنحاء العالم. وكلما زادت قيمة القرض كان أفضل. والحقيقة التي لا تؤخذ في الحسبان أن عبء خدمة قرض كهذا سوف يحرم الفقراء في هذه البلاد من الخدمات الصحية والتعليمية وخدمات اجتماعية أخري علي مدي عقود كثيرة قادمة.

وقد قدم بركنز نموذجا من البلاد التي عمل بها وهي دولة الإكوادور في أمريكا اللاتينية التي دخلها القراصنة فغرقت في الديون الخارجية. ويصف بركنز السد الضخم الذي أقامته الشركة الأمريكية علي أحد الأنهار في الإكوادور بأنه مشهد عصري من مشاهد الجحيم في عمل دانتي المشهور "الكوميديا الإلهية" وقد قال عن هذا السد: "ذلك الحائط القبيح غير المتناسق هو السد الذي يصد تدفق نهر باستازا ويحول مياهه من خلال أنفاق ضخمة محفورة بالجبل فيحول الطاقة المائية إلي كهرباء. إنه مشروع شلالات أجويان لإنتاج **156** ميجاوات من الطاقة الكهرومائية. إنه يدعم الصناعات التي تجعل حفنة من أهل الإكوادور أغنياء ويمثل مصدر آلام لا توصف للمزارعين والسكان الأصلين الذين يقطنون حول النهر، وليس سوى واحد من المشاريع التي نمت من خلال عملي وعمل غيري من قراصنة الاقتصاد.

ولا أريد أن أسترسل مع كتاب "الاغتيال الاقتصادي للأمم" أكثر من ذلك ولكني أرجو أن يقرأ الناس هذا الكتاب ليعرفوا كيف تم ارتماء حكامنا في أحضان الإمبراطوريات الكبرى، وكيف وصلنا إلي الحالة المزرية التي نعيشها الآن.

الفصل الثامن

الدكتاتورية

- "لا أصدق أن الآباء المؤسسين لبلادنا أفراد المؤتمر الدستوري الأمريكي لعام 1787م قد تصوروا أن حق الحياة والحرية والسعادة وجد فقط من أجل الأمريكيين. ولماذا ننفذ الآن استراتيجيات تروج للقيم الإمبريالية التي كنا نحاربها؟

(جون بركتز، "الاغتيال الاقتصادي للأمم")

- إن التربية التي تعمل علي رفع الفؤاد في الملكيات تعمل علي خفضه في الدول المستبدة، ولابد أن تكون في هذه الدول عبودية. ومن الخير حتى في القيادة أن تكون هكذا ما دام الرجل لا يكون طاغية فيها من غير أن يكون عبداً في الوقت نفسه. وتفترض الطاعة المتناهية جهلا فيمن يطيع، لدرجة أنها تفترض ذلك فيمن يقود، فليس له أن يتأمل وأن يرتاب، أو أن يبرهن مطلقا، وليس له إلا أن يشاء. وكل بيت في الدولة المستبدة امبراطورية منفصلة. وتكون التربية القائمة علي عيش الإنسان مع الآخرين محدودة للغاية، وهي تقتصر علي بث الخوف في القلب ومنح الروح معرفة بعض مبادئ الدين البسيطة جدا، وتكون المعرفة خطرا والتنافس رجسا."

(مونتسكيو، "روح القوانين")

- "فساد الأخلاق يخرج الأمم عن أن تكون قابلة للخطاب. وإن معاناة إصلاح الأخلاق من أصعب الأمور وأحوجها إلي الحكمة البالغة والعزم القوى وقد ذكروا أن فساد الأخلاق يعم المستبد وأعوانه وعماله، ثم يدخل بالعدوى إلي كل البيوت، ولاسيما بيوت الطبقات العليا التي تتمثل بها السفلي. وهكذا يفشو الفساد وتمسي الأمة يبكيها المحب ويشمت بها العدو، وتبيت وداؤها عياء يتعاصي علي الدواء"

(عبد الرحمن الكواكبي، "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد")

لا أدري لماذا نحن من بين كل الأمم مازلنا نعيش في أسر أنظمة دكتاتورية استبدادية؟ وإلي متى سوف نظل هكذا؟. ووفقنا للإحصاءات الأخيرة فإن مائة وعشرين دولة تقريبا تعيش الآن في ظل أنظمة ديمقراطية حقيقية، ليس من بينها دولة عربية واحدة. هل كتب علي العرب أن يبقوا في إطار الحكم بمفاهيمه القديمة وألا يدخلوا أبدا في نطاق التحديث؟!. إننا ما زلنا نعيش الماضي بكل مفاهيمه في السياسة والاجتماع وظروف الحياة وغير ذلك؛ فنظامنا السياسي يقوم علي النظام الفردي حيث الحاكم العلي هو صاحب الأمر والنهي في كل شيء. صحيح – كما قلت من قبل – أن هناك برلمانات وأحزاب وسلطات مختلفة لكنها جميعا مجرد ديكور أو شكل لا يغير شيئا من الجوهر الفعلي، بل إنها تزيد الأمر تزييفا وتضفي هالة شكلية علي أشياء تدفع إلي الخلف لا إلي الأمام. وهذا شيء يكون دائما في صالح الأنظمة المستبدة لأنها من خلال الدفع للوراء تقضي علي أي مقاومة لخططها الجهنمية في الاستمرار والتوريث واستتباب الأوضاع علي ما يكون فيه فائدة لها. ولذلك فإني منذ أوائل الثمانينيات وأنا أقول إن الأنظمة الحاكمة كان لها مصلحة كبيرة في خلق التيارات الإسلامية المتشددة. وهذه التيارات تتشدد، لكن تشددها يقتصر دائما علي الجوانب الشكلية الهامشية مثل تقصير الثوب، واللحية والنقاب، والكلام عن الجنة والنار، وإغراق الناس في لجة الحرام والحلال. بل إن هؤلاء وصلوا في الوقت الحالي إلي نوع من السذاجة والبلاهة لا مثيل له، ويكفي أن تستمع إلي برنامج ديني في إحدي القنوات الفضائية التي يسيطر عليها شيوخ هذا التيار لتدرك كم أصبحت قضايانا بائسة ولا يرجي من ورائها أي خير.

إن هذه التيارات الدينية المتشددة لا تعرف من الدين إلا هذه المظاهر الشكلية. فهم لا يدركون أن الإسلام هو دين الثورة والتمرد، دين الحرية، والعدالة، دين الرحمة والرأفة، دين التسامح والقوة، دين العلم والمعرفة، وأنه- أي الإسلام – أخرج الناس من الظلمات إلي النور، ومن نار العبودية إلي فضاء الحرية، وجعل الناس سواسية في كل شيء بعد أن كانوا فئتين أو طائفتين: طائفة السادة وطائفة العبيد. كان الناس في مكة يعيشون المظالم بكل أنواعها فحرر الإسلام العبيد والمستضعفين وجعلهم سادة لدرجة أن الحكم بن هشام (أبا جهل) بعدد أن سقط في موقعة بدر الكبرى ووضع عبد الله بن مسعود رجله علي رقبته نظر إليه أبو جهل وقال: "لقد ارتقيت مرتقي صعبا يا رويعي الغنم". لا يفهم المتشددون هذه الأمور، وإنما يغوصون في أوحال لا طائل من ورائها ويجُرون العامة والدهماء وراءهم لنظل دائما نغوص في الوحل. وهذه – بلا شك – فائدة كبرى للأنظمة المستبدة، أن يتلهي الناس في هذا الوحل وينسوا الحرية والعدالة وحقوق الإنسان. وإذا كان هناك من علماء الدين من يقولون إن الإسلام لا صلة له بالديمقراطية بمفهومها المعاصر لأنه لم يدع إلا إلي الشورى فهذا أيضا شيء مهم بالنسبة للأنظمة. وأذكر في هذا الصدد أن الشيخ محمد الغزالي رحمة الله عليه سئل ذات مرة من قبل شاب متشدد: يا مولانا، هل الديمقراطية من الإسلام؟ فرد عليه بلهجة ساخرة قائلا: يا جاهل، إذا لم تكن الديمقراطية من الإسلام فهل الديكتاتورية هي التي من الإسلام؟

هكذا تسير الأمور في بلادنا: أنظمة حكم ديكتاتورية مستبدة، وإن كان بعضها يترك مساحة أو متنفسا للكلام والذي أسماه بعض المنتقدين "النباح" وحزب واحد في البلاد التي تدعي أنها ديمقراطية يسيطر عليه عدد من

أصحاب المصالح والانتهازيين، وهؤلاء أحرص ما يكونون علي مصالحهم الخاصة ولهذا فإنهم يعملون علي حماية النظام بكل ما أوتوا من قوة وقدرة علي تزييف الحقائق وخلط الأمور بعضها ببعض، وشعوب مستسلمة مستباحة غارقة في الأفكار الساذجة التي يبثها فيهم المتشددون من رجال الدين وهم أيضا أصحاب مصلحة في أن تستمر الأوضاع علي ما هي عليه لأنهم يجنون من وراء ذلك الأموال الطائلة والوجاهة والشهرة. وهناك أيضا طبقة الفنانين والممثلين الذين أعطاهم عهد مبارك ما لم يحلموا به في أي وقت من الأوقات: شهرة، وجاهاً، وأموالاً لا حصر لها، وهؤلاء أيضا حريصون جدا علي استمرار هذه الأوضاع – أما المثقفون ورجال العلم فإنهم مهملون مهمشون مستبعدون لأنه لا مجال، في دولة مبارك، للثقافة ولا للعلم والعلماء.

وليس أدل علي ذلك من أن جريدة "الأهرام" الآن في عهد د. عبد المنعم سعيد وأسامة سرايا تصدر ملحقين أسبوعيا أولهما "فنون: دراما، سينما، موسيقي وغناء" يوم السبت، والآخر "ع الهواء" يوم الأربعاء عن النجوم والفضاء. وكل ملحق مكون من أربع صفحات كاملة، صوره بالألوان وفي غاية الفخامة، وتجد فيه صورة الممثل أو الفنان بطول الصفحة تقريبا. وتجري حوارات علي صفحة كاملة مع هذا الممثل أو ذاك، ولهذا تجد عناوين من هذا القبيل: "الرئيس مبارك إنسان شديد التواضع"، "أنا ضد الإخوان والبرادعى، وأيمن نور كارت واتحرق". يعني لم يبق في البلد إلا مبارك ووارثه. وبالطبع فإن هذا الممثل وأمثاله يقاتل من أجل أن يستمر الوضع كما هو عليه. وهناك ملحق في "الأهرام" يقولون إنه مخصص للثقافة يصدر يوم الجمعة من كل أسبوع، وتنظر ماذا فيه فتجده ملحقا باهتا حتى علي مستوي الشكل، فليس فيه هذه الصور الملونة الكبيرة التي تزين الملحقين المذكورين،

وعلي مستوي المضمون تجد قصتين مختارتين بدقة، وبنوع من الرقابة بحيث لا يكون في القصة أي انتقاد أو شيء من هذا القبيل. وبالملحق صفحة للفكر بدأت معقولة لكنها نضبت لأنها تمتح من بحيرة راكدة، وهناك صفحة كاملة تقدمها كاتبة لا ندري ما صلتها بالقضايا الدينية والذي نعلمه أن مؤهلها الوحيد أنها زوجة أحد الكبار في نظام الحكم، وهناك صفحة للحوار لكن الأشخاص منتقون حسب الطلب. فهل جريدة كهذه يمكن أن تسهم في تشكيل مجتمع ينبغي أن ينهض؟

وبالنسبة لي فإن "أهرام" يوم الجمعة يكاد يقتصر علي الأخ الشاعر فاروق جويدة. ومع حبي وتقديري له واهتمامي بما يكتب من قال إن فاروق جويدة هو الكاتب الأوحد في مصر الآن؟ ولولا أن فاروق جويدة يمسك العصا من المنتصف ويفعل مثلما يفعل الكثيرون فيستثني الرئيس مبارك من حالة الفساد الموجودة ويطلب منه التدخل وغير ذلك لأزاحوه من الأهرام مثلما أزاحوا من قبل سلامة أحمد سلامة وفهمي هويدي. وهذه – بلا شك – مشكلة كبيرة في بلادنا، فأنت لكي تبقي نجما عليك أن تشيد بالرئيس مبارك وإلا سوف تنقل إلي الظل وتحال إلي المعاش ولن تجد حتى جريدة معارضة أو جريدة مستقلة تكتب فيها. ولأني أنا شخصيا عانيت من هذه الجرائد التي تدعي أنها معارضة أو مستقلة، بالإضافة إلي الجرائد الحكومية التي لن تقبلك أبدا، فقد قررت أن أخط كل آرائي في هذا الكتاب وأن أضمنه ملحقا ببعض المقالات التي نشرت لأن لهجتها خفيفة وتدخل في نطاق الكتابة المحايدة، والمقالات التي لم تنشر لأنها تتجاوز الخطوط الحمراء التي تلتزم بها جرائد المعارضة والجرائد المستقلة.

ونأتي إلي الصفحات الثقافية بجريدة "الأهرام" فنجدها ثلاثا: يوم الخميس، والأحد، والثلاثاء. وكل صفحة تتحدد مساحتها من النفوذ الذي يتمتع به صاحبها أو المشرف عليها داخل الجريدة. فصفحة الخميس لا تزيد علي ربع صفحة ولا تتسع لشيء، وصفحة الأحد تكاد تقرأ فيها للأستاذة المشرفة عليها فقط. مع أنه من الأفضل أن تمنح صفحة أو نصف صفحة مثل أخريات لتكتب فيها وتترك هذه النصف صفحة للناس، من هذا الوسط الثقافي البائس الذي سدت في وجهه كل المنافذ؟!. أما صفحة "الثلاثاء" فإنها في كثير من الأحيان تنشر حوارات مع كتاب مبتدئين لا يسمع بهم أحد. إنها حالة من التعتيم والتزييف تعيشها الحياة الثقافية مثلما هو الحال في كل المجالات، فإلي متى سيستمر هذا الوضع؟ وماذا أنتم فاعلون بمصر أيها الصغار الذين أصبح كل شيء في أيديهم؟ لقد فاض الكيل، وبلغ السيل الزبي. والمخلصون من أهل هذا البلد يتجرعون العلقم، وقد سدت الطرق فى وجوههم وبات الخلاص أمرا في غاية الصعوبة.

وإذا كان الكثير من الكتاب يمسكون العصا من المنتصف لكي يستمروا فإن الجرائد المستقلة لكي تستمر تفعل ذلك أيضا. فجريدة "المصري اليوم" علي سبيل المثال نجد بها مقالات معارضة للنظام وطريقته في الحكم، ونجد مقالات عن الفساد والانهيار وغير ذلك، لكن الجريدة تحرص كل الحرص علي عدم تخطي الخطوط الحمراء، بل إنها تفتح المجال للمؤيدين للنظام بدعوي التزام الحياد، ثم إنها عندما تجري حوارات مع أحد تحاول أن تقدم للنظام بطاقة اعتماد. وليس من مهمتي هنا تعقب كل ما يكتب ولذلك أقدم مثالا واحدا فقط: فقد أجرت "المصري اليوم" خلال اكتو بر **2010** حوارات مع د. حازم الببلاوي الذي يعمل مستشاراً لصندوق النقد العربي نشر علي

ثلاث حلقات آخرها تلك التي نشرت يوم الخميس **2010/10/14** وقد جاءت تحت عنوان: "الرئيس ضحية مثلنا لنظام سيئ والسلطة تعتمد علي معاونين درجة ثالثة". علينا إذن أن نلطم الخدود ونشق الجيوب لأن القدر هو الذي أوقعنا والرئيس مبارك في هذا النظام السيئ. فهل هناك قلب للحقائق وتزييف للأمور أكثر من هذا؟ وهل هذه المجتمعات التي عندها قدرة علي أن تفعل ذلك يمكن أن تخرج من الهوة التي وقعت فيها؟!. وهل فقدنا القدرة علي التمييز وعدم الخلط؟.

يحدث هذا عندنا في الوقت الذي خرجت فيه معظم شعوب العالم من نير الاستبداد والدكتاتورية والتسلط. لقد ظللت فترة طويلة منذ السبعينيات أتابع ما يجري في أمريكا اللاتينية. كانت هذه القارة تعاني أشد المعاناة من الحكام المستبدين ومن الأنظمة العسكرية، ولكن كتاب هذه القارة لم يستسلموا لذلك، فالكاتب الجواتيمالي ميجيل آنخل أستورياس (نوبل في الآداب عام **1967**) كتب كتابيه المشهورين "السيد الرئيس" و"رجال من الذرة" اللذين فضح فيهما الدكتاتورية وأوضح ما يمكن أن تؤدى إليه حيث قال عن الرواية الأولي: "إنها كتاب سياسي بالدرجة الأولي، إذا نظرنا إليه علي أنه رواية مستلهمة من الدكتاتورية، وإنها حاولت أن ترسم شخصية الدكتاتور علي نحو ما وجدت وعلي نحو استمرارها علي رأس السلطة في جواتيمالا لمدة اثنين وعشرين عاما.. إن الدكتاتورية لا تختلف في شيء عن السم، السم الصادر عن عنكبوت هائل.. وفي هذه الراوية التي تحاول تغطية كل الطبقات الاجتماعية يلاحظ كيف يعمل الدكتاتور علي إفساد الجميع، وشراء كل الذمم، وترويع الناس، وتحويلهم من أشخاص إلي كائنات

ميكانيكية خالصة، وإلي متعصبين شديدي المغالاة في تعصبهم، وإلي انتهازيين قساة. إن الدكتاتورية هي الضرر الأعظم الذي يمكن أن يرزأ به أي شعب".

لقد انتشرت الكتابة عن الدكتاتور في أمريكا اللاتينية خلال الفترة التي بلغت فيها الدكتاتورية أوج انتشارها خلال العقود الثلاثة الأولي من النصف الثاني من القرن العشرين. فقد كتب المكسيكي كارلوس فوينتس رواية "موت أرتيميو كروث" عام 1962، وكتب رينيه أفيليه فابيلا (المكسيك) "المعزول الكبير في القصر" عام 1971، وكتب أليخو كاربنتير (كوبا) "حق اللجوء" عام 1972، وكتب ديميتريو أجيليرا مالطا "اختطاف الجنرال" عام 1973 وهو من الإكوادور، وكتب أوجستو روا باستوس (باراجواي) "أنا الأعلى" عام 1974، وكتب جابرييل جارثيا مركيز "خريف البطريرك" عام 1975. وقد ذكر جارثيا ماركيز في حوار أجري معه عام 1976 أنه كان هناك نوع من الاتفاق بين الكتاب حول هذا الموضوع، وأن هناك فكرة طرأت علي ذهن كارلوس فوينتس عام 1968 وهي أن يُكتب كتاب جماعي يكون عنوانه "أبناء الأوطان" يكتب فيه كل روائي فصلا عن دكتاتور بلده. وفي ذلك الحين كان مقدرا أن يكتب فوينتس عن سانتانا، ويكتب كاربنتير عن ماتشادو، ويكتب ميجيل أوتيرو سيلفيا عن خوان بيثينتي جوميث، ويكتب روا باستوس عن الدكتور فرانسيا وهلم جرا. وكان كورتاثار لديه شيء جاهز عن جثة إڤــيتا بيرون. أما أنا – هكذا يقول ماركيز – فلم يكن عندي دكتاتور لكي كنت أكتب "خريف البطريرك".

وبالطبع كان هناك تيار عام في أمريكا اللاتينية يرفض الدكتاتورية، ولهذا تبدلت الأحوال في هذه القارة وأصبحت معظم دولها تتمتع بديمقراطية حقيقية. وأيضا هنا سوف نكتفي بمثال واحد وكل من لديه اهتمام بالأوضاع

في أمريكا اللاتينية يمكنه أن يتوقف عند حالات أخري كثيرة من واقع ما ينشر ويذاع كل يوم. والمثال الذي نأخذه الآن من البرازيل. فقد حكم لولاداسيلفا البرازيل خلال ثماني سنوات فقط، وقرر مغادرة قصر الرئاسة التزاما بمواد الدستور، لم يلجأ إلي تغيير الدستور للترشح لفترة رئاسية ثالثة علي الرغم من أنه يترك الرئاسة و**80**% من الشعب البرازيلي يؤيدونه، إضافة إلي أن العالم أجمع اعترف بأنه يحتل المكانة الأولي بين جميع رؤساء دول العالم المرموقين. وخلال الثماني سنوات التي رأس فيها سيلفا البرازيل صعد عشرون مليون برازيلي من دائرة الفقر إلي الشريحة الأولي من الطبقة الوسطي، وبذلك انخفضت نسبة البرازيليين الذين يعيشون تحت خط الفقر من **38**% إلي **22**% وقد ارتفع معدل النمو في البرازيل حتى وصل في عام **2010** إلي نسبة **8.8**%. وبذلك ارتفع الحد الأدنى للأجور إلي ما يعادل **210** يورو أي زيادة بنسبة **10**% تقريبا، وانخفضت نسبة البطالة إلي أقل من **7**% من إجمالي الشعب العامل، ولم تتجاوز نسبة التضخم **4.5**%. استطاع لولاداسيلفا أيضا أن يواجه الأزمة الاقتصادية العالمية في نهاية عام **2008**، واستطاع أن يتجاوزها بعد سنة واحدة فقط، أي خلال عام **2009**. ومعروف أن البرازيل دولة واسعة يسكنها مائتا مليون نسمة يتوزعون في **27** مقاطعة، تتمتع كل مقاطعة منها بقدر من الاستقلال الذاتي. وهذا نظام موجود في كثير من دول العالم الآن بما في ذلك إسبانيا ويمكن أن نطلق عليه مسمي النظام الكونفدرالي وهو يمنح المناطق فرصا أكبر للتنمية والمنافسة والتجويد وهذا ما يمكن أن تلاحظه الآن إذا ذهبت إلي أسبانيا؛ فكل منطقة حدث فيها تقدم كبير، وكل هذا يصب في النهاية في النهر الأوسع المسمي بالحكومة المركزية. ولا شك أننا إذا تحدثنا عن هذا النظام وإيجابياته في منطقتنا

العربية يمكن أن تتعرض لاتهامات غبية بأنك انفصالي وتسعي إلي تجزئة الوطن وتفكيكه، ولله في خلقه شئون!!.

أنشا لولاداسيلفا كذلك نوعا من الحوافز أطلق عليه مسمي "المحفظة العائلية" (بولسا فاميليا)، وتتمثل هذه المحفظة في تقديم معونة مالية للأسر الفقيرة بشرط أن تتعهد بإرسال أطفالها إلي المدارس وتطعيمهم صحيا، وغير ذلك. وبهذا يكون لولاداسيلفا قد نجح في اقتحام مشكلة الفقر الذي كانت تعاني منه نسبة كبيرة من الشعب البرازيلي. ومعروف أيضا أن هذا الرجل، في خلال ثماني سنوات فقط، نجح في مجال الزراعة نجاحا أدي إلي التوسع في المنتجات الزراعية وتحسين النوعية، ولهذا اقتربت البرازيل من أن تصبح المورد الأول للمواد الغذائية إلي السوق الصينية العملاقة. كذلك اكتشفت البرازيل مساحات واسعة من حقول النفط والغاز قرب سواحلها في أعماق المحيط الأطلنطي.

ثم إن البرازيل اقتحمت الساحة العالمية بقوة، أولا في أمريكا اللاتينية، حيث عملت علي تجميع دول هذه القارة تدريجيا في منظمة "ميروسكور" وتزامن هذا مع الإعلان عن الخصوصيات التي تربط بين دول أمريكا اللاتينية علي المستويين التاريخي والثقافي.كذلك انطلقت البرازيل بقوة خارج هذا الإطار لتقيم علاقات قوية مع معظم دول العالم في جنوب شرق آسيا وفي منطقة الشرق الأوسط. ومنذ فترة قليلة شاهدنا التقارب الكبير بين تركيا وإيران. لولاداسيلفا كان يفعل هذا انطلاقا من المصالح الخاصة لبلاده دون النظر إلي ما يمكن أن يسببه ذلك من حدوث استياء لدي القوة العالمية الأولي وهي الولايات المتحدة الأمريكية.

وعلي الرغم من كل هذه الإنجازات التى تحققت في غضون سنوات قليلة جدا لم تسكر السلطة لولاداسيلفا، ولم تجعله يعتدي علي الدستور الذي يحدد للرئاسة فترتين فقط، ولم تُجد معه الأصوات المطالبة باستمراره، وقد قلت من قبل إن شعبيته بلغت **80%**، بل إن البعض ذكر أنها أكثر من ذلك **85%** تقريبا، وإنما قرر أن تمضي الأمور علي النحو الذي حدده الدستور، وجرت الانتخابات الرئاسية في البرازيل في اكتوبر ثم نوفمبر **2010** وفازت بها خليفته التي حظيت بتأييده ودعمه وهي ديلما روسيف، وهي أول امرأة تحكم هذا البلد الذي تمتد مساحته لتشبه قارة بكاملها. وقد حصلت ديلما روسيف في الجولة الثانية (أول نوفمبر) علي **65%** من أصوات الناخبين.

جاءني الصلادم مسرعا عندما أحس أن لديه أشياء يريد أن يناقشها معي، ولذلك قال لي دون أن ينتظر أو يتمهل:

- ألا تلاحظ أن هناك شيئا مهما يفرِّق بينكم وبين ما يحدث في الأمم الأخرى؟
- أشياء كثيرة جدا وليست شيئا واحدا أيها الصلادم.
- لكني أشير إلي مسألة ربما لا يفطن إليها الكثيرون.
- ما هي؟ دلني عليها فورا.
- هي ما يمكن أن نسميه الفارق الشاسع بين النضال والصدفة.
- معك حق أيها الصلادم.. فمعظم حكامنا جاءوا عن طريق الصدفة. السادات مثلا اختار مبارك نائبا له ولم يكن له أي تاريخ سياسي أو نضالي.. صحيح كان قائدا للقوات الجوية في حرب اكتوبر **1973**، ولكن من قال إن هذا المنصب العسكري يؤهل صاحبه ليكون سياسيا، بل علي رأس دولة

مهمة مثل مصر؟ والعسكريون في البلاد الديمقراطية الحقيقية لا يحق لهم أن يتولوا أي منصب سياسي، اللهم إلا إذا كانوا قد ابتعدوا منذ فترة عن العمل العسكري وانخرطوا بحق في المجال السياسي. عندئذ يمكن أن يكون لديهم رصيد سياسي يعطيهم الحق في ممارسة السياسة. أما أن يتولي العسكري منصبا سياسيا عن طريق انقلاب أو بالصدفة كما يحدث عادة في بلادنا فهذه كارثة تؤدي إلي كوارث كثيرة جدا. وهذا هو ما نعاني منه الآن أشد المعاناة.

- ولا شك أنكم سوف تظلون في معاناة دائمة طالما استقرت أوضاعكم علي هذا النحو، لاسيما وأن شعوبكم ليس لديها وعي ناضج بما يجري، والدعايات الصحافية والإعلامية للنظام الحالي يمكن أن تخترق كل شيء ويمكن أن تسد الطريق علي أي صحوة أو انتفاضة فيها خلاص أو حتى مجرد التفكير في الخلاص. إنكم في حارة مسدودة يا عزيزي!!.

- أتدري، أيها الصلادم، من هي ديلما روسيف؟ إنها امرأة يطلقون عليها في البرازيل صفة المرأة الحديدية لأنها تتمتع بشخصية قوية ولديها قدرة علي إدارة الملفات الصعبة لاسيما تلك المتعلقة بخطط التنمية والبنية التحتية. ومعروف عنها أنها ناضلت ضد الدكتاتورية في البرازيل، فعذبت ودخلت السجن. وقد انضمت لليسار منذ فترة مبكرة من حياتها، فأبوها كان محاميا شيوعيا بلغاريا هاجر إلي البرازيل عام **1930**. كان رجلا مثقفا يعلمها قراءة الكتاب الكبار مثل ديستويفسكي ويصحبها

إلي الأوبرا. التحقت في البداية بمدرسة دينية ثم انتقلت إلي مدرسة حكومية، واكتشفت الأفكار الاشتراكية والثورة الكوبية وأصبحت عضوا في جماعة ثورية عمالية. وبعد أن حصلت علي الثانوية التحقت بالجامعة لدراسة الاقتصاد، وفي تلك الفترة انضمت إلي منظمة للنضال المسلح اسمها كولينا، وكانت قد بدأت تأخذ منحي راديكاليا، لكنها سرعان ما تحولت إلي النهج السياسي، ثم انضمت إلي حركة عمالية سرية فألقي القبض عليها عام **1973** ودخلت السجن لمدة ثلاث سنوات عانت خلالها من التعذيب. وبعد الإفراج عنها استقرت في بورتو أليجري بجنوب البلاد. وظلت ديلما روسيف تكافح وتناضل من أجل حقوق الفقراء، ومن أجل الديمقراطية حتى اختارها لولاداسيلفا عام **2003**، أي في بداية ولايته الأولي، لتتولي وزارة الطاقة والمناجم، وهكذا أخذ نجمها يصعد إلي أن فازت بمنصب رئيسة البرازيل.

- ألا تلاحظ شيئا آخر هنا وهو أن لولاداسيلفا كان يختار المناضلين وأصحاب المواقف والرؤى ليتولوا المسئولية علي العكس تماما مما يحدث عندكم؟
- نعم، أيها الصلادم، الحاكم عندنا يختار أسوأ الشخصيات ليكونوا مسئولين لأنه يريدهم سكرتارية فقط، ليس لهم شخصية، وليس عندهم إرادة، بل ليس لأي منهم أي تاريخ سياسي، وتأمل حولك في أعضاء حكومة نظيف. فنظيف نفسه لم تكن له أي اهتمامات سياسية. وقد كتب عن ذلك الصديق

أحمد بهاء الدين شعبان في مقال نشر بإحدي جرائد المعارضة عندما تولي نظيف الوزارة. والوزراء أيضا كثير منهم من المهندسين الذين يفتقرون إلي أي رؤية أو موقف أو تصور. خذ مثلا وزير التعليم العالي المهندس الدكتور هاني هلال هل لديه أي تصور عن أزمة التعليم؟!. إنهم وزراء مطلوب منهم فقط أن يطبقوا السياسة الرأسمالية البشعة التي يؤمن بها حسني مبارك إيمانا جازما ويريد أن يفرضها علي بلدنا الفقير البائس.

- هل سمعت أن هناك مخططا لبناء "مولات" في القرى، يقتطعون الأراضي الزراعية الخصبة ليقيموا عليها أسواقا تجارية تخدم الفئة الرأسمالية.. هل تتصور هذا؟ الفلاحون أصحاب الدخول المنخفضة يتوجهون إلي المول كي يشتروا بضائع يدفعون فيها أموالا لا يملكونها.. ألم يعد هناك من هدف للاستغلال الرأسمالي إلا الفلاحين والأرض الزراعية؟

- هذه مأساة، أيها الصلادم، ومن العجيب أن شعبنا ليس لديه قدرة علي أن يوقف هذه الفئة المستغلة عند حدها. دعنا الآن من هذا الوضع المحزن وقل لي: ما الذي تعرفه عن لولاداسيلفا؟

- لولاداسيلفا، يا عزيزي، رجل نشأ في وسط الطبقة العاملة الفقيرة اشتغل في البداية حداداً، وبكفاحه ونضاله أصبح زعيما نقابيا. وأثناء ذلك كان يجتهد لتحصيل العلم ويخوض معارك نقابية وسياسية ويعاني من الاضطهاد إلي أن تم انتخابه رئيسا للبرازيل. وما إن أصبح رئيسا حتى حدد هدفه وهو: "إقامة الركائز حتى يستطيع أشد الفقراء فقرا أن يرتفعوا إلي مستوي

الطبقة الوسطي الدنيا، وبعد ذلك إلي مستوي الشريحة الوسطي من الطبقة المتوسطة، بحيث تصبح الغالبية العظمي من الطبقة الوسطي". وقد صدق لولاداسيلفا فقد ترك رئاسة البرازيل وكل شيء فيها قد تغير إلي الأفضل.

- ومع ذلك لم ينتهك الدستور ويترشح للمرة الثالثة. أما نحن فقد وصلت البلد إلي الخراب ومع ذلك يصر الرئيس علي الترشيح للمرة السادسة، مع العلم بأن المدة الرئاسية في البرازيل أربع سنوات والمدة الرئاسية عندنا ست سنوات. وقد ملأ المنافقون بلا حياء شوارع القاهرة والمدن الإقليمية يافطات تقول: "وعد فأوفي" فهل تري أيها الصلادم أنه حقا "وعد فأوفي"؟
- الذي أعرفه، وأنا عفريت من الجن، أن الأحوال ازدادت سوءا: التفاوت الطبقي يزداد حدة، والفقراء تزيد نسبتهم، والبطالة يعاني منها نصف الشباب، والأسعار نار، والطبقة المتوسطة انتهت، والدخول محدودة، والجمود قد زاد بل تحول إلي عفن، والشعب المصري يبحث عن الهجرة بكل الطرق الممكنة شرعية وغير شرعية، والتعليم منهار سواء في الإعدادي والثانوي أو في الجامعة. واللغة العربية معرضة لترك موقعها للغات الأجنبية، والخدمات الصحية في حالة تردٍّ لم يسبق لها مثيل لدرجة أن مبارك نفسه لا يثق في المنشآت الصحية التي بنيت في عهده ويذهب للعلاج في ألمانيا أو فرنسا، وكبار المسئولين أيضا يفعلون ذلك، ومن بينهم شيخ الأزهر الذي انتقل إلي فرنسا لتركيب دعامة للقلب طبعا علي حساب

الدولة. ومن العجيب أن حكومة مبارك تطلب منكم أن تعالجوا في مصر. فلماذا لا يفعلون هم ذلك أولا؟ وإذا كانوا فاقدي الثقة بالمستشفيات المصرية والأطباء المصريين فكيف يطلبون من الناس أن يفعلوا عكس ذلك؟ أم أنهم لكثرة حرصهم علي الحياة واستمرار العيش يذهبون إلي البلاد التي تتيح لهم تحقيق هذا الهدف؟ فلا أحد عندكم يغادر موقعه إلا بالموت في حالة الشخص الأوحد الذي يمسك في يده بكل المقاليد، أما أعوانه فإنهم يغادرون مواقعهم في حالتين: الموت، والثانية في حالة ما إذا أظهر المسئول أنه صاحب رأي أو موقف، وعندئذ يزال غير مأسوف عليه.

- هذا صحيح أيها الصلادم، فالمسئول عندنا لابد أن يكون كذلك وإلا فقد وظيفته في أقرب فرصة أو تحت أي ذريعة، ولهذا تجد المسئول الكبير حريصا كل الحرص علي إرضاء رؤسائه وآخرهم أو أعلاهم الحاكم الفرد جل شأنه. وبلاد كهذه لا أعتقد أنها يمكن أن تصبح يوما مثل البرازيل اللهم إلا إذا حدثت لحلحة وخلخلة في أفكار الناس وتحولوا من شعب مستسلم مستباح إلي شعب واع يعرف ما ينبغي عليه أن يفعله، ولا يترك الفرصة لحاكم دكتاتور وزبانيته وأعوانه من أصحاب المصالح كي يتحكموا فيه كما يريدون.
- علمت أنك منذ يومين ذهبت إلي منطقة روكسي لشراء ملابس داخلية من فرع "عمر أفندي" هناك كما هي عادتك،

وأنك كنت مترددا كدأبك هذه الأيام هل تأخذ سيارتك أم تأخذ تاكسيا أم تركب المواصلات العامة؟

- صار هذا دأبي فعلا، فأنت تخشي أن يكون الطريق متوقفا منذ دخولك في شارع العروبة من أمام منطقة شيراتون، أم متوقفا في الطريق الآخر عبر ميدان الحجاز وبالتالي تعاني أشد المعاناة من ركوبك السيارة وربما تفقد أعصابك. وإذا ركبت تاكسيا فكلا الأمرين وارد، ولذلك توكلت علي الله وأخذت مواصلة عامة أحرص دائما علي أن أجد بها كرسيا خاليا حتى أجلس وأترك الأمور لله، والسائق علي أية حال لا يهمه هذا الأمر لأن كل الوقت محسوب من فترة عمله، وبالتالي أراه دائما هادئ الأعصاب. أما أنا فقد أكون متوترا بعض الشيء خاصة إذا كان الموعد يمكن أن يفوتني، وهذا يحدث كثيرا، لكني علي أية حال أكون أهدأ مما لو كنت أنا السائق.. هكذا أوصلنا نظام حسني مبارك إلي حالة انسداد كل شيء. ومن العجيب أن هذا الشعب صابر ومحتسب وأعصابه من حديد. وأنا علي طول ما سافرت لم أجد شعبا كهذا!! إن لدينا طاقة علي الاحتمال ليست موجودة في أي مكان في العالم!.

- إن هذا يذكرني بهذه الفقرة التى جاءت في كتاب إميل لودفيج "النيل – حياة النهر"، حيث قال: "أتفرس في الوجوه، صغيرها وكبيرها، ذكورها وإناثها. يذهلني الاتفاق المدهش بين كل الوجوه علي نموذج موحد يلخص قيما تبلورت عبر آلاف السنين، خلاصتها القناعة والاستكانة والرضا بالمقسوم. لم

تستطع كل قوى الخير أو الشر خارجيا أو داخليا أن تحرك هذه الوجوه للخروج عن وداعتها ذاتيا، ولا حتى المجاعات التي وصل فيها القحط مداه بأكل الميتة. عادة ما تكون الزوبعة إن حدثت جملة اعتراضية شديدة الضحالة في فنجان شديد العمق، شديد الاستكانة.. لابد من فرعون المحرك للجموع". وقال إميل لودفيج أيضا: "وعلي ما كان من قلة عدد الأغنياء ما فتئ هؤلاء يفرضون علي ألوف الفقراء القيام بالعمل اليدوي الذي هو أقسي مما في الأماكن الأخرى من جهة الاحتمال لاسيما ما هو ضروري لأعمال الري. وتنظر إلي هؤلاء الفقراء فتجدهم مع ذلك طيبي المزاج، فلم يحدث قط أن ثاروا علي الأغنياء إلا فيما ندر. وفي هذا البلد يبدو أن الشمس جففت إرادة التمرد كالنيل بما فرضته من حساب فقضت علي المعني الفلسفي. ومع ما كان من اختراع هذا الشعب لأشياء كبيرة قبل الشعوب الأخرى بآلاف السنين فقد جعلهم خوفهم من العنصر، ومن النيل، أتقياء اجتماعيين محافظين".

- انتظر، أيها الصلادم، حتى أحدثك عن الصدمة التى حدثت لي عندما وصلت إلي مبني "عمر أفندي" في روكسي.
- أي صدمة ياعزيزى ؟
- فعلا إنها صدمة بكل المقاييس. لقد أصبح المبني مجرد جدران، ليس فيه بضائع، وقد رفعوا اليافطة الكبيرة التى كانت موجودة في أعلاه، وسرحوا الموظفين والعمال اللهم إلا عددا قليلا جدا منهم في الدور الأرضي يبيعون ما تبقي من بضائع قليلة. وقد

علمت منهم أن المستثمر السعودي فعل هذا في كل الفروع. كان الأسى واضحا علي وجوه هؤلاء الناس، وكانوا يستمطرون الدعوات بأن ينتقم الله ممن فعلوا بهم ذلك. وقال لي أحدهم: إن المستثمر السعودي وأعوانه لا هم لهم إلا معاكسة البنات. فهل هناك دولة في العالم تبيع أصولها بثمن بخس وتترك المستثمرين الأجانب يتصرفون كما يريدون بدون التزام بشروط أو عقود أو غير ذلك مما هو معروف عالميا؟ وأنا في الحقيقة لا أفهم إلي الآن: كيف فعل رجل خارج من تحت خط الفقر مثل حسني مبارك كل هذا ببلده؟. ولا شك أن حسني مبارك كان لا يهمه إلا أن يصير أحد كبار مليارديرات العالم، وهو الآن كذلك. وقد طالبته في مكان آخر من هذا الكتاب أن يقدم ذمته المالية وذمة أفراد أسرته، فهل يفعل ذلك؟!.

- عجيب أمركم أيها العرب.. مازلتم تحكمون بمفاهيم ومعايير القرون الوسطي حيث يمتلك الحاكم رقاب الناس ونفوسهم ويستولي علي أموالهم، ويتصرف في كل شيء بمنطق أنه المالك الأوحد والمتصرف الأوحد، والناس بين منافق شديد النفاق ولديهم هَم للسلطة والمال، أو راغب في الوصول إلي شيء، أو عنده رهبة أبدية، والشعب مستسلم مستكين غارق في أوحاله ومشاكله، والقليلون من المناضلين وأصحاب المواقف لا يجدون من ينصرهم أو يقف معهم، ولهذا يعانون من التضييق

والمطاردات وهم صابرون محتسبون يأملون في أن تتغير الأوضاع ويسترد هذا الشعب المسكين وعيه المفقود.

تركني الصلادم وانطلق يسرح ويمرح في عالم الجن وبقيت أنا أتأمل ما يحدث في العالم. فمن ذا الذي لا ينبهر بما يجري خارج حدودنا، ويتعجب كيف أصبح صوت الناخب يُعمل له ألف حساب ونحن مازلنا نعيش في العصور الوسطي؟ انتخابات التجديد النصفي الأخيرة لمجلس النواب والشيوخ في أمريكا التى جرت في الثالث من نوفمبر **2010** تؤكد ذلك. لقد قرر الناخب الأمريكي أن يعاقب الرئيس باراك أوباما لأنه خلال سنتين تقريبا من حكمه لم يستطع أن يجد حلا شافيا للأزمة الاقتصادية وللبطالة. سنتان فقط، مع أنه ورث هذه الأزمة الطاحنة من سلفه جورج دبليو بوش. وبذلك جاءت نتيجة الانتخابات بانتصار ساحق للحزب المعارض (الجمهوريون) في مجلس النواب، وإن كان انتصارهم في مجلس الشيوخ ليس علي نفس المستوي، فقد أقصوا الديمقراطيين من مجلس النواب لكنهم فشلوا في إقصائهم من مجلس الشيوخ. لكن النتيجة، علي أية حال، تقدم تحذيرا لأوباما من أنه يمكن ألا يعاد انتخابه لفترة رئاسية ثانية إذا فشل في انتشال الولايات المتحدة الأمريكية من الأزمة الاقتصادية، ولذلك سارع أوباما، بعد الانتخابات مباشرة، بالقيام بجولته في جنوب شرق آسيا التي تستمر عشرة أيام بدأت بالهند ويزور بعدها ثلاث دول أخري وبمجرد وصوله إلي الهند عقد صفقة قيمتها عشرة مليارات دولار لإنعاش الاقتصاد الأمريكي والإسهام في حل مشكلة البطالة بتوفير فرص عمل تبلغ **150** ألف فرصة.

أين نحن، إذن، مما يجرى في العالم؟ إن حكامنا يبيعون لنا الأوهام التي تصنعها الأجهزة الإعلامية الفاسدة، ويثبتون مواقعهم في السلطة حتى ولو

بلغوا أرذل العمر، ويزيفون كل شيء بما في ذلك الانتخابات. ومن العجيب أننا نجد الآن إقبالا شديدا علي الترشيح لانتخابات مجلس الشعب التي سوف تجرى في نهاية الشهر الحالي (نوفمبر **2010**) مع أن الجميع يعرفون أنه لا توجد أية ضمانات لنزاهة الانتخابات، حتى الرقابة الدولية مرفوضة والعالم كله يقبل بها حاليا بما في ذلك الدول المتقدمة، أما نحن فنعتبرها تدخلا في الشئون الداخلية، وهي – كما يقال – كلمة حق يراد بها باطل. فمعظم دول العالم الآن تهتم بأن تثبت أن انتخاباتها نزيهة وغير مزورة. أما نحن فكيف نقبل بشيء يمكن أن يجعل فضيحتنا بجلاجل. إن حكامنا أصحاب النزاهة يفعلون ما يريدون وهم متأكدون من أن هذا الشعب ليس لديه قدرة علي أن يكون لديه رد فعل. وكيف يكون لدينا رد فعل وشباب الجامعات تحولوا إلي كائنات هلامية بفعل عوامل كثيرة جدا: فساد التعليم، والقبضة الأمنية الحديدية، وعملية الإقصاء المستمرة بحيث لا يكون للطالب أي انتماء فكري أو عقائدي أو سياسي وكأننا محكوم علينا بأن يظل الشيوخ الطاعنون في السن يتحكمون في شئوننا إلي الأبد. وهناك أيضا تدهور الأحوال المعيشية وانكفاء كل فرد علي ذاته بمن في ذلك الطلاب الذين يفترض فيهم أن يكونوا عدة المستقبل. ولكن كيف يتأتي ذلك وهم مطاردون أمنيا داخل الجامعة، وفي المدن الجامعية، فأي طالب يصدر عنه أي شيء يمكن أن يعكر الصفو يشطب اسمه فورا من المدينة الجامعية، ويمكن أن توجه له التهم داخل الكلية ويقتاد إلي التحقيق والحجز، وقد يُسجن. وأذكر في هذا الصدد أن الكاتب الروائي خيري شلبي قال، علي لسان إحدي الشخصيات، في رواية "نسف الأدمغة" (**2007**م): "هكذا الفساد في المجتمع المصري يا صديقي، لا يترك لأحد من عباد الله شرفا يتباهون به ولا أخلاقا يتحلون بها. إنه مجتمع الدهس في الوحل يا حضرة!. مجتمع كسر النفس ومرمطة النفوس الأبية في التراب، وقطع الرءوس المتطاولة

أو العامرة بالعلم والإيمان. مجتمع تكميم الأفواه وقتل روح المرجلة في نفوس طلبة الجامعات!. مجتمع فاكك، كل بلطجي قوي يفعل ما يريد، يخطف ما يقدر عليه، يقتل من يعترضه، يرمي بلاءه علي عباد الله".(ص **211**).

وفي موضع آخر من الرواية نفسها (ص**324**) نقرأ علي لسان شخصية أخري: "نواب برلمانيون يسرقون مدخرات الناس من البنوك. سماسرة ووكلاء وقوادون ومجرمون يتبوأون الأماكن والمراكز الحساسة. ما كانت مصر هكذا قط في يوم من الأيام. أين ذهبت مصر؟ أين الشعب المصري الجميل الخفيف الظل الشجاع الخجول الحيي الحنون المتحضر؟ قتلوه؟ يبدو." وفي الصفحة نفسها نقرأ: "المواطن هنا لم يعد إنسانا، بل أصبح مجرد كائن كل هدفه في الحياة أن يبقي حيا يستمتع بأي شيء تافه حتى وإن سرقه أو اغتصبه".

ولذلك فإنه من الطبيعي جدا والمنطقي أن تتدهور حياة المصريين في كل شيء: في المعيشة، والصحة، والتعليم، وحتى الأخلاق. بل إنهم يعانون في الانتقال من مكان إلي مكان داخل المدينة أو بين كل مدينة وأخري علي الرغم من الكباري التى أقيمت في كل مكان. ومعروف أن العالم كله تخلي عن سياسة الكباري وأنشأ بدلا عنها أنفاقا نظيفة جميلة. كانت الكباري موجودة في مدريد عندما كنت أدرس بها، الآن أزيلت هذه الكباري مع أنها كانت نظيفة. أما الكباري عندنا فقف قليلا تحت أعمدتها وتأمل كيف تحولت إلي أماكن شديدة القذارة بفعل مخلفات القمامة وقضاء الحاجات. ومع ذلك فإن نظام الحكم مصر علي المضي في سياسة الكباري بعد أن ثبت فشلها داخل المدن. ولا يعرف هذا النظام طريقة التفريق أو التمييز بين هذا المكان أو ذاك، أي بين المكان الذي يصلح فيه إقامة كوبري والمكان الذي يمكن أن يشوهه الكبرى.. إنها أيضا العشوائية التى تحكم كل التصرفات في بلادنا الميمونة.

الفصل التاسع

نظام العقيد

- "إن عقول المستبدين لا تعرف مبدأ التفاهم، ولا تطيق الأخذ والرد للوصول إلي الحق. ويكاد لا ينبعث صوت للخير حتى يلاحقه سوط من الإرهاب يطلب إما إخراسه وإما قتله."

(محمد الغزالي، "الإسلام والاستبداد السياسي")

- "ويجب علي القوانين أن تحظر عليهم التجارة، فالتجار الثقات كثيرا ما يلجئون إلي ضروب الاحتكار، والتجارة هي مهنة أناس متساوين، وأشد الدول المستبدة بؤسا هي التي يكون الأمير فيها تاجراً"

(مونتسكيو، "روح القوانين")

- "خارج نافذة سيارتي كانت الغيوم الرطبة تأتي من الغابات، وتصعد باتجاه وديان باستازا، كان العرق يبلل قميصي، وبدأت أشعر بالمغص في معدتي، ليس فقط من الحرارة الاستوائية ولا من الطريق المتعرج بل لأنني أعلم بالدور الذي لعبته في تخريب هذا البلد الجميل (الإكوادور). كان تأثير هذا قد بدأ يظهر عليّ، فبسبب ما فعلته أنا وأمثالي من القراصنة ساءت حال الإكوادور كثيرا عما كانت عليه قبل أن نسحبها إلي معجزات الاقتصاد الحديث والبنوك والهندسة. فمنذ عام 1970، وخلال الفترة التى عُرفت تجاوزا بمرحلة الازدهار البترولي ارتفعت نسبة الفقر من 50% إلي 70%، وازدادت البطالة من 15 إلي 70%، وزادت الديون العامة من 240 مليون دولار إلي 16 مليار دولار، وفي الوقت نفسه تدنت حصة الطبقات الفقيرة من المصادر القومية من 20 إلي 6%". وللأسف فإن الإكوادور ليست استثناء، فتقريبا كل بلد وضعناه – نحن قراصنة الاقتصاد – تحت مظلة الإمبراطورية العالمية واجه نفس المصير".

(جون بركنز، "الاغتيال الاقتصادي للأمم")

كان السادات يعد الناس بأن أحوالهم المعيشية سوف تتحسن كثيرا لسببين:

أولهما سياسة الانفتاح الاقتصادي، وثانيهما معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل. وقد مرت علي وفاة السادات الآن تسعة وعشرون عاما تدهورت فيها أحوال المصريين المعيشية بصورة خطيرة: فالأجور والمرتبات بالنسبة للغالبية العظمي منهم مازالت كما هي – ويدور نقاش حاليا حول رفع بداية الأجر إلي أربعمائة جنيه شهريا، ولا ندري هل ستستطيع الحكومة تحقيق ذلك أم لا؟ لكن في حالة إقرار هذا الأجر ماذا يفعل هذا المبلغ في هذا الغلاء الطاحن الذي وصلنا إليه؟. وقد حذر رئيس الوزراء من أن زيادة الأجر سوف تؤدي إلي زيادة الأسعار.. إنها إذن طاحونة الحياة التي يتحملها المصريون منذ عقود طويلة. وهبْ أن بعض العاملين أو الموظفين أو أصحاب الدخول المحدودة يستطيعون علي أي نحو مواجهة هذا الغول الشرس المتمثل في زيادة الأسعار فماذا يفعل العاطلون من الشباب الذين يتخرجون من الجامعات كل عام وينضمون إلي طابور البطالة؟ وماذا تفعل الفئات التي ليس لها إلا ذلك الدخل المحدود المسمي بالمعاش وهو في الأعم الأغلب يصل إلي مائة جنيه؟ وماذا يفعل الفقراء الذين سدت في وجوههم كل السبل؟.. الخ الخ. وهؤلاء جميعا ينظرون إلي أصحاب الدخول المليونية من أصحاب القصور والضياع والمنتجعات السياحية والطائرات الخاصة والسيارات الفارهة والممتلكات المنتشرة في كل مكان ويقولون لأنفسهم: "لنا الله في هذا البلد الظالم أهله!!".

لقد تحول كل شيء في حياتنا إلي بيزنس. فمنذ أيام وأنا أتابع في جريدة "الأهرام" التعازي الموجهة إلي السيد/ أحمد عز أمين التنظيم في الحزب الوطني

الديمقراطي بعد وفاة والده عبد العزيز عز فأجد صفحات كاملة مليئة بالمربعات لدرجة أن "الأهرام" – كما تفعل عادة – لجأت إلي إلغاء صفحة الثقافة يوم الثلاثاء 2010/11/9 ويوم الأربعاء، وربما الأيام القادمة، فالسيد/ أحمد عز الآن أهم من كل ثقافة العالم. ومما لفت نظري في هذه التعازي المتواصلة أنها نشرت في اليوم الأول تحت مسمَّي "اللواء عبد العزيز عز"، وفي الأيام التالية أخذت مسمي "الشريف عبد العزيز". ولا أدري هل تهافت المعزون جميعا لتغيير الصفة من "اللواء" إلي "الشريف"؟ أم أنه قد صدر مرسوم إلي جريدة "الأهرام" طلب منهم أن يكتب كل نعي يصل إلي الجريدة بصفة "الشريف"؟ كل شيء في بلادنا الآن جائز. ومعروف أن الفئة النافذة في مصر المحروسة حاليا لا تكتفي بالجاه، والمال، والسلطة، والنفوذ، بل تريد أن تضم إلي ذلك الثقافة والإبداع والعلم والمعرفة وبالتالي الجوائز. وهذه أمور هيّنة جدا. فطالما أن كل شيء يقوم علي مسرحيات مفبركة، وأقوال لا تمت إلي الواقع بصلة، وشعارات مزيفة، فما الذي يمنع من النسبة إلي آل البيت؟ إنها مجرد ورقة تستخرج من أي مكان. وما الذي يمنع من ارتداء أثواب العلماء والمثقفين وذوي المعرفة؟ إن هي إلا أبواق موجودة، والحمد لله، بكثرة في الصحف وأجهزة الإعلام، وأصوات يمكن حشدها في أي مكان وفي أي زمان، والغالبية العظمي من الناس لديها استعداد لإعطاء أصواتها لذوي السلطان وأصحاب النفوذ!!. ألم يحصل الدكتور مصطفي الفقي علي كل جوائز الدولة في العلوم الاجتماعية: التفوق والتقديرية ومبارك؟ مسائل بسيطة جدا!! فأفراد هذا الشعب وخاصة من النخبة لديهم استعداد كامل للوقوف مع صاحب السلطة الغلبان كي يحصل علي كل ما ينقصه بحيث

يكون هناك نوع من التكامل: فلا ينبغي أن يكون صاحب سلطة ونفوذ ولا يأخذ الاعتراف الكامل بمواهبه العلمية والفكرية!.

ماذا يفعل أستاذ الجامعة وهو يعيش وسط هذه الأوضاع المزيفة التي رسخها في مصر المحروسة نظام حسني مبارك؟ وماذا يفعل وهو مطالب بأن يكون حسن المظهر وأن يعيش حياة كريمة علي الأقل؟ وكل هذا في زمن تدنت فيه الأجور إذا قورنت بالأسعار، وهو مثل أي مواطن في هذا البلد يبحث عن موطئ قدم. إنه لابد أن يبحث مثلما يبحث الآخرون عن فرصة عمل في الخارج. ومعروف أن كثيراً من المصريين، خلال العقود الأخيرة، بعضهم ترك مصر نهائيا واستقر في بلاد المهجر في أمريكا وكندا واستراليا وأوربا، وغيرها، وبعضهم سافر إلي دول الخليج والدول العربية الأخرى للعمل، بل إني أعرف فلاحين من قريتنا تركوا أسرهم وسافروا إلي العراق وأقاموا هناك وفضلوا عدم العودة. وهناك شخص كنت أعرفه أيام الطفولة ترك زوجته وأولاده وذهب إلي السعودية أولا ثم انتقل إلي العراق، ولم يعد إطلاقا وهو الفلاح الصرف، بل إنه أخذ أحد أبنائه معه، ولأن امرأته سيدة فاضلة فقد أصيبت بالعمى بسبب الضغوط التي عاشت فيها.

هذه هي حالة الكثير من المصريين في العهد الميمون للسيد/ حسني مبارك. ولاشك أني واحد من المصريين.. بعت بعض ما تركه لي أبي في القرية كي أحصل علي شقة في القاهرة. كان ثمنها في ذلك الوقت في منطقة مصر الجديدة ثمانية وعشرين ألف جنيه، دفعت مقدما سبعة آلاف جنيه وعليِّ أن أقسط الباقي بطريقة الديون المركبة. والحياة كالعادة في مصر أعلي من الدخل بكثير، وبالتالي لابد من السفر وبما أني متخصص في اللغة الإسبانية وآدابها فلابد أن أبحث عن جامعة عربية بها كلية للغات والترجمة وتضم قسم إسباني.

لم أجد هذا إلا في الجماهيرية الليبية. كنا نعرف أن الحياة في ليبيا أسوأ من مصر، ولكن لابد من المغامرة. جهزت أوراقي للعمل في كلية اللغات والترجمة جامعة قاريونس في بنغازي، وجاء موعد السفر في سبتمبر **1990**. سافرت بالطائرة ونزلنا في مطار بنغازي. كان المطار عبارة عن صالة واحدة تقريبا، والتجهيزات في عمومها لا تختلف عن محطة نقل بري عادية جدا. ولعل هذه كانت أول مفاجأة لي. حجزت لنا الجامعة في أفخم فندق بمدينة بنغازي وهو القصر الذي كان يقيم فيه الملك إدريس السنوسي آخر ملوك ليبيا ويطل علي البحر المتوسط. تكفلت الجامعة بالحجز فقط لكن الإقامة كانت علي حسابنا وكان سعر الإقامة في هذا الفندق يلتهم نصف الراتب تقريبا أو سوف يلتهمه لأننا لن نصرف شيئا إلا بعد ثلاثة شهور من وصولنا. وكانت هذه مفاجأة أخري فالرواتب في ليبيا يتحكم فيها العقيد معمر القذافي وحده، وهو يقيم في خيمته في مدينة سرت، وعندما يوقع علي الرواتب تصرف.. وتتفاوت حظوظ الناس في هذا: فمدرسو الإعدادي والثانوي يمكن أن يصرفوا أول راتب لهم بعد وصولهم وتسلمهم العمل بسنة أو سنة ونصف، ولذلك فإنهم لابد أن يتصرفوا من أجل أن يعيشوا، حيث يقترضون بعضهم من بعض أو ترسل لهم الأموال من مصر لحين ميسرة، أما أساتذة الجامعة فإنهم يصرفون مرتباتهم كل ثلاثة شهور تقريبا، ولأن الفندق يعرف ذلك كانوا يصبرون علينا.

فكرنا في تغيير الفندق والانتقال إلي آخر أقل في السعر ولكننا سمعنا أن نزلاء الفنادق الأدنى في الدرجة يتعرضون لمشاكل لا حصر لها من بينها أن تسلب أمتعتهم أو يتعرضوا للأذى أو غير ذلك. فالنظام في ليبيا لا يهمه الأفراد بقدر ما يهمه استقرار الأوضاع. وأذكر أني لم يعجبني تأخر الرواتب

بهذه الطريقة فتوجهت إلي مقر إدارة الجامعة، وتحدثت إلي الموظفة المسئولة، وكانت فتاة حديثة التخرج، ليبية طبعا، وقلت لها: كيف نعيش هكذا بدون رواتب؟ فقالت لي: إننا نعطيكم مبلغا مقدما لتعيشوا منه.. كان هذا المبلغ – علي ما أذكر الآن مائة دينار أو أكثر قليلا.. المهم أن هذا الحوار لم يعجب الموظفة المتكبرة، فنقلته إلي أحد رؤسائها الذي استدعاني وقال لي: لماذا تكلم الموظفة بهذه الطريقة؟ أحسست أن الليبيين يتعاملون معنا وكأننا قادمون للارتزاق لا أكثر ولا أقل. وفي تلك اللحظة جاءني الصلادم – كعادته – وقال لي:

- لماذا تحس بالأسي من الليبيين. أليس نظامكم هو الذي وضعكم في هذا المأزق؟
- بلي، ولكن المفروض أن يعلم الناس في العالم العربي أن الفترة النفطية سوف تنتهي قريبا، وأن كل شيء سوف يعود لأصله.
- ولكنكم في العالم العربي لا تعانون فقط من مثل هذه الأمور، بل تعانون من كل شيء.
- هذا صحيح، ولكني لم أتصور أن هناك بلدا في العالم العربي أسوأ من مصر. وها هي الأيام تثبت لي أننا في مصر مازلنا بخير.
- وهل هذا رأيك الآن؟
- نعم، أيها الصلادم، من الواضح أن العالم العربي في حالة انهيار كامل علي الرغم من الثروة النفطية. لكن الثروة ليست هي كل شيء، فالمهم هو توظيف هذه الثروة لصالح

الإنسان وراحته ونموه، صحيح هناك فرق بين توظيف الثروة في ليبيا مثلا وتوظيفها في دول الخليج، ولكن الأوضاع لا تختلف كثيرا: فالعالم العربي مازال كما هو غارقا في الدكتاتورية والاستبداد والفساد والطائفية والمشاكل والأزمات التي ليس لها حلول.

تركني الصلادم ومضي وهو يردد: سوف تكتشف في الجماهيرية الليبية أوضاعا لم تكن تتصور أن تراها في أي يوم من الأيام!.

كنا مجموعة من الأساتذة المصريين من جامعات مختلفة وتخصصات مختلفة: العلوم والهندسة والزراعة واللغات والتربية الرياضية والآداب وغيرها. تركنا جميعا البلد وجئنا في إعارة للعمل بجامعة قاريونس، واضطررنا للإقامة بالفندق مع أنه كان من المقرر أن نتزل في مدينة جامعية بنيت حديثا من أجل أساتذة الجامعة، ولكننا علمنا أن اللجان الثورية استولت عليها قبل وصولنا بشهر تقريبا. وهذا وضع طبيعي في ليبيا، فاللجان الثورية من حقها أن تستولي علي أي مكان والدولة تتيح لها ذلك، وبذلك فإن هذه المدينة الجامعية التي بنيت للأساتذة أصبحت سكنا للعامة. ومن ثم كان علينا أن نتصرف فنقيم في هذا الفندق وندفع نصف الراتب عندما نقبضه. والمصريون في مثل هذه الأحوال يتصرفون. ولذلك تصرفنا وأخذ كل اثنين منا حجرة مزدوجة، وجاء نصيبي مع أحد الأساتذة من جامعة إقليمية. كان رجلا طيبا علي المستوي الخلقي، لكنه كان يتمتع بصفتين لم أجدهما في شخص قبله أو بعده هما: وضع سبابته في فتحتي منخريه بشكل دائم تقريبا طالما أنه جالس وليس هناك شيء يشغله. وقد استطعت أن أجعله يتخلي عن هذه العادة السيئة بسبب كثرة النقد الذي كنت أوجهه له، فضلا عن الاشمئزاز الشديد. كان يفعل ذلك في

الحجرة، ويفعله ونحن جالسون في مدخل الفندق، وقد حمدت الله أنه اقتنع بأن يتوقف عن هذه العادة. أما العادة الأخرى التي لا تقل سوءا فهي أنه كان يعطي لنفسه الحق الكامل في الضراط بصوت عال جدا، وكان يحتشد لذلك احتشادا ويسعد سعادة غامرة عندما تأتيه الضرطة فيطلقها في الهواء وكأنه يحتفل بإطلاق الرصاص في أحد الأفراح علي نحو ما يحدث في الأفراح في المناطق الشعبية في بلادنا. قلت له ذات مرة: لماذا لا تحول هذا الضراط إلي فساء؟ فقال لي: إنه لا يحب تزييف الأشياء!!. ذكرت له فتوى مفتي الجمهورية الأسبق التي تقول: "ولو حمل علي ظهره قربة فساء هل تنقض وضوءه أم لا؟" وكان الجواب: "إنها لا تنقض الوضوء"، فقلت له إنك تستطيع أن تحمل علي ظهرك قربة، وتملأها فساء بدلا من هذا الضراط الذي يفشي أسرارك. لكنه لم يقتنع أبدا فقررت أن أبلغ الزملاء بذلك. لم يؤثر فيه شيئا معرفة الزملاء المصريين، فقررت أن أتحدث أمام الليبيين. وهنا فقط اقتنع بأن يمتنع عن الضراط خوفا من أن يشي به الزملاء الليبيون فلا تجدد إعارته. وكان شديد الحرص علي تجديد الإعارة، علي الرغم من أن العائد منها لم يكن يستأهل كل هذا الحرص.

وفيما عدا هاتين العادتين السيئتين اللتين أبطلتهما عنده تقريبا، كان هذا الزميل الذي يشاركني في الحجرة مريحا جدا. كنا نتجول في شوارع بنغازي، ونسير علي شاطئ البحر المتوسط من أمام الفندق وإلي مسافات أخري. ولم يكن يعيب هذا الشاطئ إلا شيء واحد هو أن الصرف الصحي للمدينة كان يصب في البحر ولذلك كانت تكثر النفايات فوق المياه، والأشياء القذرة. وكنا نتغاضى عن كل هذا رغبة في الاستمتاع بهذا الجو الذي يشبه الجو في الاسكندرية. كان هذا الزميل مريحا أيضا فيما يتعلق بالأكل والشرب.. فنظرا

لضعف الراتب، ولأننا سوف ندفع منه مبلغا كبيرا للفندق كنا نكتفي في الغداء بشراء سندوتشات شاورمة من المحلات السورية المنتشرة في بنغازي، وفي الإفطار والعشاء يمكن أن نذهب إلي محل فول وطعمية، وإن كنا قد امتنعنا عن ذلك بعد أن اكتشفنا أن نصف الطبق تقريبا من السوس الأسمر الكبير. قلنا لأنفسنا لابد وأن الطعمية هي الأخرى كذلك.

وذات يوم فكرنا في أن نشتري لحمة ونشويها علي الفحم، وكانت بنغازي مليئة بالشوايات التي يقف عليها شخص سوداني أو من أي جنسية أخرى. اشترينا نصف كيلو لحمة فقط، وذلك لأن اللحوم والأسماك كانت غالية بالنسبة لنا. أخذنا نصف الكيلو وأعطيناه للشواء ووقفنا ننتظر نضوج اللحم ونحن سعداء جدا لأننا منذ فترة طويلة لم نتناول اللحوم، اللهم إلا علي صورة الشاورما. لكننا كنا مدهوشين من أن الشواء بعد أن قارب اللحم علي النضوج كان يأخذ القطع جميعها ويدخل بها في ركن داخل المبني، ثم يعود بها مرة أخرى ليضعها علي الشواية.. وعندما سلمنا الشواء اللحم اكتشفنا أنه نقص النصف بالتمام والكمال. لم نتفوه بكلمة، وماذا نقول؟ وأخذنا ربع الكيلو وذهبنا إلي الفندق، وكنا قد اشترينا بعض المأكولات الأخرى.. وهكذا قضينا يوما من أيام بنغازي. ولا شك أن هذه هي أصعب فترة في حياتي فيما يتعلق بالأكل: لم أشهدها عندما كنت طالبا في الثانوي وكان الشيخ مصطفي الزبال يذهب ليشتري لنا البلح الصيص، لكن الأكل بشكل عام كان أفضل مقارنة بهذه الأيام في ليبيا ونحن أساتذة بالجامعة. وعندما كنت طالبا بالجامعة في القاهرة كنا نتناول الفطور والغداء بمدينة البعوث الإسلامية، وكان ممتازا وفي إسبانيا أكلنا كل خيرات الأرض: لحوما وأسماكا وفواكه وغير ذلك. الآن نحن في ليبيا نعاني من شظف العيش معاناة شديدة ولو كان الأمر بيدي

لرجعت إلي مصر من أول شهر، ولكن الذي حدث هو أن الفندق كان يعد علينا ليالي الإقامة، والرواتب لن تصل إلا بعد ثلاثة أشهر. وهكذا أضيف إلي القهر الذي نعاني منه في مصر قهر أشد وأقسي لا يمكنك أن تفلت منه بسهولة، وبالتالي ما عليك إلا أن تصبر.. كان هذا بالنسبة لي علي الأقل، أما زميلي – فكما قلت – كان يرتب لقضاء سنوات في ليبيا أيا كانت الظروف والأحوال.. "ولله في خلقه شئون يصرفها".

المدة التي أصابنا فيها بعض الانتعاش في بنغازي جاءت عندما حضر إلي في فندق "قصر الجزيرة" ذات يوم شخص ذكر لي أنه ألف رواية عن العقيد معمر القذافي ويريد أن أقرأها وأكتب لها مقدمة وأراجعها من الناحية النحوية والأسلوبية. قلت له: كل ما أستطيعه هو أن أراجعها لك نحويا فقط، وهذا من أجلك وحدك، أما غير ذلك فلا. كان الشخص يحمل جنسية سورية ويتردد كثيرا علي ليبيا ومن الواضح أنه كان مدعوما من جانب اللجان الشعبية. ألح عليَّ كثيرا لكتابة مقدمة وألمح إلي أشياء سوف تكون في صالحي، كأن يعطوني سكنا بدلا من الإقامة في هذا الفندق وغير ذلك، لكني أصررت علي الرفض، ولذلك اكتفي بأن أراجعها له نحويا.. ويبدو أنه في هذه الفترة كان يريد أن يقنعني بأن كتابة المقدمة لن تكلفني شيئا وأني في المقابل سوف أجني ثمرات طيبة، لذلك كان يأتي إلي ومعه فطيرة كبيرة محشوة بالمكسرات، كنا نمر علي المحل الذي يصنعها وننظر إليها نظرة العاجز المسكين، لأننا لا نقدر علي شراء هذا النوع من الفطير المعمول بالسمن البلدي والمليئ بالمكسرات. كنا إذا فكرنا في شراء فطير نتوجه إلي الفطائر الرخيصة التي تناسب أمثالنا من أصحاب الدخول المحدودة. وكانت محلات الفطائر في بنغازي تذكرني دائما بمحلات السمك في طنطا التي كنا نمر عليها في شارع

السكة الجديدة المقابل للمسجد الأحمدي ونحن ذاهبون إلي المعهد. كانت محلات كثيرة وفيها السمك أشكالا وألوانا: من البلطي المقلي في الزيت، وثعابين السمك المعلقة بطرق تجعل اللعاب يسيل، والأسماك الكبيرة من أنواع مختلفة، وكنا ننظر إلي هذه المحلات ونكتفي بقراءة اللوحات التي نحفظها عن ظهر قلب. ومازلت أذكر إلي الآن محلا كان يعلق هذه اليافطة "أسماك علي كيفك"، وقد ظللنا لفترة طويلة نعتقد أن الأسماك مضافة إلي صاحب المحل المسمي "علي كيفك"، ونقول لأنفسنا إن صاحب هذا المحل اسمه غريب جدا، إلي أن اكتشفنا بعد سنوات أن "علي كيفك " ليس اسما للرجل وإنما هو تعبير عامي معناه "تعجبك". طبعا لم نأكل هذه الأسماك في ذلك الوقت أبدا حتى نقول إنها أعجبتنا أم لم تعجبنا.

وكنا في بعض الأحيان نتلمظ إذا كان هناك فرح وجاء الأهل لشراء النحاس من الشارع القريب من مسجد السيد البدوي، وكانوا في العادة يتناولون الغداء في أحد المحلات المعروفة ومنها محلات الأسماك، لكن هذا لم يحدث أبدا لأن الأهل كانوا يأخذون ابنهم وحده فقط ليتغذي معهم، أما زملاؤه فيمكن أن يحضروا لهم عند العودة فولا وطعمية لا أكثر ولا أقل، وهم بذلك يؤدون الواجب، ولا يطلب منهم أحد أكثر من هذا.

ولا شك أن زميلي في فندق "قصر الجزيرة" قد سعد سعادة غامرة بهذه الفطائر بالمكسرات والتي لم ير مثلها في حياته، وكان عندما يراني داخلا بالفطيرة يرقص، ويود لو أطلق أكثر من ضرطة تعبر عن الفرح والسرور والابتهاج، وكان يرجوني دائما أن أكتب مقدمة للرواية مؤكدا لي أن هذه المقدمة سوف ترفعنا من طبقة في الحضيض إلي طبقة أعلي، وأنهم سوف يعطوننا سكنا وعندئذ نشتري الخضروات الطازجة والمواد الغذائية ونطبخ في

البيت، بل إنهم قد يضموننا إلي اللجان الثورية فنحصل علي مميزات لم نحلم بها قط، ولكني كنت مصرا علي الرفض، وكان هو يعجب من أمري ويري أني لم أخلق للهيصة والمتعة والفرفشة، بل إنه كان يصمني بأني وش فقر.

لم يكن هذا الزميل يعرف أني منذ نعومة أظفاري وأنا أكره الأنظمة الدكتاتورية لأنها تقضي علي الشعوب قضاء مبرما. فما زلت أذكر وأنا طالب في معهد طنطا الثانوي أن نشرت مجلة منبر الإسلام ملحقا تحت عنوان "رأي الدين في إخوان الشياطين"، وكان ذلك بعد الضربة الثانية للإخوان في عهد عبد الناصر والتي أعدم فيها سيد قطب. استأت كثيرا من هذا الملحق واحتفظت به دليلا علي النفاق البشع الذي يمارس في مجتمعاتنا حتى من جانب رجال الدين الذين يفترض فيهم أنهم مثل القضاة يحملون رسالة مهمة. ويجب ألا يتزلقوا إلي النفاق مثل باقي الناس. ليس معني ذلك أني كنت إخوانيا أو متعاطفا مع الإخوان، ولكن منطلقاتي كانت ومازالت إنسانية حضارية نابعة من قيم الإسلام نفسه ومتأثرة بكل ما حدث من تقدم وجوانب إيجابية في تاريخ البشرية مثل الحرية والعدالة والديمقراطية بمفهومها الحديث وحق الإنسان في التعبير عن نفسه بكل الطرق والوسائل طالما لم يلجأ إلي العنف أو الإرهاب والتخريب. أما مسايرة الحاكم ومنافقته لأنه أراد ضرب هذا التيار أو ذاك فهذا هو الظلام الذي جعل حياتنا في انهيار وتدهور مستمر. لم يكن لرجال الدين في ذلك الوقت موقف نقدي حازم تجاه ما يحدث، وكان الكبار كالعهد بهم دائما يباركون كل ما يصدر عن النظام ولذلك استسلموا للدعايات الصحفية الكاذبة، والإعلام المزيف، ولم يناقشوا الأمور في إطار حرية الفكر وحق كل الناس في أن يعلنوا عن أنفسهم بالطريقة التي يرونها صالحة. ولا شك أنه قد مرت منذ ذلك الوقت إلي الآن عقود طويلة ومازالت

أوضاعنا كما هي، لم يتغير شيء علي الإطلاق بل ازدادت سوءاً. وأنا كما قلت لا أتفق مع أفكار الإخوان المسلمين، وأكره تذبذبهم ونفعيتهم ولكني مستعد أن أدافع عن حقهم في التعبير مثل أي فئة من فئات المجتمع، ونجاحهم أو فشلهم في النهاية سوف يعود عليهم هم. وإني أتمثل دائما مقولة المفكر الفرنسي فولتير: "إني أختلف معك ولكني مستعد أن أبذل نفسي في سبيل أن تعبر عن رأيك بحرية".

أتممت مراجعة الرواية نحويا، وألح علي المؤلف أن يكتب اسمي علي الغلاف كمراجع فحذرته من ذلك قائلا: لو فعلت هذا فسوف أرفع عليك قضية. وهكذا انتهت المراجعة، وانتهت فترة النغنغة وأكل الفطير المحشو بالمكسرات، وعدنا مرة أخري إلي ساندوتشات الشاورمة والأكل الطياري.

كنا نمضي في شوارع بنغازي نقرأ الشعارات الكثيرة الملصقة علي الجدران، وفي الأماكن العامة، والساحات، ووسائل المواصلات. ومن بين هذه الشعارات: الفاتح أبداً، دام الفاتح أبدا، السلطة والثروة والسلاح بيد الشعب، اللجان في كل مكان، لا ثوري بدون فقه ثوري، لا ثوري خارج اللجان الثورية، التمثيل تدجيل، الديمقراطية ديموكراسي (أي الديمقراطية تؤدي إلي ديمومة الكراسي)، البيت لساكنه، السيارة لقائدها، في الحاجة تكمن الحرية، إن الأجراء مهما تحسنت أجورهم هم نوع من العبيد، لا ديمقراطية بدون مؤتمرات شعبية، الجماهيرية ميلاد أمة وانبعاث شعب، الفاتح ثورة الإنسان في كل مكان، من تحزب خان، لا حرية لشعب يأكل من وراء حدوده، شركاء لا أجراء، القومية هي أساس بقاء الأمم، المجد للجماهيرية العظمي، ثورة الفاتح ثورة كل العرب، تحية لمحطم الأغلال والسجون".

ذكرتني هذه الشعارات بفيلم عبد المنعم مدبولي وعادل إمام "إحنا بتوع الأتوبيس". كان عبد المنعم مدبولي يعيش في شقة يمر عليها عادل إمام عند نزوله أو صعوده، وكان مدبولي يعرف أن هذا الولد يعمل مخبرا، ولذلك لكي يباعد عن نفسه أي اتهام اشتري مجموعة من اللوحات مكتوب بها شعارات ووضعها في مكان بارز من الشقة بحيث يراها هذا المخبر عندما يكون الباب مفتوحا، ومن هذه الشعارات: "الاشتراكية كفاية وعدل، ونموت ويحيا الوطن".. الخ. وذات مرة كان مدبولي ينتظر الأتوبيس مع عدد كبير من الناس، وتأخر الأتوبيس جدا، فكان المخبر يعلن عن تململه واستيائه فيرد عليه مدبولي بأن الانتظار له فوائد.. الخ. ومع كل هذه الحيطة والحذر اقتيد كل من كان بالأتوبيس إلي الحجز بسبب معركة نشبت بين السائق وأحد الركاب، وكان معهم في التخشيبة عدد آخر من أصحاب السوابق أو المقبوض عليهم في جرائم خاصة، وكان ركاب الأتوبيس يعلنون عن أنفسهم دائما بأنهم اقتيدوا إلي الحجز دون أن يرتكبوا جرائم، ولكن لم يكن أحد يسمع لهم وظلوا في الحجز فترة إلي أن تم الإفراج عنهم.

فهل تغيرت أوضاعنا عن الفترة التي مثل أثناءها هذا الفيلم؟ كلا، فمواعيد الحافلات زادت سوءا بل لم يعد هناك مواعيد علي الإطلاق لأن المشرفين يعرفون أن المسافة التي يقدر لها ساعة أو أقل يمكن أن تأخذ ساعتين أو أكثر، فالطرق متوقفة تماما أو شبه متوقفة. فكيف يمكن الالتزام بمواعيد؟

في كلية اللغات والترجمة بجامعة قاريونس بدأت العمل في اليوم التالي ليوم الوصول. تقع الكلية في منطقة صحراوية تتناثر فيها الأشجار، وهي جزء من كلية الآداب. وكانت مفاجأة لنا أن عميد الكلية طالب دراسات عليا، وهذا شيء طيب لأنه – حسب المعمول به هناك – يمكن أن يكون طالبا في

مرحلة الليسانس. أما رئيس الجامعة فكان أيضا طالبا بكلية الهندسة، بالسنة الثالثة علي ما أذكر واسمه الذي مازلت أحفظه هو محمد عز الدين الحسناوى. وهناك رئيس آخر يختص بشئون الأساتذة فقط ولذلك يختار من بينهم. كان الرئيس الطالب هو المسئول الفعلي للجامعة، وكنا عندما نسأل عن ذلك ونبدى بعض الدهشة يقال لنا إن قرارات اللجان الشعبية هي التي أجازت أن يكون رئيس الجامعة طالبا، وكذلك العميد، وكل المسئولين، فهذه هي الجماهيرية، أي أن تكون السلطة في يد الجماهير، وكانت الشعارات الموجودة في كل مكان والمنصوص عليها في "الكتاب الأخضر" تعزز هذا الفعل وتمنحه المشروعية الثورية. طبعا كنا نبدي بعض الدهشة فقط، وإلا عرضت نفسك وعرضت الشخص الليبي المسئول للمساءلة. وأذكر أني ذات مرة كنت في مقر مجلة أدبية ثقافية تصدر من ليبيا، ونسيت نفسي وتحدثت عن فعل حدث في المملكة الأردنية آنذاك ينم عن روح ديمقراطية ويعطي بعض الأمل في خروج المجتمع العربي من دائرة الظلام المطبق، فوجدت الإخوة الذين كنت في ضيافتهم يتبارون في القول بأن الديمقراطية الحقيقية لا توجد إلا في الجماهيرية الليبية، إنها ديمقراطية الجماهير، واللجان الثورة صاحبة السلطة الأولي والأخيرة في هذا البلد الذي سبق العالم بمراحل طويلة، والعالم مازالت أمامه أشواط واسعة عليه أن يقطعها قبل أن يصل إلي مرحلة الجماهيرية!!. استمعت صامتا لهذه الحملة الدفاعية ولم أعلق بكلمة واحدة، وتعلمت من تلك اللحظة ألا أتناقش مع أحد حتى لا أسبب له مشكلات هو غني عنها.

انتظمت الدراسة وكانت هناك حافلات صغيرة تنقلنا من الفندق إلي الكلية، ومن الكلية إلي الفندق. ولم يكن ثمة شيء نعاني منه في هذه العملية الروتينية اليومية. لكن جو بنغازي كان ينقلب مرتين أسبوعيا تقريبا، فيتحول

من الصفاء المدهش والنسيم العليل واعتدال المناخ إلي عاصفة رملية صفراء يبدو وكأنها قد حملت كل رمال الصحراء وألقت بها علي رأس بنغازي، وفي هذه الحالة تكاد تنعدم الرؤية فنمضي في الطريق من الجامعة إلي الفندق علي مهل شديد خوفا من حدوث تصادم، وتنقشع العاصفة مع قدوم الليل وترحل كي تعد نفسها ليوم جديد تنطلق فيه مثلما ينطلق مارد جبار من قمقمه. سارت أمورنا علي هذا النحو: صباحا في الكليات وفي المساء في الفندق، نجلس في المدخل أو في الشرفة المطلة علي البحر وكانت واسعة جدا وتتحمل جلوس أعداد كبيرة، وبعضنا كان يترك الفندق ويمضي في شوارع بنغازي يتأمل الشعارات ويمر علي المحلات، ويتناول بعض المأكولات التي تتناسب مع دخولنا المحدودة التى يفترض أن ندخر منها مبلغا نبرر به هذه الغربة بعيدا عن الزوجة والأولاد والأهل. وأذكر أن المبلغ الذي ادخرته خلال هذا العام الجامعي **90-1991** الذي قضيته في بنغازي لم يتجاوز عشرين ألف جنيه، علي الرغم من أني لم أكن أرسل مبالغ شهرية للأسرة، لأن الرواتب لا تأتي بصورة منتظمة.

ولا شك أن ضيق المعيشة في بني غازي كان يدفعنا إلي أن نأخذ الحافلات ونسافر إلي مصر في أيام العطلات. كانت الرحلة شاقة جدا ومتعبة لكنها كانت تمثل مخرجا مهما لنا. فعندما نصل إلي السلوم علي الحدود المصرية الليبية نتناول أكلة كباب محترمة في أول مطعم يقابلنا وكأننا نمسح مئات الساندوتشات الشاورمة التي عشنا عليها طوال الفترة الماضية، ثم إننا نتنفس هواء مختلفا وننسي الحوارات التي كانت تدور بيننا حول الرواتب، وهل وقع العقيد الشيك أم لا؟ وهل وصل الشيك إلي سرت؟ ومتى يتم توقيعه؟ أسئلة لا حصر لها يتداولها المصريون فيما بينهم. كنا نعاني علي الحدود

المصرية الليبية في الذهاب وفي العودة، فقد نقضي يوما كاملا أمام نقطة التفتيش، وكل واحد وحظه، والمسألة في النهاية مرتبطة بسائق الحافلة فإذا كان ولداً "مخلصاتي" يمكنه إنهاء الأوراق بسرعة وإلا جلسنا ننتظر لفترة طويلة ندعو الله أن يسهل لنا أمورنا ويسبب الأسباب للخروج من هذا المكان والانطلاق في فضاء الحرية. وبالإضافة إلي هذه "العطلة" علي الحدود كان يمكن أن تحدث أشياء أخري أثناء الطريق فنتوقف لمدة طويلة، وذلك مثلما حدث ذات مرة داخل الأراضي الليبية عندما انفجر أحد إطارات الحافلة ولم يكن مع السائق إطار احتياطي، ولذلك اضطر أن يأخذ الإطار المنفجر ويذهب إلي إحدي المحطات لإصلاحه، ولم تكن هناك محطة قريبة فبقينا اليوم كله في الصحراء نقتات ببعض ما معنا من ساندوتشات ونحمد الله أننا في مثل هذا الموقف الحرج أفضل بكثير من المسجونين في مصر يحلمون بالسفر إلي الخارج بعد أن صارت الحياة في مصر جحيما لا يطاق.

كانت وقفاتنا الطويلة علي الحدود الليبية/ المصرية، وقد خبرتها أربع مرات أو خمسا خلال أقل من عام، تذكرني بما حدث لي وأن طالب في إسبانيا علي الحدود الإسبانية/ المغربية. انطلقت والأسرة ذات مرة في أوائل الثمانينيات من مدريد إلي جنوب شبة الجزيرة، وكانت الرحلة بالسيارة. زرنا بعض مدن الأندلس مثل قرطبة وإشبيلية وغرناطة، ثم توجهنا إلي ساحل مالقة حيث توقفنا أياما عند بعض الشواطئ. توجهنا بعد ذلك إلي الجزيرة الخضراء، وهي الآن مدينة كبيرة، ومن هناك ركبنا المركب إلي مدينة سبتة التى كانت ومازالت تابعة لإسبانيا، شحنا السيارة معنا علي المركب، ونزلنا علي شاطئ سبتة، وبعد أن قضينا يوما في هذه المدينة الجميلة المنظمة التي أعلنتها الحكومة الإسبانية منطقة حرة انطلقنا إلي الحدود. لم نمكث في نقطة الحدود الإسبانية

أكثر من خمس دقائق، وانتهت الإجراءات بسرعة الصاروخ، فتصورنا أن ذلك سوف يحدث عند نقطة الحدود المغربية، لكننا كنا واهمين فقد بقينا عند هذه النقطة يوما كاملا، لدرجة أننا لم نغادرها إلا عند منتصف الليل متوجهين إلي مدينة تطوان. الفروق بين البلدان تظهر دائما علي نقاط الحدود. فلأن الإنسان الآن في العالم الغربي مواطن تسهل له كل الإجراءات بسرعة فائقة، والموظفون أو العاملون في نقطة الحدود لا ينتظرون شيئا من أحد، ولذلك لا يتلكئون أو يختلقون المبررات الكاذبة إلي أن تفهم وتدفع المعلوم. إنك تنهي كل الإجراءات في دقائق معدودة ثم تمضي في طريقك. أما في نقاط الحدود العربية فالإنسان العربي متهم دائما، والفوضى ضاربة أطنابها في كل مكان، والموظف المسئول لديه جشع ونهم ورغبة في تعذيب الآخرين.

لاحظ الصلادم أني أكتب هذا الكلام وأنا في حالة انفعال شديد فجاء مسرعا، ربما لتهدئتي ، وقال لي:

- الصبر مفتاح الفرج!
- لم يعد في القوس منزع، أيها الصلادم، لقد فقد الإنسان العربي أعصابه من طول المعاناة: معاناة علي الحدود، ومعاناة في الداخل، ومعاناة في كل شيء، وكأنما مكتوب علينا أن نظل هكذا إلي الأبد.
- هذا ما فعلتموه بأنفسكم، فأنتم شعوب خانعة، مستكينة، مستسلمة، ولذلك فإنكم مهضومو الحقوق. لقد بلغ بكم الحال أن أصبح ذوو الأمر عندكم يستمتعون وحدهم بكل شيء؛ يعيشون في بذخ لا مثيل له، ويوزعون ما يفيض منهم علي الحاشية والأتباع والفنانين والفنانات وأصحاب

الحظوظ، فالبعض يحصلون علي الأراضي، أو يشترون أصول الشركات والمصانع المباعة بتراب الفلوس، والفنانون والفنانات يطلبون في الحوار التليفزيوني أكثر من عشرين ألف جنيه أو دولار بينما المثقف أو العالم يطلب منه كل شيء مجانا وكأنه مطالب بأن يصرف علي القنوات التي لا حصر لها. وكباركم أيضا عندما يتحركون في الشارع يقفل الشارع بحيث يتحركون وحدهم. والأمن لا هم له إلا أن يوفر لهذه النخبة الحاكمة الراحة الكاملة. بل إن نجوم المجتمع الآن صاروا يتحركون في طائرات خاصة، بل ويحجون ويؤدون العمرة بهذه الطائرات.

- نعم، أيها الصلادم. لقد قرأت في جريدة "الأهرام" اليوم (السبت 7 من ذي الحجة **1431** هـ الموافق **13** نوفمبر **2010**م) هذا الخبر الذي جاء تحت عنوان: "9 طائرات خاصة وسيلة المشاهير لأداء الحج السريع". وكتب تحت العنوان ما يلي: "أقلعت أمس من مطار القاهرة تسع طائرات خاصة نقلت علي متنها **150** راكبا من حجاج الحج السريع الفاخر إلي المدينة المنورة قبل ساعات من غلق المطارات السعودية أمام حاملي تأشيرات الحج. وكان من أبرز المسافرين الشيخ خالد الجندي، والمذيع عمرو الليثي، والشيخ الحبيب علي الجعفري، والممثل أحمد عز، وسامح الترجمان، ومحمد بن حسام أبو الفتوح، وعدد من كبار رجال الأعمال".

- هذا يعني يا عزيزي، أن الرأسمالية كلها أمة واحدة. ومن العجيب أن شعوبكم المتخلفة لا تدرك ذلك، ولا تعرف أن هؤلاء جميعا يبيعون الأوهام للفقراء، لا فرق في ذلك بين رجل دين فصيح اللسان، ورجل أعمال يخرج من أمواله زكاة للفقراء، ومذيع يهتم بقضايا الفقراء أو ممثل يقوم بتمثيل دور شخص فقير في فيلم من أفلام المناطق العشوائية. أهم شيء عند هؤلاء جميعا هو أن تستمر الأوضاع كما هي عليه: نسبة كبيرة تحت خط الفقر، ونسبة أخري أكبر تعيش بالكاد، وقلة قليلة جدا تحظي بكل متع الحياة. وهذا هو الوضع الذي تعيشون فيه الآن، ومطلوب أن تستمروا فيه إلي الأبد. ولذلك ضاع الدكتور محمد البرادعي بينكم ولم يجد له مكانا لأنه رجل صادق ويريد أن تصلح الأوضاع بحيث ينال كل مواطن حقه في البلد.
- أريد أن أوضح لك، أيها الصلادم، أننا لسنا ضد الأغنياء، ولسنا ضد أن يذهبوا إلي الحج في طائرات خاصة، ولكننا بالتأكيد ضد أن يعيش غالبية الناس في أوضاع مزرية، فحق الحياة للجميع مسألة أكدت عليها الأديان والدساتير وحقوق الإنسان. مشكلتنا أيها الصلادم أننا فقدنا الإحساس بأي شيء ولم نعد نميز بين هذا وذاك. بل إننا راضون بكل ما يحدث لنا، راضون بأن يضحك علينا هذا الشيخ أو ذاك بأقوال حفظها حفظا وكسب من ورائها

الملايين، راضون بأن نكون هدفا للمعاناة والمخابرات التي لم تعد تستهدف إلا الحفاظ علي مصالح الطبقة العليا.

- فعلا، كانت المخابرات فيما سبق تضع مصلحة الوطن ضمن أهدافها، والآن لم يعد لها من هدف إلا ما أشرت إليه. بل إن نظامكم الآن لم يعد في حاجة إلي توظيف أفراد معينين للعمل في مجال التخابر، وإنما لجأ إلي وسيلة أنجح وأقوي وهي أن يُختار كبار المسئولين بحيث يتحقق فيهم شرط أن يكونوا هم أنفسهم مخبرين. وهؤلاء يمسكون مقشة عالية الجودة مجهزة بأحدث المخترعات الحديثة المستوردة يكنسون بها كل من لا يكون مؤهلا للانخراط في سلك الانهزام والطاعة المطلقة والاستسلام. ولذلك لم يعد النظام الآن في حاجة إلي مخبر صغير، علي النحو الذي رأيناه في فيلم "احنا بتوع الأتوبيس" يراقب الناس ويقدم تقارير عنهم، لأن هؤلاء الناس صاروا مراقبين من أعلي، أي من أبراج عالية جدا تكشف كل شيء ولا تُكشف هي لأنها محكمة جدا ومزودة بكل ما أوتي الإنسان من قدرة علي التخابر وجمع المعلومات. ولذلك فإن المسئول الأعلى يُزيح المسئول الذي لا يحمل المواصفات المطلوبة عند ظهور أي فرصة تتيح له ذلك.. تقدم أمني رهيب لاشك في ذلك. ومن العجيب أن هذا هو التقدم الوحيد الذي قطعنا فيه أشواطا كبيرة إلي الأمام.

انسحب الصلادم وتركني أعود إلي الجماهيرية العربية الليبية لأحكي مشهدا لو لم نكن نعيش في عالم الإنس لقلت إنه من صنع عالم واقعي سحري

أقرب إلي عالم الجن منه إلي عالم الإنس. ففي أوائل شهر مارس **1991** دعانا عميد الكلية الطالب إلي اجتماع لمجلس الكلية. كنت أنا أكبر واحد في هذا المجلس من حيث الدرجة (أستاذ مساعد). وبدأ العميد الطالب يتكلم فقال إنه فكر في الأمر كثيرا ووجد أن كلية اللغات والترجمة لا مجال لها في الجماهيرية الليبية لأن هناك أشياء أهم. وافقه الجميع علي هذا الكلام ورأيت أني لابد وأن آخذ الأمر بالسخرية المناسبة، فقلت: أنا أيضا أري أن هذه الكلية لا مجال لها في جامعتنا (جامعة قاريونس) وأننا في حالة إلغائها لن نخسر شيئا، ويمكن لجميع الأخوة العاملين هنا أن ينتقلوا للعمل في كلية الآداب. وافق الجميع علي الإلغاء بمن فيهم العميد الطالب وكتبنا قراراً بذلك ليرفع إلي رئيس الجامعة الطالب. وفعلا ألغيت الكلية وانتقلنا لقضاء الفترة الباقية من العام في كلية الآداب، وكان من نصيبي أن أقوم بتدريس مواد النحو والصرف والعروض. وكان زميلي في حجرة الفندق يحاول إرضاء الليبيين كي يجددوا له للعام القادم، أما أنا فقد عزمت علي عدم التجديد، ولذلك كنت أعاملهم بجفاء شديد لكي لا يجددوا لي وأقع في حرج شديد وبالفعل وصلتهم الرسالة وأنهوا عقدي في نهاية العام الدراسي.

سافرت إلي مصر بالطريق البري كالعادة، وكانت لي مستحقات في ليبيا فعدت في أتوبيس أخذته من طنطا، وكان تابعا لشركة سياحية إقليمية وخلال هذه الرحلة تعبت كثيرا من كراسي الأتوبيس التى كانت منحدرة من الأمام والجلوس عليها نوع من التعذيب، لكني في تلك الفترة كنت قد تجاوزت سن الأربعين بقليل فلم أصب بأذى. ولعل القارئ يسأل لماذا كنت أتحمل متاعب السفر البري ولا أسافر بالطائرة؟ ولا شك أن لذلك قصة تستحق أن تروي. ففي أول رحلة فكرت القيام بها من الجماهيرية إلي مصر حجزت في الطائرة، وقمت بتأكيد الحجز كما كان يحدث في ذلك الوقت. وفي يوم السفر

توجهت إلي المطار ومعي زميلي في حجرة الفندق. وجدنا صالة المطار الصغيرة مليئة بالناس إلي درجة يصعب معها أن تجد مكانا للوقوف أو تجد طريقا لشحن الأمتعة وعمل الإجراءات الخاصة بالسفر. كان زميلي أكثر جرأة مني فمشي علي رءوس الناس حتى وصل إلي الكونتر وتصورت أنه حصل علي كارت الصعود للطائرة فإذا به يعود خالي الوفاض. قالوا له: ليس لك مكان. وصلت أنا أيضا بطريقتي الخاصة إلي "الكونتر" فأبلغوني بأني لا مكان لي. قلت لهم: كيف ذلك وأنا حاجز ومؤكد للحجز؟ فأشاح الموظف بوجهه عني صلفا وتكبرا ولم يرد عليَّ. وتصور أن تعيش في مجتمع كل الموظفين فيه يعاملونك بهذه الطريقة: كنا نجد ذلك في مكاتب البريد، والهاتف، والمكاتب الحكومية. فأهل البلد ينظرون إليك علي أنك رجل أزرقي، جئت تقتطع منهم بعض دخولهم!!.

وبالطبع غادرنا مطار بنغازي وعدنا نحجز في المواصلات البرية، ولم نعد إلي المطار مرة أخري. ولا أتصور أني سعدت في حياتي بالعودة إلي مصر إلا عندما عدت نهائيا من الجماهيرية الليبية. فمصر أفضل بكثير علي الرغم من المعاناة وتردي مستويات المعيشة، وزحمة المواصلات، وكثرة التزييف، والنفاق، والشللية، والبغضاء.. الخ. كل هذا يمكن تحمله لكن تحمل الحياة في الجماهيرية الليبية فوق طاقة البشر. ولا أدري هل تحسنت الأوضاع الآن أم لا، ولكن الذي أنا موقن به هو أن العالم العربي خلال النصف الثاني من القرن العشرين وحتى نهاية هذا العام **2010** لم يتغير في شيء، ويبدو أنه سوف يظل كذلك إلي فترة طويلة قادمة طالما أن هذه الشعوب في حالة موات، وظلام، وانهيار، وعدم وعي، لاسيما وأنها لا تمتلك الإرادة الكافية للخروج من هذه الأوضاع البائسة.

الفصل العاشر

المثقفون والسلطة

- مسيو هانوتو وزير خارجية فرنسا للإمام محمد عبده: "وأنا أعرف أن أمثال هذه الحقائق يجرحكم ذكرها، ولكن قد حان لكم ألا يعميكم غرضكم عن الحقيقة ولو أنها خارجة من فم أجنبي ما دام كُتَّابكم لا يقولونها فقط بل يكذبونها، كأني بهم يساعدون الظالمين من حكامكم علي ما يأتونه من المغارم والمظالم، فكان ذنبهم نحو وطنهم أعظم من ذنب الحكام الظالمين".

(الإمام محمد عبده، "الإسلام بين العلم والمدنية")

- "..ونتج كذلك عن ارتفاع المستوي العلمي الأول شدة الإحساس بحقيقة الخير والشر، والمعروف والمنكر، فما تقع خطيئة من مستبد إلا لحقتها صيحات الناقدين بالشكاية والفضيحة، فكان المظلوم يحظي بالعطف والمواساة، وكان الظالم مزريا عليه باللسان إذا عز تأديبه بالسنان. وقد أطبق الليل علي الإسلام والمسلمين بأسدافه الحالكة يوم غاضت منابع العلم وخفتت أصوات النقدة، ودرست سبيل الدعوة إلي الله، ويوم أمست الصحائف التى تمثل الثقافة العامة لهذا الدين وأهله مزيجا من الأقوال الفارغة، والآراء التافهة، والتقليد الأعمى، والألفاظ الجوفاء حتى أشبهت كتب المسلمين في العصور الأخيرة كتب السحر عند اليهود الأقدمين التي قال الله فيها: ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم، ولقد علموا لمن اشتراه ما له في الآخرة من خلاق، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون".

(محمد الغزالي، "الإسلام والاستبداد السياسي")

- ظلت بنما ما يربو علي نصف قرن تحكمها حكومة الأقلية المكونة من العائلات الثرية التى تربطها علاقات وثيقة مع واشنطن. كانوا يمثلون دكتاتورية الجناح اليميني الذين يتبنون أي معايير يرونها ضرورية للتأكد من أن بلادهم تشجع مصالح الولايات المتحدة الأمريكية.. دعموا كذلك وكالة المخابرات المركزية الأمريكية "CIA" ووكالة الأمن القومي الأمريكي "NSA"، كما ساعدوا شركات التجارة الأمريكية الضخمة مثل استاندرد أويل للبترول التي يمتلكها روكفلر، وشركة الفواكه المتحدة يونيتد فروت (التي باعها جورج بوش)..الخ".

(جون بركنز، "الاغتيال الاقتصادي للأمم")

المثقفون ورجال الفكر، في معظم المجتمعات، لهم دور في التغبير وإزاحة الأنظمة الدكتاتورية المستبدة، والنهوض بالبلاد، بل إن الطلاب – وهم في عنفوان قوتهم الجسدية والنفسية والحياتية – يمكن أن يكون لهم إسهام واضح في التغيير. وقد حدث هذا في إندونيسيا خلال العقود الأخيرة. ويبدو أننا أصبحنا حالة استثنائية بالنسبة للعالم. فالمياه عندنا صارت راكدة تماما، بل إنها قد تعفنت من طول هذا الركود، ومع ذلك تجد الأوضاع تمضي طبيعية جدا، والناس تعودت علي المعاناة والخلل والبؤس والصعوبات في كل شيء: في الصحة والتعليم وطرق المعيشة لدرجة أن الناس يمكن أن يموتوا في طوابير الخبز أو أنابيب الغاز أو غير ذلك، ويبدو هذا أمراً طبيعيا جدا، بل إنهم قد ألفوه ألفة تجعلهم يحنون إليه لو حدث أي تغير في الوضع. وهم يعانون أيضا في الحصول علي مياه الشرب النظيفة في القرى ومعظم المدن، ومع ذلك تراهم قانعين، مستسلمين، يطلبون من الحكومة أن تنظر إليهم بعين العطف لا أكثر ولا أقل، وبالطبع فإن أمثال هؤلاء الذين يحكموننا الآن ليس من سجاياهم أن يمنحوا أي اهتمام لهذه الفئات المطحونة، علي الرغم من كثرة التصريحات الإعلامية فاقدة المعني من أن الأولوية عندهم لمحدودي الدخل. أيضا تعود الناس علي أن تطلع أرواحهم في المواصلات. وطلوع الروح هنا ينقسم الآن إلي قسمين: الغالبية العظمي من الناس الذين يركبون المواصلات العامة والميكروباصات والتوك توك، وهؤلاء يُحشرون حشرا داخل المركبة بل يمكن أن يتشعبط اثنان أو أكثر علي السلم، وقد ذكرت من قبل أننا في مرحلة الستينيات كنا نُحشر عشرين فردا تقريبا داخل سيارة أجرة تتسع فقط لسبعة أفراد بمن فيهم السائق.

فهل تغير الوضع منذ الستينيات إلي الآن؟ أعتقد أنه زاد سوءا، لأننا وصلنا إلي حالة الموت المجاني يوميا في الميكروباصات التي يسمي سائقوها أنفسهم "عفاريت الأسفلت". وإذا كان الناس يموتون في العراق يوميا بفعل العمليات الإرهابية فإن الناس عندنا تموت يوميا علي الأسفلت بسبب رعونة السائقين الذين يقودون عربات النقل والميكروباص وغيرهما. وإذا كان هذا يحدث في بلدنا فإنك عندما تذهب إلي الخارج تفكر في ركوب مواصلة عامة (حافلة) كي تستمتع بالمناظر الجميلة التى تراها وأنت راكب مرتاح مع عدد قليل من الركاب في حافلة جديدة نظيفة تسير بأحدث أساليب التكنولوجيا. وقد علمت أن في بعض البلاد الأوربية الآن حافلات تنخفض ليركب الناس ثم ترتفع لتمضي في الطريق. كل هذا يحدث في العالم ونحن مازلنا نتشعبط كي نركب الميكروباص! فهل حكومتنا الرشيدة ليس لديها أموال لتحسين الخدمات؟ أعتقد أن لديهم أموالا كثيرة جدا لكنهم يصرفونها فقط علي الأرصفة في بعض المناطق الراقية. فتجد الرصيف، في مصر الجديدة مثلا، قد سُوِّى وعُدِّل وتم إصلاحه، وبعد ذلك بستة أشهر تقريبا يهدمونه ليسووه من جديد. وعادة ما أسأل نفسي: من الذي يمتلك احتكار صناعة طوب الأرصفة؟! لأن هذا التغيير المتواصل للأرصفة من المؤكد أن وراءه شيئا غامضاً لا نفهمه نحن، ولا يمكن أن يجيب عن السؤال إلا واحد من السادة المسئولين الذين يعتبرون هذه البلاد ملكية خاصة لهم.

الصنف الثاني من الناس هم أصحاب السيارات الخاصة، وهذه كانت ميزة فيما سبق، لكن نظام حسني مبارك آلي علي نفسه أن يضمهم إلي صفوف المعاناة. فلم تعد السيارة الخاصة ميزة لأنها يمكن أن تصيبك بأمراض الضغط والقلب وانهيار الأعصاب وخاصة في المدينة المسماة "القاهرة

الكبرى"، هذه المدينة التى توسعت بشكل عشوائي، مثل كل شئون حياتنا، وصار المشي فيها بالسيارة الخاصة عبئا لا يطاق. فأنت عندما تنطلق من منطقة شيراتون مثلا قد تجد الطرق مقفولة من كل الجهات، ولو حدث العكس ووجدتها مفتوحة يمكن أن تتوقف لمدة طويلة في العباسية أو علي كوبري السادس من اكتوبر، بل إنك في الطريق من الزمالك إلي المحور يمكن أن تمكث أكثر من ساعتين. وهناك أمر آخر فقد يتصادف خروجك مع توجه السيد الرئيس إلي منطقة ما، وهنا قد تقضي ثلاث ساعات في الطريق لأنك سوف تجد كل الطرق مغلقة. وقل مثل ذلك أو أقل قليلا فيما يتصل بأي مسئول آخر.. وهكذا أصبحت البلد مفتوحة لهم فقط، وكل هذا بفعل التدبيرات الأمنية التى هي أساس كل شيء في حياتنا الآن.

ومع كل هذا لا تجد أحدا يشكو أو يري في هذه المعاناة شيئا غير طبيعي، فهذا الشعب لطول تعوده علي المعاناة يري أن كل شيء أمر هين جدا، ولا يستحق أن ننفعل من أجله. ولذلك تجد سائقي السيارات الخاصة والعامة عندما يقفل عليهم الطريق يقفون صاغرين مستسلمين لمدة قد تزيد علي ساعة أو ساعتين إلي أن ينتهي المسئول الكبير من وضع إكليل الزهور علي قبر السادات وقبر الجندي المجهول، وبعضهم يطفئون محرك السيارة ويقفون إلي جوارها انتظاراً لما تسفر عنه الأمور، ولو حدث أن اقتربت من أي واحد منهم وحاولت أن تبدي تذمرك كي يشترك معك في الكلام تراه ينظر إليك نظرة متعجبة كأنك تخترق المألوف والمباح، أو تتعدي علي الحقوق والأعراف. والعرف في هذه البلاد المنكوبة هو أن الراحة كل الراحة حق للمسئول الكبير، والتعب كل التعب من نصيب المواطن الذي لا يشترك في المسئولية وليس أحد الأعضاء الكبار في الحزب الوطني الديمقراطي.

ومعروف أن مصر باتت قريبة جدا من الدول الفاشلة. ففي تقرير نشرته منذ فترة مجلة "السياسة الخارجية" الأمريكية ويضم **177** دولة جاءت **35** دولة ملونة باللون الأحمر للدلالة علي أن هذه الدول دخلت في المنطقة الحرجة تصدرها الصومال (المركز الأول) والسودان (لا أذكر هل هو المركز الثاني أو الثالث) والعراق (المركز الخامس). وهناك دول فيها ديمقراطية حقيقية مثل باكستان والمكسيك، لكن النظامين اللذين يحكمان الآن في هاتين الدولتين ورثا دولة فاشلة، بسبب الحكام السابقين في باكستان وآخرهم برويز مشرف، وفي المكسيك بسبب الحزب الذي ظل يحكم هناك لمدة سبعين عاما متواصلا إلي أن أجريت انتخابات نزيهة في أوائل الألفية الثالثة وأزيح هذا الحزب عن الحكم لكنه ترك دولة فاشلة مؤسساتها منهارة، والقانون غائب عنها حتى عمت فيها الرشوة والفساد والتسيب وعدم الكفاءة. ولا شك أن النظام الجديد محتاج إلي سنوات طويلة حتى تخرج المكسيك من نطاق الدولة الفاشلة. أليس هذا هو ما وصلنا إليه في عهد حسني مبارك الممتدّ؟!. لقد أصبحنا قاب قوسين من الدخول في مرحلة الفشل، وحسب التقرير المذكور فإن مصر تحتل الترتيب رقم **40**، أي أنها يمكن أن تتحول إلي دولة فاشلة تماما في غضون سنوات قليلة إذا استمر حسني مبارك يحكم مصر أو ورَّث الحكم لابنه ومعهما أصحاب المصالح ممن يطلقون علي أنفسهم زوراً وبهتانا "أعضاء الحزب الوطني الديمقراطي".

وأريد أن أوضح هنا أن هذا التقرير الذي تصدره مجلة " **Foreign Policy**" يقوم علي مؤشرات ومعايير من بينها مستوي الفقر، وغياب المساواة، وتدخل دول خارجية في شئون الدولة، وعدم وجود تنمية، والزيادة في عدد السكان، وسوء توزيعهم، والميراث العدائي بين القبائل والأعراف

والطوائف، والحركة السلبية للهجرات، وغيبة القانون، والتخلف الأخلاقي وغير ذلك من مؤشرات تصب جميعها في الأوضاع العامة للبلد. ولاشك أننا – بحمد الله – نمتلك كل هذه المؤشرات وأكثر منها، وأننا مؤهلون للدخول في مرحلة الخطر.

ومما لا شك فيه أن رجال الفكر والثقافة يناط بهم الدور الأهم في خروج أي بلد من أزماته ومشاكله الطاحنة. حدث هذا في أمريكا اللاتينية، وقد تحدثت عما فعله كتابها ومثقفوها في فصل سابق. الآن أتحدث عن إسبانيا وما فعله الكتاب والمثقفون حتى صارت دولة ديمقراطية حقيقية. ومعروف أن إسبانيا تعرضت لأزمة حادة عندما فقدت آخر مستعمراتها فيما وراء البحار وهي كوبا وبورتوريكو والفلبين عام **1898**. وهذا الحدث الكارثي جعل المثقفين ينهضون للبحث في أسباب التخلف والانهيار، ومن ثم ظهر جيل سمي جيل **98** تركزت أعمال أعضائه – في جزء كبير منها – حول هذا الموضوع. ضم هذا الجيل أسماء كبيرة مثل ميجيل دي أونامونو، وآثورين، وبيو باروخا، وأنطونيو ماتشادو وغيرهم، وقد شغلتهم إسبانيا بوصفها وطنا وهوية وحضارة، وكان هدفهم الأول هو أن تخرج إسبانيا من أزمتها وتقف في صف واحد مع باقي دول أوربا. وكان جيل **98** قد سبق بفئتين من الكتاب كل فئة منها تطالب بالإصلاح، وهما:

1- الكتاب الواقعيون، أي كتاب الرواية الواقعية في القرن التاسع عشر ومن أبرزهم ليوبولدو آلاس (كلارين)، وبينيتو بيريث جالدوس. والثاني كتب روايات كثيرة بعضها عن تاريخ إسبانيا أو بالأحرى مستلهم من تاريخ إسبانيا مثل "الأحداث القومية" التى تجاوزت أربعين مجلدا. وكانت

العودة لاستلهام التاريخ عند جالدوس نوعا من إحياء الروح القومية والتركيز علي المشكلات الجوهرية التى يجب أن تتخطاها إسبانيا لتصبح دولة حديثة ومتقدمة.

2- النوع الثاني من الكتاب هم الكراوسيون (نسبة إلي المفكر الألماني بول كرواس **Kraus**) وبالأخص من أطلقوا علي أنفسهم اسم "الإصلاحيين". وهؤلاء كانوا قد أنشأوا معهد التعليم الحر في الربع الأخير من القرن التاسع عشر. وهذا المعهد لعب دوراً كبيرا في التوعية، وانتسب إليه معظم المثقفين حتى من الأجيال التالية.

والفئتان المذكورتان اجتهدتا في البحث عن حلول لمشاكل إسبانيا. وقد قدم الإصلاحيون مجموعة من الإجراءات السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية استهدفت خروج إسبانيا من دائرة التخلف. وكان الإصلاحيون يستعينون في أبحاثهم بعبارات مجازية مأخوذة من علوم الطب والجراحة مثل "مرض إسبانيا" و"ضرورة التشخيص" و"الوسائل الجراحية الممكنة.. الخ. وكانت أبحاثهم تقوم علي الإحصاءات والملاحظات الدقيقة، وكل هذا نتيجة المكتشفات في مجالات العلوم الطبيعية. وقد أعلنوا رفضهم للنظام السياسي القائم، وطالبوا بما أسموه "سياسة الأمر الواقع" ويعنون بها "الإصلاح الزراعي، والسياسة المائية، ومكافحة الترعة العسكرية، وتحديث التعليم، ودعم طبقات عمال الزراعة والصناعة واللامركزية في الإدارة والسياسة والاجتماع. ويقال إن الإصلاحيين لم يتركوا مشكلة إلا وفحصوها فحصا دقيقا. وجاءت فترة تزامنت فيها كتاباتهم مع كتابة الجيل الجديد (جيل **98**). كتب لوكاس ميادا عن فقدان الأخلاق العامة في كتابه "سيئات الوطن" (**1880**)، وكتب

ريكاردو ماثياس عن حكومة أهل السوء في كتابه "الأوليجاركية والترعة العسكرية للشكل الحالي للحكم في إسبانيا". وكتب خوليو سينادور عام **1915** عن "إسبانيا تحت الأنقاض". أما خواكين كوستا فقد ألقي محاضرة عام **1900** تحت عنوان "من يجب أن يحكم إسبانيا بعد الكارثة" ويقصد بها هزيمة عام **1898**م. وخواكين كوستا يُعد من أبرز الكتاب الإصلاحيين، وكان يري أن الإصلاحات ينبغي أن تأتي من أعلي، ولهذا طالب بأمرين مهمين هما المدرسة ومخازن الطعام. وله في ذلك كلمة تقول: "المدرسة ومخازن الطعام، مخازن الطعام والمدرسة، ولا توجد مفاتيح أخرى قادرة علي فتح الطريق أمام الإصلاح الإسباني". وخواكين كوستا كان يدعو أيضا إلي عدم الزج بالإسبان في مشروعات ومؤسسات وهمية. وهذا الجانب العملي في أفكاره كان يتلاقي مع جانب آخر فكري هو الدعوة إلي التخلص من ماضي إسبانيا، ولهذا طالب بإغلاق مقبرة "السِّيد القمبينطور" بإحكام.

والقمبينطور هو بطل الملحمة الإسبانية المشهورة "ملحمة السِّيد" **Mio Cid** التي تحكي بطولاته وأفعاله ضد الوجود العربي في الأندلس. ولكن هذا التوجه عند خواكين كوستا كان يتعارض مع تيار أقوي يطالب بالبحث عن الجوانب المضيئة في تاريخ إسبانيا، بما في ذلك الوجود العربي نفسه. وقد عُرف عن كوستا أيضا أن شكوكه كانت تتزايد باستمرار حول فعالية النظام البرلماني في إسبانيا، ولعل هذا هو الذي دفعه إلي القول بما أسماه "الجراح الصلب" أي الحاكم المتسلط المستنير صاحب الضمير الوطني اليقظ.

وقد ظلت الأمور تتأزم في إسبانيا حتى أدت إلي نشوب الحرب الأهلية عام **1936**. وقد قتل في بداية هذه الحرب الشاعر الأسطوري جارثيا لوركا. وعندما وضعت الحرب أوزارها عام **1939** كان كثير من الكتاب والمثقفين

الإسبان إما في السجون أو ذهبوا إلي المنفي مختارين أو مجبرين، ومن بقي منهم في إسبانيا كانوا في حالة انعدام وزن لأنهم كانوا يشاهدون البؤس والفاقة والانهيار في كل مكان. وقد سجّل هذا الوضع الروائي كاميلو خوسيه ثيلا (نوبل في الآداب **1989**) في روايته المشهورة "عائلة باسكوال دوراتي" التي قالت عنها الأكاديمية السويدية: "إنها رواية خشنة، فظيعة في بعض المشاهد، وعلي الرغم من فرض الرقابة عليها وتحريمها فقد كان لها صدي غير مسبوق لدرجة أنها تعتبر، بعد" الكيخوته "أكثر رواية مقروءة في الأدب الإسباني". وكان للشعر والمسرح ومختلف الأجناس الأدبية أدوار مشابهة. وظل الشعب الإسباني بكل طوائفه يقاوم الدكتاتورية والاستبداد والرقابة وتزييف الإرادات حتى حصلت إسبانيا علي حقها في الحرية والديمقراطية والعدالة والمساواة باعتلاء الملك خوان كارلوس الأول عرش أسبانيا في نهايات عام **1975** بعد موت الجنرال فرانكو.

فوجئت بالصلادم يأتي بسرعة، ويهبط بجناحيه أمامي ويبادرني قائلا:

- من كلامك عن إسبانيا لاحظت أن المقاومة، والدعوة إلي الإصلاح والنهوض استمرت فترة طويلة جدا لا تقل عن مائة عام إلي أن صارت هذه البلاد تتمتع بديمقراطية حقيقية وتسهم بقوة في صياغة عالم "أوربا الموحدة" بعد أن كان ينظر إليها علي أنها بلاد تقع خارج أوربا وفقا للمقولة المشهورة "إن حدود أوربا الغربية تنتهي عند جبال البرانس".
- كلامك صحيح أيها الصلادم. لقد استمر الكفاح والنضال في إسبانيا لفترة طويلة، لكن ظروف العالم في ذلك الوقت

كانت تؤدي إلي ذلك: اضطرابات في أماكن كثيرة في أوربا وأمريكا، وحرب عالمية أولي، ثم حرب عالمية ثانية. الآن الأوضاع اختلفت تماما. هناك حالة استقرار يعيشها العالم الأول حاليا، ولذلك عندما تمكث في بعض البلدان لفترة تحس أن اهتماماتهم اختلفت كثيرا عن ذي قبل، فقد تشاهد في نشرة الأخبار مثلا تركيزا علي خبر محلي لا يستحق كل الاهتمام الممنوح له.. المشاكل الطاحنة حاليا موجودة في العالمين العربي والإسلامي: حروب، ونزاعات طائفية، وإرهاب، ومجاعات، وفقر، وأنظمة استبدادية، وفساد بلغ الركب، وانهيار في الخدمات والمرافق، ومشاكل في مجالات الصحة والتعليم والضمان الاجتماعي، وغياب شبه كامل للقانون، وفوضي عارمة، وتزييف للحقائق، وتزوير للانتخابات، واستمرار في الحكم، والتوريث، وإعلام مزيف، وانفراد ذوي الضمائر الخربة والنفوس الضعيفة بالقرارات التي تؤثر علي ملايين البشر، واستبعاد أصحاب الرأي والمواقف المشرفة من أي مجال فيه تأثير.. كل هذا وغيره لابد أن يؤدي إلي انهيارات. وهذا ما نراه في العالم العربي والإسلامي، ولا يشذ عن هذا إلا دول قليلة مثل تركيا وماليزيا وإيران علي الرغم من أن الأخيرة مازالت تحتاج إلي إصلاح ديمقراطي أكثر، لكنها وبصرف النظر عن أي شيء أصبحت قوة علمية وعالمية وتكنولوجية يحسب لها ألف حساب. إذن فالدول حاليا يمكن أن تنهض

في غضون سنوات قليلة إذا توفر لها الحكم الصالح حتى ولو كان يحمل بعض الاستبداد. وقد رأينا في فصل سابق كيف استطاع لولا داسيلفا أن ينتشل البرازيل من هوة الفقر خلال ثماني سنوات فقط وأن يحولها إلي قوة عالمية مؤثرة. ويحدث هذا حاليا في كثير من دول أمريكا اللاتينية. إذن فالدول الآن لا تحتاج إلي مئات السنوات كي تنهض، وإنما تكفي سنوات قليلة للنهوض إذا توفرت الإرادة وتوفر الحكم الصالح لاسيما إذا كان ديمقراطية بالمفهوم الذي يطبقه العالم الآن.

- معني ذلك، يا عزيزي، أنه مازال أمامكم سنوات طويلة لكي تخرجوا من دائرة الفقر والتخلف وتردي المواقف الأخلاقية، لأنكم مطالبون أولا بالعمل علي توعية الشعب.
- ليس الشعب فقط، أيها الصلادم، وإنما دعني أكتب عن النخبة المثقفة وعليك أن تتابع ما أكتبه لأني لن يكون لدي وقت للحوار معك. فالحديث عن النخبة يحتاج إلي احتشاد كبير. فانصرف مودعا بالتحية والإكبار، وليس من حقك الآن إلا أن تسألني سؤالا واحداً قبل انصرافك هو: لماذا أنا مهتم بالنخبة المتعلمة والمثقفة كل هذا الاهتمام؟ وأجيبك: تابع ما أقوله تجد فيه رداً علي هذا السؤال.

ولا شك أني منذ أن كنت طالبا في المرحلة الثانوية وأنا أتابع مواقف المثقفين باهتمام شديد. وحتى لا أستدرج في الكلام عن مثقفي النصف الأول من القرن العشرين، وامتداداتهم الممثلة في جيل الخمسينيات والستينيات أقول

بإيجاز شديد إن هذه الأجيال كان لديها وعي شديد بمفهوم النهضة والمفاهيم الأخرى المرتبطة بها مثل الكفاح والنضال والدستور والعدل الاجتماعي والرقي والتقدم.. الخ. ولذلك تجد أن معظمهم كان لديهم اعتقاد جازم بالدور السياسي للمثقف. ولذلك صدرت للدكتور طه حسين بعد وفاته مجلدات تضم مقالاته الصحافية في السياسة والتعليم والاجتماع وغير ذلك. أيضا الدكتور محمد مندور نشر له الكثير من الكتابات السياسية، وكذلك عباس محمود العقاد وغيرهم، وإن كان لا يمكن أن ننسي هنا كتابات الدكتور لويس عوض.

والآن بعد أكثر من ثلاثين عاما من معايشة المثقفين الحاليين وتتبع كتاباتهم وآرائهم وأفعالهم أستطيع أن أقسمهم إلي ثلاثة أقسام:

1- القسم الأول المثقف التابع لنظام الحكم، وهؤلاء هم الغالبية العظمي. وهم في العادة لديهم شره في الحصول علي منافع النظام المادية والمعنوية. والنظام كان لديه الاستعداد الكامل لإشباع حاجاتهم، والعالم العربي أيضا كان لديه رغبة في الاستفادة منهم، ومعروف أن العالم العربي الآن كله ملة واحدة، فكل الدول العربية يهمها أن يكون المثقف خالص الطاعة، يؤيد، ويبرر، ويجمِّل، بل ويكون ملكيا أكثر من الملك نفسه. وهؤلاء كثيرون موجودون في كل مكان، ويكفي أن تلوح لهم بأي شيء حتى يأتوك مهرولين؛ فمصالحهم الشخصية فوق كل مصلحة، وأهدافهم تعلو علي كل الأهداف.

وفي هذا الشأن أذكر واقعة محددة لها دلالة كبيرة: فمعروف أن الأميرة الكويتية الشاعرة سعاد الصباح أنشأت داراً للنشر في القاهرة "دار سعاد الصباح" اختارت للإشراف عليها معظم المسئولين في أجهزة وزارة الثقافة المصرية، وقد كان من الطبيعي جدا أن تتعرض هذه الدار للخسارة المادية.

وقد قرأت في حوار طويل مع صاحبة الدار نشر أيامها أنها اشتكت للرئيس حسني مبارك من أن الدار سرقت فرد عليها بأنها هي المسئولة عن ذلك لأنها هي التي اختارتهم. وبالطبع فإن هذا الرد يعني أمرين: أن وزير الثقافة اختارهم لإدارة أجهزة وزارته وهو يعلم أنهم يمكن أن يقضوا علي كل شيء، لكن هذا بالنسبة لنظام الحكم عندنا هو المطلوب لأن هذه سياسة عامة في كل أجهزة الدولة. الأمر الثاني هو أن الشاعرة سعاد الصبّاح كان ينبغي أن تدقق في الاختيار حتى لا تتعرض مؤسستها للخسارة، لكنها وثقت في موظفي وزارة الثقافة المصرية، ومن ثم بات عليها أن تتحمل المسئولية.

هذه الواقعة تعكس بجلاء ما حدث للثقافة في مصر: ففاروق حسني يختار لإدارة المواقع الثقافية أشخاصا تتحقق فيهم شروط محددة، من أهمها الطاعة الكاملة، وغض البصر بمعني أن يكون لدي الشخص استعداد للتفويت، والالتزام بسياسة المهرجانات الشكلية حيث تقام احتفاليات يصرف عليها الآلاف بل الملايين ويدعي إليها المئات من كل أنحاء العالم وذلك من أجل التصوير والانتشار الإعلامي الذي يقتصر علي الجلسة الافتتاحية التى يحضرها الوزير أو من يقوم مقامه. ومن الشروط أيضا أن يكون الشخص واجهة يمكن تسويقها، بالإضافة إلي الشروط الأمنية المطلوب توفرها في أي موظف عمومي في عهد حسني مبارك. ولكي يكون كلامي دقيقا أقول: ليس كل من اختارهم فاروق حسني تتحقق فيهم هذه الصفات، فهناك أشخاص فضلاء والناس تعرفهم بالطبع، لكن المشكلة هي أن غالبية المختارين كانوا علي النحو الذي شرحناه، ولهذا لاحظ الناس أن فاروق حسني ليس في جعبته إلا عدد قليل من الأشخاص يعدون علي الأصابع يحركهم مثل قطع الشطرنج في كل مواقع وزارة الثقافة، وكأن مصر خلت من المثقفين العاملين أصحاب

الهمم القوية والرؤى السديدة. والذي يعرفه الناس الآن أن بعض من اختارهم فاروق حسني يقضون عقوبة السجن أو قضوها مثل محمد فودة وأيمن عبد المنعم، وكثيرون فشلوا في إدارة مواقعهم.. وهلم جرا. وما يتناقله المثقفون في جلساهم الخاصة كثير جدا ويدل علي الإهمال والفساد والتسيب في وزارة الثقافة التي يتربع علي عرشها فاروق حسني منذ ثلاثة وعشرين عاما. ومما يجعل الإنسان يفطس من الضحك أن هذا الوزير الأبدي يُعد حاليا لمؤتمر المثقفين، وقد دعي المثقفون – ومن بينهم العبد لله – إلي حضور جلسة تمهيدية عقدت في المسرح الكبير بدار الأوبرا، وبالطبع لم أحضر ها ولكني علمت أن جمهوراً غفيراً من الكتاب شارك فيها.. وهذه هي الأغلبية المطيعة التى يراهن عليها الحكم الدكتاتوري، فكل واحد منهم مشارك إما بالتواطؤ أو الصمت أو وفقا لمنطق الرّغبة أو الرهبة. وهذه هي الأزمة الكبرى للثقافة والمثقفين في مجتمعاتنا المغلوبة علي أمرها.

وإذا كان فاروق حسني يختار العاملين معه وفقا للشروط التى ذكرها فإن هؤلاء العاملين بدورهم يختارون معاونيهم بنفس الطريقة. وفي هذا الشأن أذكر أنه صدر لي قرار وزاري بالإشراف علي إصدار "المشروع القومي للترجمة" ضمن لجنة كانت تضم الأستاذين: طلعت الشايب ود. عماد أبو غازي، بُلغت بأن هذا الإشراف سوف يكون صوريا لتستيف الأوراق فقط كما هو الحال في كل الإدارات الحكومية التي يتحكم في كل منها فرد واحد، لكن لابد أن تأخذ القرارات الشكل القانوني. قبلت بهذا الشرط رغبة في الاكتشاف فقط، لاسيما وأنه ليس هناك أي مقابل مادي لنا، لأننا لن نفعل أكثر من التوقيع علي تقرير يقول إن الكتاب صالح للنشر. مرت الأمور هكذا لفترة غير قصيرة، وكانت الأجور محددة: 6 قروش للكلمة بالنسبة

للمترجم و30% أو 50% بالنسبة للمراجع. لم تواجهني أية مشكلة طوال هذه الفترة، ولكن الكتاب الأخير الذي يحمل رقم ألف جاء ومعه مشكلة كبيرة: فالمترجم هو الدكتور نعيم عطية ومحدد له أجر عشرة آلاف جنيه، والمراجع هو إدوار الخراط ومحدد له أجر خمسون ألف جنيه. تصورت في البداية أن هناك خطأ يتمثل في صفر زائد، وإلا فكيف يأخذ الأستاذ إدوار الخراط خمسة وأربعين ألفا زيادة عن أجره؟ قالوا لي: هذا هو أجره الفعلي وليس هناك خطأ. رفضت التوقيع قائلا: سوف أتحدث مع الدكتور جابر عصفور في هذا. وقابلت الدكتور جابر فقال لي: وقع وثق فيَّ. قلت له: الواقع الذي أمامي يمنعني من التوقيع. وبالطبع قام الدكتور جابر عصفور بوصفه المسئول الأعلى بالتوقيع، وقبض إدوار الخراط المبلغ، وصدر قرار بإقالتي من اللجنة وجاءوا بشخص آخر يمكن أن يوافق علي أي شيء.

هكذا تدار الأمور في وزارة الثقافة وفي مصر كلها.. كل مسئول يفعل ما يريد بشرط أن تكون الأوراق مستوفاة تماما وتبدو متفقة مع القانون ومنضبطة وعال العال. ولا شك أن هذه السياسة أدت إلي خراب البلد في كل شيء.. فمن هو الشيطان الرجيم الذي اخترع أن يسير كل شيء تحت واجهة قانونية صورية تخفي وراءها فساداً وعفناً واستهانة وتسلطاً وتدميرا؟ ولأن الذين يعارضون ذلك عددهم قليل جدا فإنه من السهل جدا التخلص منهم وسوف تجد آلافا غيرهم لديهم الاستعداد الكامل لعمل ما يطلب منهم.

لم يكتف فاروق حسني بتطبيق هذه السياسة التخريبية في وزارة الثقافة وإنما فعل أشياء أخرى أذكر من بينها تقنينه لعملية دفع الرشاوى للصحافين عيانا بيانا: فهذه الصحافية التى تعمل في الأهرام أو الأخبار أو الجمهورية تعين مستشارا لوزير الثقافة وتقبض في الشهر أربعة عشر ألف جنيه مثلا في مقابل

أن تكون صورة فاروق حسني متصدرة الصفحة التى تشرف عليها يوميا تقريبا. وهذا الشخص يعمل مستشارا لرئيس أحد أجهزة الوزارة وبالتالي تنشر صور رئيس الجهاز بالطبع مع صور الوزير.. لقد جاء فاروق حسني في عهد الفساد فيه يخرج لسانه للناس بلا حياء، ولذلك استغل هذا الوضع خير استغلال إن صح هذا التعبير، وجعل صورته تطل علي الناس يوميا في الصحافة وأجهزة الإعلام الأخرى.. والمثقفون في جلساهم الخاصة يقولون كلاما كثيرا ويشيرون إلي وقائع محددة، ولكنهم – مع فاروق حسني بالذات – لا يجرءون علي فضح ما يحدث ربما أيضا بسبب منطق الرغبة والرهبة. ففاروق حسني يقدم صورة مصغرة لحسني مبارك ولذلك تجد الانسجام بينهما لا مثيل له. فبعد أن فشل فاروق حسني في مهمة اليونسكو بعد أن صرفت الدولة الملايين لدعمه والدعاية له قال له حسني مبارك: "ارم وراء ظهرك". ومن الواضح أن فاروق حسني مستمر في الوزارة رغم كل الكوارث التى حدثت في وزارته، ومن بينها حريق مسرح قصر الثقافة في بني سويف الذي راح ضحيته عدد كبير من أبرز الوجوه الثقافية في مصر.. فاروق حسني مثل صفوت الشريف الذي قال إنه باق في السلطة طالما بقي الرئيس حسني مبارك في الحكم.. وماذا يفعل شعب مصر الغلبان الذي أصبح الحكام يُفرضون عليه فرضا؟!.

وتبحث حولك عن المثقفين الذين ينبغي أن يواجهوا الدكتاتورية والتسلط في وزارة الثقافة أو يواجهوا دكتاتورية النظام فلا تجد إلا أناسا مستأنسين (وأركز مرة أخرى علي أني أعني الغالبية العظمي) لديهم استعداد لمباركة كل شيء في سبيل مصالحهم الخاصة، بل إن بعضهم أسهموا في تلميع صورة أشد المستبدين قسوة وفساداً وإجراما مثل صاحبنا الذي كتب "حراس

البوابة الشرقية" عندما كان صدام حسين يحارب إيران لمصلحة الغرب. والآخرون يكفي أن تلوح لهم برئاسة تحرير مجلة، أو الحصول علي موقع في وزارة الثقافة، أو تقديم جائزة حتى ينسوا كل ما تعلموه عن القيم الثقافية الحقيقية ويبادروا إلي الانبطاح. ولاشك أن المجتمع التى تصل فيه غالبية أفراد النخبة إلي هذا المستوي ليس من السهل أن يخرج من دائرة الاستبداد.

ومما لاشك فيه أن فاروق حسني استغل هذه الروح الانهزامية عند المثقفين لكي يدخل معظمهم في حظيرة وزارة الثقافة. وكان لابد أن يوظف بعضهم للقيام بهذه المهمة، وقد نجح هؤلاء فعلا في تحقيق هذا الهدف الأسمى، ولاسيما وأن بعضهم يمتلك رؤية عجيبة عن الثقافة. وسوف آخذ مثالا واحدا فقط ينطبق علي كثيرين وهو الدكتور جابر عصفور. فهو مثقف كبير، ولا يشك أحد في هذا، لكن رؤيته للثقافة في غاية الغرابة: فهو – علي سبيل المثال – يجمع بين أمرين بينهما تناقض شديد هما: الجمع بين الدعوة إلي التنوير وبين خدمة الأنظمة الاستبدادية، ولذلك كتب كثيرا عن التنوير، ومن أعماله "هوامش علي دفتر التنوير" و"أنوار العقل" و"آفاق العصر" و"ضد التعصب" و"الرهان علي المستقبل" و"نقد ثقافة التخلف". وكان يمكن أن تكون لهذه الأعمال الكثيرة في التنوير آثار طيبة جدا، ولكن الناس لم تأخذها علي محمل الجد لأنها مثل البيت القائم علي عمود واحد، وبالتالي لابد أن ينهار. فجابر عصفور في هذه الأعمال التنويرية ينطبق عليه المثل الفلاحي الذي يقول: "ترك الحمار وعمل شاطر علي البرذعة". فجابر عصفور يحارب كائنا وهميا صنعته الأنظمة الدكتاتورية لضمان استمرارها في الحكم، وهذا الكائن الوهمي لم يكن موجودا في مصر أيام أن كان فيها ديمقراطية تعددية قريبة من الديمقراطية بمفهومها الحديث. فهذه الجماعات الظلامية – كما

يصفها جابر عصفور – توحشت وتغولت في عهد النظام الذي مازال إلي الآن يحرص علي خدمته. وآخر مقال قرأته له في جريدة "الأهرام" يوم الاثنين 15 نوفمبر 2010، وهو بداية لسلسة مقالات، عنوانه: "وزارة مظلومة اسمها الثقافة". فهذه الوزارة في تصور جابر عصفور كان يمكن أن تنهض بالمجتمع لو لم تكن الوزارات الأخرى حريصة علي هدم ما تبنيه وكأن وزارة الثقافة بمنأي عن نظام الحكم الشمولي الفاسد الذي جعل كل شيء ينهار. وجابر عصفور يتصور أن المشروع القومي للترجمة كان يمكن أن يقلب المجتمع من الظلام إلي أنوار العقل. وهذا الموقف يذكرني بقعدة في بيتي بالرياض أثناء فترة عملي بجامعة الملك سعود في التسعينيات، وكان المجلس يضم عدداً من الأدباء المصريين الذين يعملون بالرياض. وأحضر أحدهم مجلة "الأدب الإسلامي"، وكانت دهشتنا كبيرة عندما علق عليها أحد الأدباء الحاضرين بقوله: "إن هذه المجلة يمكن أن تزيح الأنظمة العربية كلها". كانت بالطبع نكتة ساذجة جدا جعلت الجميع يضحكون.

أيضا جابر عصفور يظن أن المشروع القومي للترجمة ومكتبة الأسرة وبعض الأعمال الأخرى التى أنجزها فاروق حسني يمكن أن تغير وجه الحياة في مصر لولا وجود هذا الوحش الشرس المتمثل في الجماعات الظلامية، وبالطبع ينسي جابر عصفور أو يتناسى أن النظام الاستبدادي هو أساس البلاء في هذه البلاد. ويبدو أنه مؤمن جداً بهذه الأنظمة بدليل أنه قبل خلال هذا العام جائزة العقيد معمر القذافي بعد أن رفضها الأديب الإسباني خوان جويتيصولو، ويقال رفضها أيضا، قبيل وفاته المفكر المغربي محمد عابد الجابري. ومما نقل عن جويتيصولو حول أسباب رفضه للجائزة قوله: "إنني

أرفضها لأني أدافع عن الحرية والديمقراطية وحقوق العرب، وبالتالي كيف أقبل هذه الجائزة من حكام مستبدين هم نكبة العرب في الأساس؟!.

إذن يمكن لجابر عصفور أن يصدر هذا العدد الكبير من الكتب عن التنوير، ولعله يصدر كتبا أخري ولكنها جميعا لن تكون لها قيمة ولن يبقي منها شيء. ومعروف أن الأشياء لا تقاس بالكم وإنما الأهم فيها هو ما تحمل من روح صادقة مخلصة يتلقاها الناس كما يتلقي العطشان كوب ماء في الصحراء. وهذا ما حدث مع كتاب رفاعة الطهطاوي "تخليص الإبريز في تلخيص باريز" وكتب الإمام محمد عبده القليلة عددا الصغيرة حجما، وكتب طه حسين القليلة في هذا المجال، والعقاد، ولويس عوض، ومحمد مندور وغيرهم. أما جابر عصفور فمن الواضح أنه كان ومازال يحارب طواحين الهواء، أو يحارب جناحا صغيرا من أجنحة العفريت في الوقت الذي يتربع فيه علي باقي الأجنحة. ولو سمع الدكتور جابر عصفور ما يدور في الجلسات الخاصة للمثقفين لكف عن السير في هذا النهج منذ فترة طويلة، ولكن الحقيقة التى يمكن أن ننساها هنا أن كل إنسان ميسر لما خلق له.. فهذه الخدمات الكثيرة التى قدمها للنظام الاستبدادي ولوزارة الثقافة ووزيرها ودفاعه المستميت عنه عندما تطفح أخطاؤه جعلتهم ينشئون له خصيصا مركزا للترجمة ينتقل إليه بعد إحالته للتقاعد حتى يستمر موظفا كبيرا في وزارة الثقافة.. فمثله لا يتقاعد!!.

والمثقفون من أمثال الدكتور جابر عصفور يحاولون أن يقنعوا أنفسهم بصحة مواقفهم ولهذا ينسون أو يتناسون الواقع الموضوعي من حولهم. فالجماعات الإسلامية الظلامية – كما يصفونها – ليست هي أساس مشكلتنا، فهي حالة عارضة دخيلة علي الروح الإسلامية الحقيقية، نشأت بسبب

الاستبداد وتسلط الكبار علي الحكم واتخاذ القرار في غيبة شبه كاملة للأجيال الشابة التى من المفترض أن يكون لها دور في إدارة دفة السياسة والحكم. لكن ماذا يفعل الشباب والشيوخ الطاعنون في السن لا يفكرون في ترك الدفة حتى وهم يموتون، وقد رأينا مثالا صارخا لذلك في الأيام الأخيرة. فالمرحوم كمال الشاذلي الذي توفي يوم **2010/11/16** كان يصارع الموت ومع ذلك كان مصرا علي الترشح لمجلس الشعب في دائرة الباجور، ويقال – حسبما قرأنا في الصحف – أنه رفع قضية ضد خصمه الذي قال عنه إنه يعيش أيامه الأخيرة. أيضا الرئيس حسني مبارك حريص علي تأكيد أنه سوف يظل في خدمة هذا البلد حتى آخر نفس في حياته، مع أن أكبر خدمة يقدمها هؤلاء الشيوخ لوطنهم أن يريحوا أنفسهم، فقد شبع الوطن من خدماتهم وبات يحلم بان يعود إلي أحضان الشباب.

كذلك ينسي المثقفون من أمثال الدكتور جابر عصفور ما تنشره المجلات العالمية الآن عن الدكتاتوريين الباقين في دول العالم الثالث، ولو عرف الدكتور جابر ذلك لخصص جزءا من أبحاثه عن التنوير لمقاومة هذه الأنظمة. فقد ذكرت مجلة "فورين بوليسي" في تحقيق نشر في منتصف العام الحالي (**2010**) أنه يوجد في العالم حاليا حوالي تسعة وثلاثين دكتاتورا يتحكمون في رقاب ملياري شخص تقريبا، ويحوِّلون حياقم إلي جحيم لا يطاق وكوارث لا تنتهي. ومن هؤلاء ثلاثة وعشرون طاغية يتحكمون في العالم العربي وأفريقيا. وقد ضمت المجلة الرئيس الكوري الشمالي كيم يونج إيل في صدر القائمة. وجاء رئيس زيمبابوي روبرت موجابي في المركز الثاني، وفي المركز الثالث زعيم بورما ثان شو. وتذكر المجلة سنوات حكم كل من هؤلاء والآثار السيئة التى ترتبت علي وجوده في السلطة، لكني هنا غير معني بهذا ومن يريد

التفصيل يمكنه الرجوع إلي المجلة. أما الرئيس السوداني عمر حسن البشير فقد حصل علي المركز الرابع، والرئيس الإريتري في المركز الخامس.. ويهمنا هنا أن نتوقف فقط عند هؤلاء التالية أسماؤهم وهم الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد (المركز الثامن) والإثيوبي ميليس زيناوي (المركز التاسع) والعقيد معمر القذافى (المركز الحادي عشر) والرئيس السوري بشار الأسد (الثاني عشر) والرئيس المصري حسني مبارك (الخامس عشر)، ومما قالته المجلة عنه أنه أبقي علي قانون الطوارئ لمدة 29عاما، وأن 23% فقط أدلوا بأصواتهم في الانتخابات الرئاسية عام 2005، وأن مبارك يقوم باستبعاد أي شكل من أشكال المعارضة لتوريث السلطة لابنه جمال. ولاشك أن نسبة 23% هي النسبة الصادرة عن وزارة الداخلية لكن من يتابع التصويت عن قرب يعرف أن النسبة لم تتجاوز 3% فقط.

وهكذا يقدم لنا جابر عصفور صورة تنويرية شديدة الغرابة. وأنا في الحقيقة أري في هذا التنوير لونا من استعداء السلطة ضد الجماعات الإسلامية لتبرير القبض عليهم ووضعهم في المعتقلات وفقا لما يقضي به قانون الطوارئ، وزيادة تهميشهم ومنعهم من أن يكون لهم دور في قيادة المجتمع. ولو أن جابر عصفور كان تنويريا حقيقيا لدافع عن حق كل فئات المجتمع في الاشتراك في السلطة، وطالب الدولة بالالتزام بنظام ديمقراطي حقيقي يؤدي إلي فرز كل العيوب مهما تضخمت وبالتالي فإن هذه الجماعات مهما عظم شأنها ومهما حصدت من أصوات سوف تسقط عند أول اختبار لو أن هناك حكما صالحا، ونظاما دستوريا يقوم علي الكفاية والعدل والمساواة وحق كل الأفراد في القيام علي إدارة المجتمع.. أما أن يقوم التنوير علي مهاجمة الجماعات

الإسلامية فقط والاحتماء بجدار السلطة فهذا لا يمكن لأحد أن يأخذه مأخذ الجد، لأنه لا يمكن أن تكون تنويريا وخادما للسلطة المستبدة في آن.

القسمان الباقيان من أقسام المثقفين الثلاثة لن يحتاجا مني إلي كلام كثير، ولهذا سوف أوجز الحديث عنهما فيما يلي:

القسم الثاني: المثقفون الذين يمسكون العصا من المنتصف، وهؤلاء أيضا كثيرون جدا، ويمكن أن نقول عنهم إنهم من أصحاب الوجهين: وجه للنضال، ووجه لمغازلة السلطة. وهؤلاء لا يخشي منهم أحد لأنهم يتمتعون بصفات تجعلهم نجوما وفي الوقت نفسه لا تفسد بينهم وبين السلطة. وأمثال هؤلاء – في رأيي – عبء علي الثقافة وعبء علي المجتمع، وإذا تقدم أحدهم أو رشح لجائزة من جوائز الدولة فإنه يحصل عليها فورا لأن الدولة تطبق مبدأ تأليف النفوس، فلعلهم يدخلون في حظيرة فاروق حسني التى تتسع لدخول الكثيرين.

القسم الثالث أو الفئة الثالثة هم هؤلاء الكتاب الذين يمزجون بين الكتابة ومواجهة النظام المستبد والرغبة الحقيقية في النهوض بهذه البلاد. وهؤلاء عددهم قليل جدا. وهذه هي مأساتنا الكبرى، ولا أدري إلي متى سوف نظل هكذا؟ وعندما يصل هذا البلد إلي مرحلة الفشل ماذا سوف نفعل؟ إن الضمير عندنا في أزمة حقيقية وكان الله في عون هذه الشعوب التي ليس فيها من يقودها إلي الخروج من بحر الظلمات!!.

الفصل الحادى عشر

العمادة والأمن

- "دخلت إلي فراشي تلك الليلة آمنا في رفاهية جناح فاخر في الفندق، وجالت بخاطري صور وأشياء أخرى. في نهاية الأمر قلت لنفسي: أنا هنا لمساعدة أندونيسيا علي الخروج من حيز الاقتصاد المتخلف المنتمي للقرون الوسطي، وأن تأخذ مكانها في عالم الاقتصاد المعاصر. لكنني أدركت أني في الصباح سأري من نافذتي عبر رفاهية حدائق الفندق وحمامات السباحة تلك الأكواخ الحقيرة المنتشرة علي بعد أميال من ذلك المشهد، وأعلم أن فيها رضَّعا يموتون جوعا أو لعدم وجود المياه النقية، ومثلهم أيضا أطفال وراشدون يعانون أمراضا فتاكة ويعيشون فقرا مرعبا"

(جون بركنز، "الاغتيال الاقتصادي للأمم")

- "ما تراه الآن مما تسميه إسلاما فهو ليس بإسلام، وإنما حفظ من أعمال الإسلام صورة الصلاة والصوم والحج، ومن الأقوال قليلا منها حرفت عن معانيها، ووصل الناس بما عرض علي دينهم من البدع والخرافات إلي الجمود الذي ذكرته وعدوه دينا. نعوذ بالله منهم ومما يفترون علي الله ودينه، فكل ما يعاب الآن علي المسلمين ليس من الإسلام، وإنما هو شيء آخر سموه إسلاما، والقرآن شاهد صادق (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) يشهد بأنهم كاذبون، وأنهم عنه لاهون، وعما جاء به معرضون، وسنوفي لك الكلام في مفاسد هذا الجمود ونثبت أنه علة لابد أن تزول"

(الإمام محمد عبده، "الإسلام بين العلم والمدنية")

- "لنفصح عما في ضمائرنا، ولنقلها كلمة صريحة حاسمة: إننا نريد أن نستطعم مذاق الحرية التي نشتهيها، ونبعث أحب الناس إلينا ليدفعوا عنها العدوان، وأن يعيش الوادي كله في ظلال دستور محترم، وقوانين مرعية، وحكام أمناء".

(محمد الغزالي، "الإسلام والاستبداد السياسي")

حكم حسني مبارك مصر بالصدفة، الصدفة التي تصنعها الدكتاتوريات عادة. فقد اختاره أنور السادات ليكون نائبا له، ولم يكن يتصور أنه سوف يموت بسرعة ويصبح نائبه رئيسا للجمهورية. لم يكن حسني مبارك مؤهلا للحكم، ولم يكن في ماضيه التعليمي والمهني ما يرشحه لهذا المنصب الكبير. فالطلاب أيام حسني مبارك وحتي بعد ذلك بفترة طويلة في جيلنا، كانوا يلتحقون بالكليات العسكرية بمجموع 50% أو أقل. ولم يعرف عن حسني مبارك الطالب والمتخرج من كلية الطيران بعد ذلك أنه كان قارئا أو مثقفا، ولم تكن له طموحات أكثر في الترقي في مجال الوظيفة. وقد ذكرت من قبل – بناء علي أخبار ومقابلات قرأناها – أنه بعد حرب اكتوبر 1973 كان يود لو اختير سفيرا لمصر في لندن. ولكنه وجد نفسه فجأة نائبا لرئيس الجمهورية، ثم تطورت الأحداث ليصل إلي عرش الرئاسة.

ومما لا شك فيه من الناحية التكوينية والنفسية أن شخصا بهذه المواصفات لابد أن يكون اعتماده الأساسي علي الأمن. صحيح أن الأمن كان موجودا فيما سبق، ولكنه في عهد حسني مبارك سوف يصبح هو كل شيء، وبالفعل حَّول حسني مبارك البلد إلي كيان أمني خالص. بدأت المسألة بالطبع بالتدريج، لكن السيطرة الأمنية أخذت تكبر شيئا فشيئا حتى صارت غولا يلتهم كل ما بقي في هذا البلد من قيم ومبادئ وأعراف وأخلاق. ولهذا صدرت كتب ترصد ما حدث للمصريين، وكان من الطبيعي أن يحدث هذا، فالمقدمات لابد أن تؤدي إلي نتائج محددة. فبلد يتحكم في أموره كلها الضباط الصغار في أجهزة الأمن ومباحث أمن الدولة لابد أن ينهار، لاسيما إذا كان هذا النهج هو السائد في كل مكان: في دواوين الحكومة، والصحافة، وأجهزة الإعلام، والمناصب الصغيرة والكبيرة، وكل شيء. فأنت – مثلا – إذا كنت

معيدا في كلية جامعية وحصلت علي منحة لن تسافر إلا إذا حصلت علي رخصة أمنية بالسفر تقول إن ملفك ناصع البياض ولا تشوبه شائبة. والشائبة قد تكون بعيدة جدا كأن يجدوا أن أحد أقربائك القدامي كان عضوا في جماعة الإخوان، ولكنها قد تؤدي إلي عدم سفرك أو عدم تعيينك خفيرا في القرية أو غير ذلك. وهذا علي المستوي الأدنى، أما علي المستوى الأعلى كأن تختار رئيس جامعة، أو مفتيا للديار المصرية، أو حتى وزيرا أو رئيسا للوزراء فالملف أيضا لابد أن يكون ناصع البياض وإلا تم استبعادك.

فالأمن، إذن، هو كل شيء في هذا البلد. لكن كل هذه الإجراءات الأمنية – وهذه هي المفارقة العجيبة التي لعب عليها نظام حسني مبارك – يجب أن تظل في طي الكتمان أو في الخلفية لا يدري بها أحد حتى تمضي الأمور وكأنها تسير بشكل طبيعي جدا. فنظام مبارك يقدم نفسه للعالم علي أنه نظام ديمقراطي حر، وهذه الإجراءات الأمنية تتناقض تماما مع ذلك، إذ كيف يحق لبعض المواطنين في المجتمع – وهم هنا رجال الأمن – أن يكونوا عيونا علي باقي المجتمع يمنعون هذا من السفر، ويقفون ضد ذلك، ويطبقون معايير متعسفة علي الناس صغارا كانوا أو كبارا. هذا لا يجوز في الأنظمة التى تدعي أنها ديمقراطية. ولهذا لكي تظل للنظام واجهته الديمقراطية المزيفة التى يتباهي بها داخليا وخارجيا فإن كل هذه الإجراءات الأمنية تكون في الخفاء، والشاطر هو من يكون حريصا علي الكتمان، والكتمان الشديد لدرجة ألا يبوح بشيء لأي فرد مهما كان. وهذا الشاطر بالطبع سوف يترقي في المناصب، وسوف يكون له شأن في الدولة الأمنية البوليسية.

ولاشك أن هذه السياسة الأمنية الخفية، والتي لا يطلع عليها العفاريت أنفسهم قد خلقت مسئولين وهميين: فرئيس الجامعة هو صاحب السعادة

المسئول عن إدارة الجامعة، والمفتي هو صاحب الفضيلة المسئول عن دار الإفتاء، والوزير أو رئيس الوزراء هو صاحب المعالي المسئول عن الوزارة، بل إن شيخ الأزهر يجرى عليه ما يجرى علي بقية المسئولين الذين هم في الأساس أدوات في يد أجهزة الأمن، أو في يد الضابط الصغير (أبونا الذي في المباحث).

ولم يحدث في تاريخ مصر أن استغل شخص ما هذا الوضع في فرض قبضته الحديدية علي البلد مثلما حدث مع حسني مبارك. فقد حول كل شيء إلي ديكور: الأحزاب، والمجالس النيابية، والنقابات وغيرها، وهناك أماكن أبدت مقاومة في البداية لكنها أصيبت بالملل ثم استسلمت بالكامل. والوزراء وكبار المسئولين صاروا مجرد واجهات مزيفة، ومن يبدي منهم أي مقاومة ولو ضعيفة يزاح فورا. ولهذا لم يعد يتحكم في البلد إلا حسني مبارك وأسرته الصغيرة وأعوانه المقربون جدا والذين ليس لهم إلا هدف واحد هو الاستمرار في السلطة والوجاهة وجني الثمار. ولهذا حدثت أشياء جعلت الحليم في هذا البلد حيرانا، وقد ظهرت في الفترة الأخيرة مقالات وكتب وحوارات في كل المجالات تتحدث عما حدث في مصر خلال الثلاثين عاما الأخيرة. ففي مجال الاقتصاد نهبت البنوك، وكانت الملايين تخرج من البنك إثر مكالمة جاءت من أصحاب النفوذ، وكما قال الدكتور عبد الخالق فارو ق (وله كتب كثيرة في الاقتصاد من بينها "جذور الفساد الإداري في مصر") فإن هذه المكالمة كانت تأتي من شخصية فوق مستوي الوزير وبالتالي فوق مستوي رئيس الوزراء. فمن أين كانت تأتي؟!! فكل شيء في هذه الفترة الحالكة من تاريخ مصر يبدو وكأنه صادر من عالم الشياطين. ولهذا بيعت الشركات والمصانع ولا أحد يعرف من الذي باع ومن الذي اشتري. وكنت أتصور أني علي الرغم من

تتبعي لهذه الأمور ربما أكون قد فشلت في الحصول علي المعلومات التي يفترض أن تكون متاحة للجميع، ولكني وجدت الشاعر فاروق جويدة في مقال نشرته "الأهرام" يوم الجمعة 19نوفمبر 2010 تحت عنوان: "لماذا كان البيع.. ولماذا كان الشراء" يربط بين عمليتين من البيع: بيع محلات عمر أفندي لمستثمر سعودي ثم بيعها مرة أخري لمستثمر مصري، وبيع فروع شركة النصر للتصدير والاستيراد في أفريقيا منذ سنوات ثم صدور قرار أخير للحكومة المصرية بافتتاح مراكز تجارية مصرية دائمة في 18 دولة أفريقية مرة واحدة لحساب شركة النصر للتصدير والاستيراد علي أن تبدأ هذه السلسلة من المراكز بالخرطوم مع بداية الشهر المقبل. وما يهمني في هذا المقال هو التساؤلات التي طرحها فاروق جويدة مثل قوله: "حتى الآن لا أحد يعرف لماذا انسحبت مصر من أفريقيا؟ وما هي مبررات هذا الانسحاب؟ ولماذا باعت كل هذه الفروع؟ الشيء المؤكد أن خروج مصر من أفريقيا ترك فراغا شديدا في كل شيء، وكانت هذه هي الفرصة التاريخية أمام إسرائيل لترث الدور المصري ابتداء بالعلاقات الوثيقة جدا مع دول حوض النيل، وانتهاء بفروع الشركات الإسرائيلية في دول غرب أفريقيا، والتي قامت علي أطلال شركة النصر للتصدير والاستيراد. من الذي باع الشركة؟ ومن الذي قام بتصفية فروعها ودورها ورسالتها؟ وما هي أسباب ذلك كله؟ الله أعلم".

ويقول فاروق جويدة أيضا: "علي الوجه الآخر من اللوحة السريالية التي لا يفهمها أحد كانت عمليات التصفية المبكرة لفروع وأنشطة محلات عمر أفندي، لم يكن عمر أفندي من المؤسسات العادية في مصر، فقد ارتبط دائما بأبناء الطبقة المتوسطة"، وقال أيضا: "والآن عاد عمر أفندي إلي المربع رقم واحد حيث يباع الآن لمستثمر مصري آخر. والسؤال الأكثر خبثا هو:

هل هناك طرف عربي آخر يقف بعيدا في الظل سوف يظهر في الوقت المناسب لشراء عمر أفندي علي أساس أن ما يجري الآن مجرد نقل للملكية وتصفية خلافات مع الحكومة والعمال وخروج مستثمر ليحل مكانه طرف ثالث لم يظهر بعد؟. ما يحدث في مصر يجعل الإنسان يشك في نفسه وليس في صراعات ومناورات رأس المال".

وقد نقلت هذه الفقرات من المقال المذكور لأبرهن علي أن النخبة المتخصصة في مصر لا تدري شيئا عما يدور في البلد من سلب ونهب لممتلكات الشعب وبيع بأبخس الأثمان. وقد أرجع فاروق جويدة كل هذا إلي الفساد ولا شيء غير الفساد. وبالطبع لن يسأل الكاتب من الذي صنع هذا الفساد لأنه في هذه الحالة سوف يمنع من الكتابة في "الأهرام" وفي كل الصحف بما في ذلك صحف المعارضة والصحف المستقلة. إنها تحالفات شيطانية لا يسأل عنها إلا حسني مبارك. ولو أننا كنا نعيش في مجتمع ناضج واع لحدث مع حسني مبارك ما حدث مع عتاة الدكتاتوريين في العالم مثل شاه إيران، وصدام حسين، ونيقولاي شاوشيسكو.

إن حسني مبارك لم يبع كل ممتلكات الشعب فقط، وإنما أدخل الشعب كله في حظيرة الأمن مثلما أدخل فاروق حسني المثقفين في حظيرة وزارة الثقافة. صار كل شيء خاضعا للأمن، وصار كل المسئولين الكبار والصغار واجهة مزيفة لرجل الأمن من رتبة ملازم أو رائد، وهذا أيضا نوع من التقزيم الذي استحدثه نظام حسني مبارك، فالموظف مهما علا شأنه لابد أن يقدم فروض الولاء والطاعة لشاب من سن أبنائه وإلا كان غير مؤهل للاستمرار في مكانه، ولهذا تجد المسئولين الكبار حريصين كل الحرص علي توقير هذا الشاب واستقباله بحفاوة شديدة لأنهم يعرفون أن وجودهم في المنصب

وصعودهم إلي رتبة أعلي مرهون بالتقارير التي يكتبها عنهم. وفي هذا الصدد أذكر أني عندما كنت عميدا لكلية اللغات والترجمة توجهت إلي مكتب رئيس الجامعة لأمر مهم، وهناك وجدت اللمبة الحمراء مضاءة وقال لي السكرتير إن رئيس الجامعة عنده زيارة وقد أمر ألا يدخل عليه أحد. قلت له لابد أن أقابله بخصوص موضوع لا أستطيع أن أؤجله للغد، وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية ظهرا. سمح لي السكرتير بالدخول، وكانت المفاجأة المدهشة أن الزائر هو الضابط الصغير المكلف بجامعة الأزهر. مددت له يدي بالتحية فسلم عليَّ وهو جالس علي الكرسي، فقلت في نفسي: لك الحق في أن تتصرف هكذا وأنت تلقي هذا الاحترام الشديد والتبجيل في مكتب رئيس الجامعة. وكان هذا الشخص قد حضر إلي من قبل في مكتبي بالكلية ومعه رئيسه (الرائد) ولكني قابلتهما مثلما أقابل أي زيارة تطلب المقابلة، ومن المؤكد أن انطباعهما عني كان شديد السوء. ومعروف – في عهد حسني مبارك بالذات – أن كل جامعة لها ضابطان في مباحث أمن الدولة مسئولان مسئولية كاملة عما يدور فيها، ويساعدهما ضابط الأمن المعين في الكلية فهو الذي يمدهما بالتقارير يوميا عن كل ما يجري. وهذه مسألة سوف أتناولها بالتفصيل في موضع آخر.

والمشكلة بالنسبة لشعوبنا أنها شعوب خانعة ومستسلمة تماما، والنخبة – كما فصلت في فصل سابق – معظمها إما واقع في دائرة الرغبة أو الرهبة، والكثيرون كما تقول العبارة الشعبية "يأتون من الآخر" أي يتخذون من النفاق مذهبا ووسيلة للترقي والصعود إلي المناصب. ثم إن الناس في بلادنا تبدو وكأن لديها استعداداً فطريا لتأليه الحاكم. وتأمل حولك الجرائد الحكومية، وأجهزة الإعلام، وكلمات كبار المسئولين وغيرها تجدهم يجمعون علي شيء واحد هو التفنن في اختراع الصفات السامية للحاكم مثل "القائد

الملهم" و"البطل المغوار" و"بطل الحرب والسلام" و"توجيهات السيد الرئيس" و"الشكر علي الثقة الغالية.. الخ" بل إن الطبقة الحاكمة في العراق أيام صدام حسين وضعت له أسماء تضارع أسماء الله الحسني. وفيما يتعلق بنا في مصر مازلت أذكر واقعتين لا أنساهما أبدا. أولاهما عن مؤتمر عقده الرئيس أنور السادات بعد حرب اكتوبر **1973** فوجئت أثناءه بالشيخ أحمد حسن الباقوري ينبري ليلقي خطبة عصماء طالب فيها الرئيس السادات بأن يبقي رئيسا مدي الحياة، وقد دلل علي ذلك بأقوال كثيرة من بينها أن الإسلام ينبذ الأحزاب لأنها تؤدي إلي التنابز والاتهامات والمنافسات، والقرآن الكريم يقول: "ولا تنابزوا ولا يغتب بعضكم بعضا". وانظر كيف طوّع الآية القرآنية لقضية خطيرة مثل قضية الأحزاب، وكيف وضع الآية في غير موضعها كي يصل إلي هدفه هو لا إلي الهدف الذي تقصد إليه الآية.

الواقعة الأخرى حدثت عام **1972** في الساحة غير المغطاة بالجامع الأزهر. كنت طالبا بالسنة الثالثة بالكلية وعقد مؤتمر لا أذكر موضوعه الآن، وتباري الخطباء من عمداء الكليات، والقيادات العليا في الجامعة وفي الأزهر، ومن بينهم شيخ الأزهر، وكل منهم يبدأ كلمته بالثناء الجم علي رئيس الدولة ويختمها كذلك بهذا الثناء، وكانت هذه أيامها عادة لا يكاد يشذ عنها أحد، وفجأة وجدت المرحوم الشيخ الغزالي عندما جاء دوره في الكلام يقول ما معناه: هؤلاء الناس الذين خطبوا فينا هم هامة اليوم أو غد، أي أنهم سوف يودعون الحياة قريبا لأنهم كبار في السن، فماذا يبتغون من المناصب أكثر مما هم فيه؟. نزل هذا السؤال مثل الدش البارد علي رءوس الجميع. وكان الشيخ الغزالي – في رأيي – أحد الشيوخ العظام الذين جمعوا بين فقه الدين والوقوف ضد الاستبداد والعفن، وهو صاحب الكلمات التالية عن الدين

والحرية: "الحرية صدي الفطرة ومعني الحياة. يشب المرء من نعومته وهو يحس بأن كل ذرة من كيانه تنشدها وتهفو إليها. وكما خلقت العين للبصر، والأذن للسمع، وكما خلق لكل جارحة أو حاسة وظيفتها التي تعتبر امتداداً لوجودها واعترافا بعملها كذلك خلق الإنسان ليعز لا ليذل، وليكرم لا ليهون، وليفكر بعقله، ويهوي بقلبه، ويسعي بقدمه، ويكدح بيده. لا يشعر وهو يباشر ذلك كله بسلطان أعلي يتحكم في حركاته وسكناته إلا الله الفرد الصمد، ربه، ورب الناس أجمعين".

ويبدو أن كل هذه الكلمات التي تدل علي أنها صادرة من فيلسوف لا من رجل دين عادي أعجبت الصلادم فوجدته يرفرف بأجنحته ويحط إلي جواري ويبدأ الحوار قائلا:

- ألا يدل هذا علي أن الأزهر كان يصنع الرجال دائما ويخرج للأمة علماء لا يخشون في الحق لومة لائم، ويكافحون ويناضلون من أجل أن تتبوأ هذه الأمة المكانة التي تستحقها؟
- هذا صحيح، فتاريخ الأزهر كله هكذا، وأنا حقيقة لا أدري كيف وصل الأزهر إلي المنحدر الذي هو فيه الآن؟ علماء أفتوا لأثرياء العرب أنه لا مانع من الثراء طالما تؤدي حق الله. ولا شك أن هذه الفتوى جعلت هؤلاء الأثرياء يزدادون جشعا، فاستولوا علي أموال الشعوب البائسة وسخروها لمصالحهم الخاصة، وتركوا الشعوب تزداد فقرا وتخلفا وجهلا. وبما أنهم يؤدون الزكاة فليستولوا علي ما يشاءون من أموال. أيضا برر العلماء لأنفسهم التعاون مع

أجهزة الأمن. وأذكر أني ذات يوم كنت في مكتب شخص كبير هو الآن في منصب رفيع جدا كان يحدثنا عن أهمية مواجهة أعضاء الجماعة المسماة الآن بالمحظورة، لأنها جماعة مارقة وخارجة عن وسطية الإسلام. كنت أحس في كلامه بأنه يريد أن يقنع نفسه بأنه علي صواب: أولا بالوقوف ضد هذه الجماعة، وثانيا بالتعاون مع أجهزة الأمن. ومما لاشك فيه أن قلب هذا المسئول الكبير وعقله وضميره كان يستهجن هذا الفعل، لكنه – من الناحية النفسية البحتة – ينتحل لنفسه الأعذار ويخلق المبررات.

- كلامك هذا يدل علي أنك تتعاطف مع هذه الجماعة المحظورة.
- كلا، أيها الصلادم، إنني لا أتفق مع أفكارهم، ولا أتعاطف معهم، بل إني أنفر من تصرفاتهم. وخذ مثلا موقفهم من انتخابات مجلس الشعب التي ستجري يوم **2010/11/28**، ماذا فعلوا: لقد أفشلوا دعوة محمد البرادعي بمقاطعة هذه الانتخابات التي من المؤكد أنها ستزور كما حدث في كل الانتخابات، وقد ألقت أجهزة الأمن خلال الأيام الأخيرة القبض علي ألف ومائتي شخص منهم وربما أكثر، ومع ذلك تراهم يرفضون الرقابة الدولية علي الانتخابات مسايرة لموقف الحزب الوطني الديمقراطي، بل إني أعتبر هذا تزلفا منهم حتى يحصلوا علي بعض المقاعد. وعلي الرغم من كل هذا فإني مؤمن بأن الديمقراطية الحقيقية هي التى

ستؤدي إلي التطهير، وصدق الله العظيم إذ يقول: "فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض".

لا يمكن أن تظل مصر تحت نارين: نار القبضة الأمنية البوليسية الرهيبة، ونار الإخوان المسلمين. لابد أن تكون هناك حياة سياسية نظيفة، وحياة برلمانية فاعلة، وفصل حقيقي وفعلي بين السلطات الثلاث: السلطة التنفيذية، والسلطة التشريعية، والسلطة القضائية.

- **معني هذا أنك استهجنت موقف ذلك المسئول الكبير لأنك اعتبرته موقفا متخلفا؟**

- نعم، أيها الصلادم، فهذا المسئول وأمثاله يعرفون أن صعودهم وترقيتهم في الوظائف الكبرى مرتبط بتعاونهم مع أجهزة الأمن. وبعضهم أحيانا بتأثير من معارفهم الدينية أو نشأتهم أو غير ذلك يحسون بتأنيب الضمير، وللخروج من هذا المأزق يخلقون لأنفسهم المبررات، وقد يتم هذا في صمت أو يجري علي اللسان. بل إن هناك مسئولا في وزارة الثقافة معروف عنه أنه شديد الالتزام بكل ما يجري، وكل ما يراد فرضه علي الناس، ومع ذلك تراه يكتب المقالات عن أزمة الثقافة وكأنه ليس أحد صانعي هذه الأزمة!. وقد علمت أنه كثيرا ما تلقي التوبيخ علي مثل هذه المقالات، لكنه يتصور أنه بذلك يضع رجلا في الوزارة والرجل الأخرى في مكان آخر. ولاشك أن هؤلاء واهمون لأنهم لا يدركون أن الشعب المصري – علي الرغم من صمته

وسكوته وصبره الشديد – لديه وعي كامل بما يجري ولا يمكن لذي الوجهين أن يخدعه.

- معني ذلك أنكم وصلتم إلي درجة مزرية، فكل شيء عندكم له وجهان: وجه للناس وآخر للحكومة وأجهزة الأمن.
- هذا ما يريده النظام نفسه، أيها الصلادم، فهو نظام ذو وجهين: وجه للدعاية والإعلام والتسويق في العالم الخارجي، ووجه حقيقي مليء بالعفن والكذب والتزييف. ولهذا لم يعد الناس يصدقون أي شيء، لأنهم دائما يصطدمون بالواقع الفعلي.
- وهل يمكن لمجتمع أن يخرج من هذا المستنقع بسهولة؟
- كل شيء ممكن إذا تحول المجتمع من الصمت المطبق إلي الكشف، ومن الرضوخ المطلق إلي الفعل الإيجابي.

تركني الصلادم وانطلق يحلق بجناحيه وهو يقول: "كان الله في عونكم".

في الخامس عشر من سبتمبر عام **2004** أحيل عميد الكلية إلي التقاعد لبلوغه سن المعاش، ومن ثم جري البحث عن شخص يتولي عمادة الكلية، وفي هذه الفترة تكثر التكهنات، والتحركات، ويحاول الكثيرون التقرب من رجال الأمن سواء في الكلية أو في إدارة الجامعة، وإذا كان لشخص ما يد في المشيخة أو عند رئيس الجامعة فإنه يستخدم كل الوسائل لكي يفوز بالمنصب. ويبدو أني كنت أحد المرشحين الأقوياء لأني لم أبذل أي جهد في هذا السبيل ومع ذلك وجدت بعض رجال الأمن يتصلون بي هاتفيا دون أن يوضحوا لي ماذا يريدون. كان نوعا من التعارف لا أكثر ولا أقل، هكذا حسبته. ولم يكن عدم تطلعي للعمادة زهداً أو عدم رغبة وإنما كنت أتصور أن المقالات التي

أكتبها ضد النظام وينشر القليل منها في صحف المعارضة أو الصحف المستقلة يمكن أن تجعلني مستبعداً. ولكني ذات يوم في أوائل اكتو بر **2004** فوجئت باتصال هاتفي يبلغني بأني مطلوب للذهاب إلي مقر الرقابة الإدارية الساعة العاشرة صباحا لمقابلة الضابط فلان (لا أذكر اسمه الآن). لم يكن عندي أي تصور لهذا اللقاء، وليس لدي معلومات عن الضابط: رتبته، سنه، موقعه.. الخ. وفي اليوم المحدد توجهت بسيارتي إلي الرقابة الإدارية الواقعة في آخر شارع النزهة تقريبا. وصلت قبل الموعد المحدد بدقائق كما هي عادتي، فأدخلوني إلي صالة الانتظار. مرت الدقائق بسرعة، ووجدت عقارب الساعة تقترب من الحادية عشرة فوجدتني بعد مرات من التململ أصل إلي درجة الغضب الكامل، فقررت الانسحاب وأبلغت الواقفين بأني معترض علي هذا التصرف غير اللائق وأني لن أنتظر أكثر من هذا. جرت الاتصالات بسرعة، ثم قالوا لي: تفضل، الضابط ينتظر سيادتك في الدور التاسع علي ما أذكر. وصلت إلي الحجرة التي يجلس بها وسألت عنه، وكانت المفاجأة أني وجدته شابا من عمر أبنائي يجلس علي كرسي في قاعة صغيرة أمامه مكتب من صنع شركة إيديال، وإلي جانبه آخرون لهم كذلك مكاتبهم.

استقبلني الضابط (وأعتقد أنه كان برتبة ملازم أول) بحفاوة بالغة وأحسست أنه يخجل من نفسه، إذ كيف يجري مقابلة مع أستاذ مثلي وهو أقل من أن يكون طالبا عندي في الدراسات العليا؟!!. لكن النظام المزيف وضعنا جميعا في هذه المواقف المحرجة والخارجة عن أصول اللياقة والأدب والأخلاق بل والمهنة. فما دخل هذا الضابط الصغير في أن يعين شخص عميداً لكلية، أو نائبا لرئيس الجامعة أو رئيس جامعة. وقد أدركت علي الفور بعد رؤيتي للضابط أن فترة الانتظار التي أرادوا أن تطول أكثر مما طالت، لولا

احتجاجي، كانت نوعا من الاختبار: اختبار قدرتي علي التحمل، واختبار شخصيتي وهل أنا ممن يعلكون المر من أجل المنصب أم لا؟ وهل أنا شخص حريص علي أن أتبوأ هذه المكانة وأكون واجهة مزيفة لواقع آخر يكون للأمن فيه السلطة الحقيقية؟. والواقع أن الضابط كان شخصا أليفا وابن أصول كما نقول. فبدلا من الأسئلة الاختبارية أخذ يحدثني عن إسبانيا والأندلس، وتجاوبت معه في الحديث لأني أعرف أنه مثلي ضحية نظام بوليسي أمني لا يهمه إلا الاستمرار في الحكم وتوريثه إن أمكن، لذلك صارت البلد كلها ضحية لهذا النظام، وازدادت تخلفا وانهياراً وترديا. ومن المؤكد أن الانطباع الذي أخذه الضابط عني كان جيدا وأنه كتب تقريراً في صالحي، ولهذا صدر قرار رئيس الجامعة يوم 27 اكتوبر **2004** بتعييني عميداً للكية.

كانت مهمتي في الكلية صعبة جدا لأنها كانت تحتاج إلي إصلاح أشياء كثيرة، ولهذا وضعت لنفسي خطة تبدأ بالمكتبة، ثم الأقسام العلمية والمعامل.. الخ. ومن خلال مجلس الكلية شكلت لجنة لإصلاح المكتبة التي كانت عبارة عن مخزن مهمل للكتب لدرجة أنك كنت تحس بالتراب أكثر مما تحس بالكتب التى كانت موضوعة بطريقة غير منظمة، وليس فيها فصل بين قسم ما وآخر. لم تفعل اللجنة شيئا خلال فترة غير قصيرة فقررت أن أحمل الموضوع كله علي عاتقي. استدعيت الأستاذة كريمان رحمة الله عليها وكانت نائبة لرئيسة مكتبة الجامعة، وطلبت منها أن تتحمل مسئولية تنظيم المكتبة وتأهيلها بحيث تكون متاحة للباحثين فقبلت، وبدأنا في وضع خطة، ثم أخذنا في التنفيذ، وكنت بوصفي المسئول الأكبر في الكلية أقوم بتسهيل كل الإجراءات الخاصة بالعمالة وما إلي ذلك من شئون وظيفية. وكان لابد من وضع أجهزة تكييف كبيرة في القاعة لتكون المكتبة مؤهلة للجلوس بها في الفترة الطويلة التي تشهد

الآن ارتفاعا كبيرة لدرجة الحرارة. اصطدمنا بعائق التمويل المادي، وحينئذ كلمت صديقي محمد حسانين المبيض صاحب شركة جالاكسيا للسياحة، وكنا زملاء أثناء الدراسة، فلم يتردد في مد يد العون واشتري لنا خمسة أجهزة تكييف كبيرة وتكفل بتركيبها. وبالطبع كان لابد أن نقدم له درع الكلية يوم افتتاح المكتبة بوصفه مجرد اعتراف بالجميل. طلبت من رئيس الجامعة أن يحضر حفل افتتاح المكتبة والمعمل الجديد، بعد محايلات كثيرة، ولاحظ الأساتذة يومها أنه لم يكن سعيداً بما حدث وحدثوني في هذا فقلت لهم: ربما كان متعبا! ولكنب تأكدت من هذا الإحساس عندما كتبت إليه مذكرة أطالب فيها بمكافأة كل من أسهموا في نجاح هذا العمل فجاءني رده بالموافقة علي مكافأة الأستاذة كريمان فقط، وكأنها كان يمكن أن تعمل وحدها! طبعا لم أطلب شيئا لي. وأقول هذا لكي لا يتصور القارئ الكريم أني غضبت لنفسي. أنا فقط كنت أريد أن يكافأ الموظفون الذين تعبوا في هذا العمل، لاسيما وأن المكافآت كانت مبالغ بسيطة جدا من فئة مائة أو مائتي جنيه، أما مكافأة الأستاذة كريمان التي طلبتها ووافقوا عليها فكانت خمسمائة جنيه. لقد اكتشفت أثناء عملي الإداري بالكلية أن المصري يُرضيه أي مبلغ، ويكون سعيدا به جدا، فيكفي أن تعطي منحة للموظفين في حدود من عشرين إلي خمسين جنيها مثلا، تجدهم سعداء بها جدا، وكانت هذه المنح تأتي من الإخوة العاملين في الخارج أو من بعض الصناديق التي تضم تبرعات الأساتذة أو غير ذلك. الإنسان المصري قنوع جدا وأي شيء ولو بسيط يرضيه ويسعده. ولو أن نظام حسني مبارك بدلا من أن يعطي كل شيء للأثرياء ورجال الأعمال جعل لعامة الشعب نسبا بسيطة ما وصلنا إلي هذا الوضع المتردي الذي وصلنا إليه الآن: أكثر من 40% تحت خط الفقر، والباقون

يكسبون قوهم بشق الأنفس لدرجة أني كنت أعرف بعض موظفي الكلية يعملون في أكثر من عمل، وبعضهم يسهرون ليلا مما يؤثر علي حضورهم في الصباح، وهناك قلة قليلة جدا يمتلكون الملايين والمليارات ولهذا ليس هناك مشكلة في أن يصرفوا بعضا من هذه الملايين علي راقصة أو مغنية.. مآسي حقيقية لم نتصور نحن الذين نشأنا في الخمسينيات أننا سوف نعيشها علي مدي أكثر من ثلاثين عاما منذ أن بدأ أنور السادات عصر الانفتاح البشع وجاء حسني مبارك فانحاز انحيازا كاملا إلي الأغنياء وعاد بالبلد إلي أكثر مما كان موجوداً قبل يوليه **1952**. هل كتب علي مصر أن تظل دائما هكذا: ناس تكسب الملايين، وناس تتضور جوعا، ناس لا تجد كيف تنفق الأموال، وناس تدوخ في تجميع مبلغ بسيط جدا طوال الشهر. هل هذه هي العدالة التى بشرونا بها؟ وهل هذا هو الرخاء الذي وعدنا به السادات عندما وقع اتفاقيات كامب ديفيد؟

كان من أهدافي في الكلية أيضا أن نقيم ندوات يحضرها الطلاب ويتناقشون مع الضيف، وهذا كان يحدث ونحن طلاب.كنا نقيم الندوات الثقافية والشعرية في الكلية وفي قاعة الإمام محمد عبده في الدراسة، وقد تعرفنا أيامها علي شعراء ومحاضرين كبار مثل ملك عبد العزيز، ومحمد التهامي، وغيرهما من جيل الخمسينيات، ثم شعراء الجيل التالي مثل محمد أبو دومة، ومحمد أبو سنة، ومحمد عفيفي مطر وسواهم إضافة إلي شعراء الكلية وجامعة الأزهر من الأساتذة وعلماء الأزهر الكبار مثل الدكتور محمد فتح الله بدران الذي كان يصر علي أن يكون اسمه محمد بن فتح الله، والشيخ محمد الغزالي، والدكتور عبد الحليم محمود، الدكتور أحمد الشرباصي، والدكتور عبد العزيز كامل الذي عمل فترة وزيرا للأوقاف وشئون الأزهر. وكانت

هذه اللقاءات تعطينا دافعا قويا للتجويد في الشعر وفي الثقافة بصورة عامة لدرجة أننا شكلنا مجموعة كبيرة من طلاب الكلية الذين يكتبون الشعر من بينها عبد الله أبو هشة، صابر عبد الدايم، ومحمود العزب، وحامد أبو أحمد، وعبده زايد، ومحمد الأمين الخضري وغيرهم. وكل هؤلاء حصلوا علي الدكتوراه وأصبحوا أساتذة، ومنهم من عمل عميدا. كنت أريد أن أعيد إحياء هذا الجو في كلية اللغات والترجمة، ولكني اصطدمت بعقبة كبيرة جدا وهي "الأمن". فهذا الأمن يقف عائقا ضد أي انتعاش – ولا أقول ازدهار – فكري أو ثقافي، لأنه يتدخل بالعقلية الأمنية الصرفة في كل شيء. فأي ندوة أو مؤتمر لابد أن يوافق عليه الأمن بتاريخ سابق علي الانعقاد بمدة كافية، بل إن الأمن صار يتدخل في مجئ أي شخص إلي الكلية لمقابلة العميد أو رئيس أحد الأقسام أو غير ذلك. ونحن كنا متعودين في كلية اللغات والترجمة علي استقبال السفراء والمستشارين الثقافيين أو الزوار الأجانب لأن حضورهم فيه منفعة للطلاب، فهم أثناء الزيارة يتعهدون أن يقدموا كتبا لمكتبة الكلية، أو يرسلوا منحا للطلاب. وأذكر أني عندما كنت معيدا سافرت علي منحة قدمها السفير الإسباني في القاهرة للكلية أثناء زيارته لها.

والآن أصبح كل هذا ممنوعا إلا بموافقة الأمن. والأمن في العادة يريد أن يريح ويستريح، ولديه هاجس دائم هو الخوف من أي تجمعات حتى ولو كانت داخل مكتب العميد، ولهذا كان يرفض معظم الزيارات والمقابلات، ربما لكي لا يتعبوا أنفسهم في كتابة التقارير أو غير ذلك من أسباب.. الله أعلم بها. المهم أننا أصبحنا شبه محاصرين. وفي هذا الصدد أذكر أن اتحاد طلاب الكلية قرر إقامة ندوة يحاضر فيها المستشار الثقافي للسفارة الروسية بالقاهرة وأحد الصحفيين الذي لا أذكر اسمه الآن لأنه ليس مشهورا. وقد قام

الطلاب – حسب التعليمات المطبقة – بتقديم الطلب لإدارة الجامعة قبل تاريخ انعقاد الندوة بفترة طويلة، ووافق عليه نائب رئيس الجامعة المسئول، طبعا بعد موافقة الأمن. ولكني فوجئت قبل الندوة بيوم واحد باستدعاء من مكتب رئيس الجامعة، فذ هبت إلي هناك، وكانت الساعة الثانية والنصف ظهرا، طلب رئيس الجامعة إلغاء الندوة، ودار بيننا الحوار التالي:

- كيف ألغي هذه الندوة وموعدها الحادية عشرة من صباح الغد، وقد جهزنا كل شيء بما في ذلك كروت الدعوة، وماذا نقول للمحاضرين؟
- قولوا لهما إن الندوة ألغيت.
- لكني أريد أن أعرف ما هو السبب في إلغاء ندوة قبل موعدها بساعات؟
- لأنكم طبعتم كروت الدعوة بدون أن تأخذوا رأيي؟
- وما هو الخطأ الموجود في كروت الدعوة؟
- قلتم: تحت رعاية فضيلة الأستاذ الدكتور رئيس الجامعة. فما دخلي أنا بهذا الموضوع؟
- لكن هذه صيغة تكتب عادة في مثل هذه الدعوات، وليس فيها ما يسيء إليك.
- لكني لا أحب هذا. ثم إنكم لم تأخذوا موافقة إدارة الجامعة.
- من قال هذا؟ إن الطلاب أخذوا موافقة نائب رئيس الجامعة لشئون الطلاب، ويمكنك استدعاء المسئول عن العلاقات الثقافية.

وعندما حضر المسئول أكد أن السيد النائب وافق علي الندوة وأن الإجراءات التي اتخذت بعد ذلك جاءت بناء علي هذه الموافقة. وكان لابد من حضور النائب، وعندما حضر سألته:

- ألم توافق سيادتك علي هذه الندوة؟
- كلا، لم أوافق.
- ولكن الطلاب قالوا لي إنك وافقت، وها هو مسئول العلاقات الثقافية يقول إنك وافقت.

وفي هذه اللحظة بدا النائب متلعثما جدا ثم فوجئت به يقول بصورة تلقائية جدا: "الأولاد ضحكوا عليَّ".

فهمت الورطة الشديدة التى وقع فيها النائب. ويبدو أنه لم يتصرف كما ينبغي في مثل هذا الموقف، وأصبح منظره أمام رئيس الجامعة محرجا. ولعله وافق مدفوعا بحسه الثقافي المرهف، ولاسيما وأنه من العلماء الأجلاء ومن المسئولين الذين كنت أحبهم جدا وأرتاح إليهم. ومن المؤكد أنه وافق علي إقامة الندوة لأنها لا تنطوي علي أي خلل بالأمن أو غير ذلك، لكن الورطة التى وقع فيها جعلته يحاول التملص بأي شكل لدرجة القول بأن الطلاب ضحكوا عليه.

استمر الحوار بيننا: رئيس الجامعة، والنائب، وأنا، لمدة ساعتين ونصف الساعة تقريبا، ولم أستطع أن أقنعهما، ولم يستطيعا أن يقنعاني، لكن رئيس الجامعة أصر علي إلغاء الندوة. ومن المؤكد أن رئيس الجامعة ونائبه أخذا أثناء هذا اللقاء انطباعا في غاية السوء عني، إذ كيف أجادلهما بهذه الطريقة ولا أقول آمين باستسلام وبسرعة كما يفعل الآخرون؟!.

وعندما خرجت من مكتب رئيس الجامعة وركبت سيارتي متوجها إلي بيتي وجدت شريط الحوار يعرض علي ذهني بإلحاح شديد. قلَّبت الأمر علي جميع الوجوه حتى اهتديت إلي أن الأمن هو الفاعل الحقيقي وراء الإلغاء. فقد أعطي تعليماته لرئيس الجامعة بإلغاء الندوة، ورئيس الجامعة الذي يعرفني وأعرفه منذ أن كنا طلابا لا يريد أن يظهر أمامي بأنه ينفذ تعليمات الأمن. ولذلك أخذ يلف ويدور حول تعبير "تحت رعاية" وعدم أخذ موافقة وغير ذلك، وكان يتصور أني سوف آخذ الأمر ببساطة شديدة وأوافق فورا علي الإلغاء ثم أنصرف.. وبالطبع فإن هذا الموقف وأشياء أخري كثيرة جعل رئيس الجامعة عند أول تجديد لي (أي بعد سنتين فقط) لا يوافق علي استمراري في العمادة، لأن الشخص الذي يفكر بطريقتي ويري أننا جميعا مسئولون عن إدارة البلد، كل في موقعه، ليس مرغوبا فيه في هذا الزمان الردئ.

ومن العجيب أن العالم العربي كله يعيش هذه الحالة. فعندما كنت أعمل بكلية اللغات والترجمة/ جامعة الملك سعود بالرياض حدث صدام قوى بين العميد وبيني. كانت الكلية قد طلبت من كل قسم أن يقدم كلمة عن اللغة التى يقوم بتدريسها، واجتمعت الأقسام وأوكل كل منها إلي أحد الأساتذة كتابة الكلمة. وذات يوم كنت أتحدث مع الأخ الشاعر سعد الحميدين المشرف علي القسم الثقافي بجريدة الرياض وكذلك كتاب الرياض "وذكرت له هذه الكلمات فطلب مني أن أجمعها وأقدمها له لينشرها ضمن سلسلة كتاب الرياض. ولأني حريص جدا في مثل هذه المسائل ذهبت إلي عميد الكلية وطلبت منه الموافقة علي نشر هذه الكلمات في كتاب "الرياض" فوافق شفاهة. وبعد أن صدر الكتاب اشتكاني أحد الأساتذة المصريين للعميد، لأنه كان يريد أن يقبض مبلغا عن الكلمة التي كتبها، وأوحي إليه أني فعلت هذا

الأمر من تلقاء نفسي. استدعاني العميد، ويبدو أنه كان قد نسي أنه أعطاني أمراً شفويا، وأخذ يجادل معي في أنه لم يعط موافقة علي هذا الموضوع، وأنا أقول له: لا لقد وافقت، وأذكره بكل ملابسات الموضوع، وظل الجدل لمدة ساعة أو أكثر وأنا مصر علي رأيي، وهو مصر علي رأيه، لكن المهم هنا هو أني لم أفكر أبدا في الرضوخ أمام إصراره حتى ولو جهزت أو راقي ونزلت إلي مصر من الغد. وهكذا تجد المسئول في أي مكان في العالم العربي فرعونا صغيرا يقول: أنا ربكم الأعلى. ومن ثم فإن الفراعنة ليسوا في مصر فقط.

الموقف الآخر الذي حدث معي في جامعة الملك سعود ويستحق أن يحكي أيضا هو أني عندما وصلت إلي الرياض في العام الدراسي **1993/92** لم تكن الدراسة بقسم اللغة الإسبانية قد انتظمت بعد، ولأنهم يعرفون أني علي معرفة باللغة العربية لغة وأدبا أسندوا إلي تدريس ثلاث مواد عربية هي النحو والصرف، والبلاغة، والعروض. ولأن لي طريقتي الخاصة في تدريس هذه المواد فقد أحبها الطلاب وكانت إجاباتهم في امتحانات الفصل الأول جيدة: فقد حصل عدد كبير منهم علي تقدير ممتاز وجيد جدا وجيد، وكانت أعداد الطلاب الذين حصلوا علي درجة مقبول أو رسبوا قليلة. وعندما عرضت النتيجة علي وكيل الكلية الشاب القادم منذ فترة قليلة من البعثة استغرب هذه النتيجة التى اعتبرها غير منطقية، فهاج وماج واستدعي كبير الأساتذة المصريين – وكان من قسم فارسي – وشخصا آخر مصريا غير حاصل علي الدكتوراه لكنه يعمل في المملكة منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاما ويعتبرونه واحدا منهم. حدثهما الوكيل عن أن هذه النتيجة غير منطقية وطلب استدعائي. ذهبت إليه فوجدته منفعلا. تركته يتحدث عن أن هذه النتيجة فيها شيء غلط، فكيف يحصل عدد كبير من الطلاب علي تقديرات عالية

بهذا الشكل؟ قال له أستاذ اللغة الفارسية إن النتيجة في العادة تأتي علي قدر المادة أو المقرر الذي تم تدريسه وليست علي أساس أن الطالب عبقري في مادة العروض مثلا.. التزمت الصمت إلي أن كفوا عن الكلام، ثم وجدتني أنطق في هدوء شديد:

- يا أستاذ فلان، عندما يقدم حامد أبو أحمد نتيجة بهذا الشكل فهذه هي النتيجة.

كررت هذه الكلمة ثلاث مرات، وأحسست كأن دشا باردا نزل علي رءوس الجميع. فالسيد الوكيل لم يكن يتوقع أن يكون ردي علي هذا النحو لاسيما وأن هذا هو أول فصل دراسي في المملكة ويمكن أن أنزل فورا، والأستاذان المصريان لم يتوقعا أن أكون حاسما وجريئا بهذه الطريقة. والحق أني عشت حياتي كلها هكذا، لم أتردد أبدا في أن أجهر بكلمة الحق، ولم أنافق أو أراوغ أو أقول لنفسي إن الموقف يستدعي أن أناور أو ألف حول الموضوع أو أتصنع عدم الفهم أو غير ذلك. والحق أني لا فضل لي في هذا، فالفضل كله يعود إلي والدي رحمة الله عليه، فقد ورثت منه هذه الصفة إما عن طريق الجينات كما يتحدث الناس الآن، أو عن طريق معرفتي بقصة حياته لاسيما وأنه توفي عام **1975** وكنت أيامها معيدا بالجامعة.

كان فلاحا دخل التعليم في الأزهر لمدة سنة واحدة فقط، ومن ثم وضع أمله كله فينا فأصر علي أن نتعلم جميعا ونتخرج من الجامعة علي الرغم من قلة موارده المالية. كان الفشل الذي تعرض له في صباه دافعا قويا له لدفعنا في طريق العلم والمعرفة. وقد كانت – ومازالت – نفسه الأبية ومواقفه الصلبة وحبه للناس حتى الأطفال الصغار هي التي تشع أمامي مثل المصابيح القوية التى لا ينضب زيتها أبداً.

ولن أنسي أن أشير هنا إلي أن الأمن بالإضافة إلي تحكمه في الندوات واللقاءات الثقافية بالجامعة يلعب في أشياء أخري كثيرة من بينها سحب ملفات الأساتذة والطلاب للاطلاع عليها. وعندما علمت بذلك أصدرت أمراً إلي موظف شئون الطلاب أحذره من أنه في حالة سحب أي ملف سوف أحوله إلي النيابة. وبالطبع لا أستطيع أن أتأكد هل نفذ الأمر أم لا؟ لأن الأمن موجود في الكلية بعد انتهاء الدراسة ويمكن أن يفعلوا أي شيء من وراء ظهر العميد. كذلك فإن الضابط الموجود بالكلية من بين مهماته إبلاغ مباحث أمن الدولة (وبالتحديد الشخصين المسئولين عن الجامعة) بكل ما يجري في الكلية، ولو فاته شيء من هذا يعد مقصرا. يتدخل الأمن أيضا في الانتخابات الطلابية، وهذا الموضوع فصَّلته في مقالتي التى نشرت بجريدة "الكرامة" تحت عنوان "خيل الحكومة في الأزهر" وهي موجودة بهذا الكتاب ضمن الملحق. أي أن الأمن الآن هو المسئول الأول داخل الجامعات. وقل مثل هذا بالنسبة لكل الأماكن التابعة للدولة. أي أننا دولة أمنية بامتياز في زمن أصبح معظم العالم فيه يعيش في جو صحي ينتج العلم والمعرفة والثقافة ويؤدي إلي التقدم والازدهار في كل المجالات. فأي خطأ ارتكبه الشعب المصري حتى يعيش هكذا في قبضة الأمن؟!!.

أنا في رأيي أن الأمراض التى أصابت النخبة المثقفة والمتعلمة هي التي أدت – ضمن أسباب أخري – إلي هذه الكوارث. وأنا من خلال وجودي في لجان ومواقع كثيرة لاحظت أن هذه الأمراض تحولت إلي واقع مألوف: الرضوخ، والاستسلام، والمداهنة، والتأييد الأعمى لأي مسئول، والموافقة بدون تفكير، والمجاراة، والبحث عن المصلحة الشخصية، والجبن الذي يؤدي في العادة إلي تردي المواقف الأخلاقية، وتجنب الصدام، وحب الدنيا.. الخ

وقد لخص النبي صلي الله عليه وسلم هذه الأمراض، وكأنه مازال يعيش بيننا، في حديث مشهور معناه: "سوف تتداعي عليكم الأمم كما تتداعي الأكلة إلي قصعتها. قالوا أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم حينئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل. وليقذفن الله في قلوبكم الرعب، وليترعن من قلوب أعدائكم المهابة منكم، وليغرسن في قلوبكم الوهن – قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت".

أليست حالنا هي هذه الآن؟ بلي. ولن أتوقف هنا عند أمثلة كثيرة، فربما يعرف القارئ في هذا أكثر مني، ومن ثم سوف أقدم مثلين يعدان نموذجا لكل ما يحدث: المثل الأول من مجمع البحوث الإسلامية الذي يضم – حسب علمي – أربعة وخمسين عضوا ويرأسه شيخ الأزهر. عندما بدأت الحكومة تبني الجدار الفولاذي الذي يفصل بين مصر وغزة اجتمع هذا المجلس برئاسة شيخ الأزهر السابق الدكتور محمد سيد طنطاوي وأصدر فتوي بأن هذا الجدار حلال. كانت الفتوى تثير العجب والدهشة فما دخل الإسلام كدين بهذا الموضوع حتى ندخله في دائرة الحرام والحلال؟ ثم ما دخل الأزهر بمسألة تعتبر محل خلاف بين الناس جميعا؟ وبالطبع كان لابد وأن يواجه العلامة الدكتور يوسف القرضاوى هذه الفتوى المعيبة. وفي رأيي أن المشكلة ليست في الفتوى بقدر ما هي متمحورة حول هؤلاء الأعضاء من أصحاب الفضيلة الذين لم ينهض أحد منهم داخل المجلس أو خارجه ويعترض علي الفتوى. هذه هي مأساتنا، ولا أدري متى سوف نظل هكذا؟ فنحن لا نناقش المسئول الكبير حول أي موضوع يطرحه وكأنه معصوم من الخطأ. وإذا كان هذا يحدث للنخبة من أصحاب العلم وأصحاب المناصب الكبيرة فما بالك بعامة الناس؟!

إنها، والله، كارثة لا مثيل لها، وتدل علي أننا مازلنا نعيش في فترة ظلام ممتدة ليس الخروج منها سهلا.

الموقف الثاني أو المثال الثاني آخذه مما يحدث بالنسبة لجوائز الدولة عندما يجتمع أعضاء المجلس الأعلى للثقافة برئاسة وزير الثقافة في يونيه من كل عام للنظر في جوائز الدولة وإعلانها. وقد شرحت في مقال نشر لي بجريدة "القاهرة" ما يجري في هذا اليوم وهو منشور ضمن ملحق هذا الكتاب، ولذلك لن أقول هنا إلا كلمة موجزة هي أن أعضاء المجلس في العادة ينتظرون أي إشارة من الوزير أو من ينوب عنه لمعرفة إلي من توجه الأصوات. لا أقول إن الوزير يفرض عليهم رأيه فهو لا يفعل ذلك وأنا متأكد مما أقول، ولكن يكفي أن يلمح، ولهذا تجد الجوائز تذهب إلي مستحقيها ممن ترضي الدولة عنهم أو علي الأقل لا تحس تجاههم بالخطر. وإذا كانت كل أمورنا منبعها الأمن فكيف ننتظر أن تنصلح الأحوال؟ لطالما تعجبنا من منح هذه الجوائز لأشخاص دون المستوي في المجال الذي تخصصوا فيه، وهناك فطاحل مستبعدون. وقد سبق أن ذكرت مثالا من الدكتور مصطفي الفقي الذي حصل علي جوائز الدولة للتفوق، والتقديرية، ومبارك، والآن فقط أقول لو أننا في العالم العربي قلنا إن لدينا عالما في العلوم الاجتماعية اسمه د. مصطفي الفقي هل سيصدقنا أحدٌ؟. نحن نقول دائما: عندنا عباس العقاد، وطه حسين، وعلي مصطفي مشرفة، وزكي نجيب محمود، ونجيب محفوظ، ويحي المشد، ولويس عوض، وفؤاد زكريا وعز الدين إسماعيل وسواهم. فهل نستطيع أن نقول هذا عن رجل حصل علي كل جوائز الدولة؟ إنها إذن مأساتنا الكبرى التى نعيشها في عهد حسني مبارك.

وهذه المأساة تعود بنا إلي الوراء لأكثر من خمسمائة عام عندما كانت أوربا في أوضاع مشابهة للوضع الذي نعيشه الآن، ووجد العلماء والأدباء والمفكرون أن عليهم أن يواجهوا هذا الوضع بكل ما أوتوا من قوة وقدرة علي المواجهة. وكالعادة لن أذكر أمثلة كثيرة وإنما سوف أكتفي بمثال واحد فقط آخذه من الكاتب المفكر الفرنسي فرانسوا رابليه **Francois Rabelais**. ورابليه من مواليد عام **1495**م. عمل طبيبا وقسيسا في آن، كما كان كاتبا مهما. ومن أعماله المشهورة: جارجنتوا **Gargantua** وبانتجريل **Pantagruel**. وقد توفي عام **1553**م. كان رابليه كاتبا مدهشا، فيلسوفا، وعالما، وداعية أخلاق. وكان في كتاباته يمزج الجد بالسخرية، ولهذا يعد مؤسسا لهذا الاتجاه في الأدب الفرنسي لدرجة أن لدي الفرنسيين تعبير شائع هو "الضحك علي طريقة رابليه". أما أسلوبه فيتميز بالحيوية والجاذبية والتدفق.

وسوف نأخذ من كتابه "بانتجريل" هذه المقطوعة التى ترد تحت عنوان "كيف أغرق بانيرج التاجر وخرافه في البحر". وسوف أختصر الحكاية قدر الإمكان. تقول: "بانيرج صديق بانتجريل صحب هذا الأخير في رحلة. وبينما هما علي سطح الباخرة التى أقلتهما تشاجر بانيرج مع أحد الركاب واسمه ديندينو **Dindenaut** تاجر الخراف الذي شتمه. ولكي ينتقم بانيرج لنفسه اشتري خروفا من ديندينو. ودون أن ينطق بكلمة ألقي بانيرج الخروف الذي اشتراه في وسط البحر فطار الخروف وهو يثوغ ثغاء عاليا. ولم تلبث الخراف أن طارت خلفه وهي تطلق نفس النغمة واحدا تلو الآخر وصار من المستحيل وقف انطلاق الخراف خلف الخروف الأول. وهنا يقول لنا رابليه: تعرفون أنه من طبيعة الخراف أن تمضي خلف الأول وتتبعه أيان يذهب، ولهذا قال

أرسطو في المجلد التاسع من كتابه "تاريخ الحيوان": "إن الخروف هو الحيوان الأكثر بلاهة والأكثر غباء في العالم". ويكمل رابليه الحكاية قائلا: انزعج التاجر وهو يري أمام عينيه اندفاع خرافه نحو البحر فحاول بكل قوته أن يمنعها ويمسك بها لكن كل جهده ضاع هباء فكل الخراف اندفعت في الصف، تقفز في البحر وتهلك. وأخيرا اختار التاجر من بين الخراف خروفا كبيرا وقويا، أمسك به من فروته ووضعه علي رأس المركب معتقدا أنه بذلك يمكنه أن يمنعه من القفز وينقذ بذلك باقي الخراف، ولكن الخروف كان قويا جدا لدرجة أنه حمل معه التاجر واندفع به إلي الماء فغرق هو والتاجر. وحاول بقية الرعاة أن يفعلوا مثلما فعل التاجر ولكنهم جميعا حملوا إلي اليم وغرقوا بطريقة بائسة.

فهل كتب فرانسوا رابليه مثل هذه الحكاية لينبه المجتمع الفرنسي في ذلك الوقت إلي أن الصمت والاستسلام والخنوع سوف تكون عواقبه وخيمة؟ لاشك أن هؤلاء المفكرين العظام كان لهم دور مهم جدا في خروج المجتمعات الأوربية من دائرة العصر الوسيط ومن سيطرة بعض الفئات علي مقدرات الناس والمجتمع علي النحو الذي فعله الأمن خلال العقود الأخيرة في مجتمعنا. ولاشك أن رابليه أيضا كان أحد آباء رجال التنوير العظام في القرن الثامن عشر.

الفصل الثانى عشر

مجلس الشعب

- "هل هناك شخص برئ في الولايات المتحدة؟ فعلي الرغم من أن أولئك المتربعين علي قمة الهرم الاقتصادي يحصلون علي معظم الأموال فإن الملايين منا يعتمدون في معيشتهم – بشكل مباشر أو غير مباشر – علي استغلال شعوب البلاد النامية. فالموارد الطبيعية والعمالة الرخيصة التى تزود كل أنشطتنا ومشروعاتنا التجارية تقريبا تأتي من أماكن مثل أندونيسيا، وأهل أندونيسيا أنفسهم لا يجنون منها إلا عائدا بائسا للغاية.. والحقيقة أن شركاتنا قد حصلت بالفعل علي معظم أموال القروض لتبني بها مجمعات صناعية ومطارات ومحطات توليد كهرباء"

(جون بركتر، "الاغتيال الاقتصادي للأمم")

- "إن مرضانا يموتون بعاهاتهم تحت أنظار العامة والخاصة، ولا يجدون فؤادا يرق ولا يداً تعطي. إن تقطع الأواصر في مجتمعاتنا يعود إلي ما يسكن قلوب الحاكمين من تأله وغطرسة، وإلي حسبان الوظيفة مظهر وجاهة لا وسيلة خدمة عامة. وسر هذا الفساد أن الدين عنوان لا موضوع له في بلاد لا تقوم علي الأخوة بل علي سيادة قلة وذل أتباع، وعلي تنافس بين السادة لاستدامة هذا الوضع بحوك الدسائس وسفك الدماء."

(محمد الغزالي، "الإسلام والاستبداد السياسي")

- "أسير الاستبداد العريق فيه يرث شر الخصال، ويتربي علي أشرها، ولابد أن يصحبه بعضها مدي العمر. بناء عليه ما أبعده عن خصال الكمال، ويكفيه مفسدة لكل الخصال الحسنة الطبيعية والشرعية والاعتيادية تلبسه بالرياء اضطراراً حتى يألفه ويصير ملكة فيه، فيفقد بسببه ثقة نفسه بنفسه لأنه لا يجد خلقا مستقرا فيه، فلا يمكنه مثلا أن يجزم بأمانته، أو يضمن ثباته علي أمر من الأمور فيعيش سيء الظن في حق ذاته، متردداً في أعماله، لواما نفسه علي إهماله شئونه، شاعرا بفتور همته ونقص مروءته، ويبقي طول عمره جاهلا مورد هذا الخلل".

(عبد الرحمن الكواكبي، "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد")

تعجب الناس مما حدث في انتخابات مجلس الشعب خلال الجولة الأولي التى جرت يوم 2010/11/28 والجولة الثانية بعد أسبوع. وقد حصل الحزب الوطني في الجولة الأولي علي 217 مقعدا مقابل خمسة مقاعد للمعارضة (اثنان للوفد، وواحد للتجمع، وواحد لحزب العدالة الاجتماعية، وواحد لحزب الغد) وثلاثة مقاعد للمستقلين. ولم تفز جماعة الإخوان المسلمين بأي مقعد. ولهذا قرر الوفد والإخوان عدم دخول الجولة الثانية، لكن بعض المرشحين انشقوا علي القرار، ولهذا جاءت النتيجة الإجمالية علي النحو التالي: الحزب الوطني 420 مقعدا، وجميع أحزاب المعارضة 15 مقعدا منها ستة للوفد، وخمسة للتجمع، وفاز الإخوان المسلمون بمقعد واحد لأحد المنشقين علي قرار الجماعة. أما المستقلون فقد حصلوا علي تسعة وستين مقعدا. ووفقا للدستور سوف يعين رئيس الجمهورية عشرة أعضاء، وبذلك يبلغ عدد أعضاء مجلس الشعب 518 عضوا، الغالبية العظمي منهم من الحزب الوطني لأن معظم المستقلين وكذلك الأعضاء المعينين سوف يكونون في صف الأغلبية، وبذلك تنحصر المعارضة في خمسة عشر عضوا فقط من 518. وهذا شيء غريب وعجيب ليس له مثيل في أي مكان في العالم حتى في أكثر الدول تخلفا وفشلا وانهياراً.

ولذلك وجدت بعض الأصوات، حتى من داخل الصحف القومية، تتعجب لهذا الوضع. وكالعادة سوف أقتصر هنا علي مثال واحد فقط. فقد كتب جمال زايدة في جريدة "الأهرام" يوم الأربعاء 8 ديسمبر 2010 تحت عنوان "مجلس بلا أحزاب" يقول: "بصراحة لست سعيدا بنتيجة المرحلة الأولي من انتخابات مجلس الشعب، ولا بنتيجة المرحلة الثانية. أن يكتسح الحزب الوطني نتيجة الانتخابات بدون معارض فتلك مسألة تحتاج إلي تفسير.

أن يخرج حزب الوفد ولا تقوم قائمة للأحزاب الصغيرة فهذا ليس تعبيرا عن تفوق الحزب الوطني بقدر ما عبر عن فقر السياسة في مصر. أرجو ممن يجد نفسه راضيا عن نتيجة الانتخابات أن يفتح عقله وأذنيه وعينيه علي ما يقوله العالم عنا. نحن نعيش في عالم لا يرحم، ولا يكفي تستيف المسائل من الناحية الشكلية. الكل يعلم أن كلمة الشرعية هي المفتاح، ولن نرضي أن يقال إننا أجرينا انتخابات غير شرعية. مصر ليست بلداً صغيرا. مصر عرفت المجالس التشريعية منذ ستينيات القرن قبل الماضي. ميراثها البرلماني والدستوري يحتم أن تنجب الانتخابات مجالس قوية لمحاسبة الحكومة وللتشريع أيضا. لا بأس أن يحصل "الوطني" علي الأغلبية، فهو الحزب الأكبر والأكثر تنظيما، ولا بأس أن تخرج الجماعة من البرلمان حتى يعلنوا أنفسهم كحزب سياسي، لكن ألا نري تمثيلا لا للوفد أو التجمع أو الأحزاب الأخري فسوف يفتح الباب لعشرات الأسئلة عن مدي تعبير البرلمان الجديد عن كل المصريين. إذا كان هناك خوف من "تديين" الدولة في مصر فلماذا لا نشجع الأحزاب المدنية التي تربت في حضن الدولة؟. لا ينبغي أن تحيط البرلمان الجديد أية شكوك وطعون قضائية. فبرلمان سليم مائة في المائة يعني مصر مستقرة آمنة لا تتعرض لانتقادات من أي جهة دولية.امنحونا برلمانا عظيما فمصر تستحق ذلك".

وفي مقابل أمثال هذه الكلمة العاقلة المخلصة نجد مئات التصريحات والكلمات التي تشيد بنزاهة الانتخابات وقدرة الحزب الوطني علي جمع الأصوات وغير ذلك. وقد صدرت هذه التصريحات والكلمات من المسئولين الكبار في الحزب الوطني أو من المتملقين بلا حياء – كما يسميهم جابرييل جارثيا ماركيز – وهؤلاء ما أكثرهم في بلادنا البائسة المنكوبة!!. وبالطبع سوف أكتفي بأمثلة قليلة لاسيما وأن أي فرد منا يقرأ أو يستمع للآلاف

المؤلفة من هذه الكلمات والتصريحات. فقد قال السيد/ صفوت الشريف الأمين العام للحزب الوطني تعليقا علي إعلان جماعة الإخوان المسلمين الانسحاب من جولة الإعادة الأهرام، الخميس 2 ديسمبر 2010): "إن القضية ليست برلمانا بلا معارضة ولكن البرلمان يعبر تعبيرا حقيقيا عن إرادة الناخبين". وهذا الكلام لصفوت الشريف يعني أننا أمام تنظير جديد للحياة النيابية، ولو صح هذا لوجب علينا أن نعلن للعالم أجمع أن لدينا مفكرا وفيلسوفا لا نظير له في التاريخ، يتفوق علي مونتسكيو وعلي فلاسفة التنوير وعلي كل العاملين في مجال القانون، والشرائع الدستورية وكل ما علي الأرض من عقول مفكرة. قال الأمين العام للحزب الوطني أيضا – لافض فوه–: "إن التاريخ سيسجل انتخابات مجلس الشعب الحالية بنزاهتها وشفافيتها، وبمواجهة الحزب الوطني للتنظيم غير الشرعي الذي لم يحقق أية قدرة علي الفوز في المرحلة الأولي للانتخابات والتي كانت حرة ومحايدة وشفافة وذلك بشهادة أرقام التصويت التي تم تسجيلها".

وإذا توقفنا قليلا عند أرقام التصويت نجد أن اللجنة العليا للانتخابات أعلنت في البداية أن نسبة التصويت بلغت 25% وقالت منظمات المجتمع المدني إنها لم تتجاوز 15%، ثم عادت اللجنة العليا للانتخابات وأعلنت أن نسبة التصويت بلغت 35%. أما العبد لله فأنا أشك أن النسبة وصلت إلي خمسة في المائة. لقد قاطع الشعب المصري هذه الانتخابات، لم يذهب إليها إلا أتباع المرشحين والمحيطون بهم أو من دفعت لهم أموال، ومعروف أن الصوت تراوحت قيمته حسب الدوائر من خمسين جنيها إلي ألف جنيه للصوت الواحد. وبالطبع هؤلاء الذين يدفعون يعرفون أنهم سوف يستردون أموالهم إن لم يكسبوا أضعافها، فنحن نعيش في مجتمع معرض للنهب في كل دقيقة.

نعود إلي أقوال الكبار في الحزب الوطني فنجد الدكتور أحمد فتحي سرور يدلي بتصريحات صحفية في مقر مجلس الشعب يقول فيها وفقا لما نقلته أهرام الخميس 2010/12/2: "إن الانتخابات الأخيرة قفزة كبيرة للديمقراطية في مصر، وإن التجربة الانتخابية في 2010 كانت حرة ونزيهة وخرجت بشكل لائق، وكان الناخب هو الفيصل فيها دون تدخلات".

ونأتي إلي المثقفين لنأخذ مثالا واحدا يدل علي البؤس الذي تعيشه عقول هذه الأمة. فقد كتب أنيس منصور في عموده "مواقف" بأهرام السبت 4 ديسمبر 2010 يبرر استخدام العنف في الانتخابات لأن هذا العنف موجود في كل مكان حتى في مباريات كرة القدم، ثم ختم كلامه بقوله: "وقد قرأت في إحدي الصحف العربية أننا في مصر لا يجرؤ أن يذهب أحدنا وحده إلي أي دائرة انتخابية، وهذا هو سرّ الزحام علي صناديق الانتخابات، فهم معرضون في أي لحظة للبلطجة. شيء غريب، فأنا لم أر شيئا من كل ذلك، مع أني أطلت النظر وتساءلت، ولم أر أحداً يحمل سكينا ولا مدفعا رشاشا، ولم ألاحظ هذا الخوف الذي يعانيه المصريون إذا ذهبوا لينتخبوا. فهل يا تري هذه الصحيفة سوف تكتب الحقيقة التى رأتها: لا عنف، ولا بلطجة، لا تزوير، ولا تسويد، إنما هي انتخابات حرة، وإنما البلطجة الصحفية هي التى تمارسها مثل هذه الصحيفة وشقيقاتها من الشاشات المنحطة".

هذا إذا رأي أنيس منصور في الانتخابات: "انتخابات حرة، لا عنف، لا بلطجة، لا تزوير، لا تسويد". مع أن كل الناس رأوا علي شاشات التليفزيون كيف كان يجلس أشخاص للتسويد، فهل هذه الشاشات ركّبت الصورة تركيبا أم أن وسائل الاتصالات الحديثة أصبحت تفضح كل شيء؟ أما الصناديق نفسها فقد رآها الناس خالية تقريبا إلا من عدد قليل جدا من

الأوراق في قاع الصندوق. فهل امتلأت هذه الصناديق من تلقاء نفسها أم ملأها عمليات التزوير لإسقاط من يريد الحزب الوطني إسقاطه وإعلان فوز من يريدون نجاحه. كل الناس كانت تعلم أن النتائج جاهزة في وزارة الداخلية وفي الحزب الوطني قبل إجراء الانتخابات. ولا شك أن أنيس مصور وأمثاله معذورون إذا دافعوا عن نزاهة الانتخابات. فهؤلاء إمكانياهم العقلية والعلمية والمهنية لم تكن تؤهلهم أبدا لتصدر الصفوف، لكن نظامنا الفاسد جعلهم في الصدارة، وهذه هي المأساة التي عشناها وما زلنا نعيشها عقودا بعد عقود وسنوات بعد سنوات. وفي هذا الصدد ما زلت أذكر مقالا طويلا نشر في صفحة كاملة بجريدة "الأهالي" لأستاذنا الدكتور الطاهر أحمد مكي عن أنيس منصور بعد تركه لدار المعارف، التي من يوم أن قام بإدارتها صارت خرابا لأن الأموال كلها صرفت علي سفرياته المتواصلة للخارج ومجلة "اكتوبر" التى كان يرأس تحريرها.

ومما لاشك فيه أن ما يحدث في بلادنا هذه الأيام يمكن أن يؤدي إلي الجنون، أو علي الأقل يجعل الإنسان في حيرة شديدة وقد يشك في كل ما يدور. وكونه يفقد عقله فهذا ينسجم تماما مع ما يجري حوله، فالجرائد الحكومية وشبه الحكومية تتحدث عن أن مصر لم تشهد في تاريخها انتخابات بهذه النزاهة، ومجلس الوزراء المصري يعلن: "الانتخابات نموذجية والسلبيات نتيجة المنافسة". ولنأخذ هنا أيضا مثالا واحدا مما يكتب. فقد كتب محمد بركات رئيس تحرير جريدة "الأخبار" يوم الأربعاء **2010/12/8** مقالا طويلا تحت عنوان "برلمان جديد بدون المحظورة" تحدث فيه عن النتائج الإيجابية لهذه الانتخابات وأهمها غيبة المحظورة عن البرلمان الجديد، ومن ذلك أيضا قوله: "وكان من الإيجابيات الواضحة حرص الدولة المصرية بكل مؤسساتها

وأجهزها علي توفير أكبر قدر من الشفافية والحيدة والتراهة للعملية الانتخابية".

بحثت أنا عن الصلادم هذه المرة ليتلقي معي هذه الجرعات من الأكاذيب وينتشلني من حالة التوهان التى أحسست أني واقع فيها. سألته:

- هل عندكم في عالم الجن أشياء كهذه؟
- طبعا يا عزيزي. ألم تقرأ قول الله تعالي: "ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون" (سورة الأعراف، آية **178**). وقال تعالي في نفس السورة: "وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا، فأما الذين آمنوا فزادهم إيمانا وهم يستبشرون، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادهم رجسا إلي رجسهم وماتوا وهم كافرون" (آية **123** و**124**).
- معني ذلك، أيها الصلادم، أنه ليس من السهل أن ينصلح حال الحزب الوطني، وأن كل ما يقولون عن الإصلاح داخل الحزب أو خارجه مجرد أوهام؟
- طبعا أوهام، لأن من تعودوا علي السلب والنهب وتزييف الحقائق وتزوير الانتخابات والالتفاف حول إرادة الأمة لا يمكن إزاحتهم إلا بالقوة.
- لكن شعوبنا ضعيفة، ومستسلمة فماذا نفعل؟

- لو ظلت أوضاعكم هكذا سوف تفقدون كل شيء في الداخل والخارج. ففي الداخل أنت تعرف الصعوبات التى تكتنف حياتكم، وأقلها المشي في الشارع سواء علي رجليك أو بالسيارة، وفي الخارج أصبحت أطراف العالم العربي تتآكل في السودان والصومال واليمن والعراق، حتى مواردكم المائية صارت معرضة للخطر فماذا أنتم فاعلون؟!.
- والمشكلة أيها الصلادم أن المسئولين عن كل شئوننا تنطبق عليهم هذه الآية القرآنية: "شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلي بعض زخرف القول غرورا". فهذا البرلمان المكون من **518** نائبا وليس فيه من المعارضة إلا خمسة عشرا نائبا فقط بدأ كتاب السلطة يتحدثون عن إيجابياته. فهل هناك بجاحة أكثر من هذه ؟!!.
- تبدو لي وكأنك لم تكتب عن الدكتاتور في أمريكا اللاتينية. ارجع إلي ما كتبته في هذا الشأن وستجد أن ما يجرى في بلادكم منذ ثلاثين أو ستين عاما تقريبا جري مثله في أمريكا اللاتينية، وجري مثله في العراق وفي أي مكان وجد به حكم استبدادي شمولي.

نبهني الصلادم إلي ما كتبته عن الدكتاتور في أمريكا اللاتينية وجعلني أعود إلي بعض ما كتبت لأكتشف أن ما يحدث عندنا وما نسمعه أو نقرأه شيء طبيعي في ظل حكم دكتاتوري استبدادي. لأن كتاب أمريكا اللاتينية في فترة الستينيات والسبعينيات وما قبلها من القرن الماضي عاشوا هذا الواقع

الدكتاتوري الصارخ، ولهذا فقد حاول كل منهم أن يكتب رواية عن الدكتاتور. يقول جابرييل جارثيا ماركيز في مقال له نشر عام **1979**: "إن أكثر خبراتي صعوبة تمثلت في إعدادي لرواية "خريف البطريرك". فقد أخذت علي امتداد عشر سنوات تقريبا أقرأ كل ما تصل إليه يدي حول الدكتاتوريين في أمريكا اللاتينية لاسيما في منطقة الكاريبي، وذلك حتى يأتي الكتاب الذي أفكر في كتابته قريبا إلي حد ما من الواقع". وقد عرض جارثيا ماركيز في هذا المقال لبعض الأفعال الشاذة التى نفذها عدد من الدكتاتوريين، منهم الدكتاتور دوفالييه في هاييتي الذي قام بحملة للقضاء علي الكلاب ذات اللون الأسود في البلاد لأن أحد أعدائه وهو يحاول الهروب من مطاردة الدكتاتور له عرف كيف يتخلص من طبيعته البشرية ويتحول إلي كلب أسود. والدكتور فرانس الذي ذاعت شهرته بوصفه فيلسوفا حتى استحق دراسة في كتاب كارلايل عن "الأبطال" أغلق جمهورية باراجوي وكأنها بيت خاص ولم يترك إلا نافذة واحدة يدخل منها البريد. وأنطونيو لوبيث دى سانتانا (في كولومبيا) قام بدفن ساقه في جنازة مهيبة. أما يد لوبي أجيري المقطوعة فقد ظلت تسبح في النهر لعدة أيام وكل من رأوها تمر كانوا يرتعدون من الخوف وهم يفكرون في أن هذه اليد القاتلة مازالت وهي في تلك الحالة قادرة علي الطعن. وأناستاسيو سوموثا جارثيا في نيكاراجوا كان لديه في فناء قصره حديقة حيوانات بها صنفان من الأقفاص: صنف توضع فيه الحيوانات المتوحشة، وصنف آخر يحبس فيه أعداءه السياسيين.

ويلاحظ أن هذه الأفعال يختلط فيها الواقع بالسحر بالأسطورة لأن هذا هو واقع أمريكا اللاتينية في تلك الفترة. فالدكتور دوفالييه مثلا لم يستطع الإمساك بعدوه الهارب، ولهذا تصور أنه تحول إلي كلب أسود، ومن هنا

كانت حملة القضاء علي الكلاب ذات اللون الأسود. ولهذا قال جارثيا ماركيز: "في أمريكا اللاتينية كل شيء ممكن وكل شيء واقعي" أما اللاواقع – كما يقول الناقد خايم ميخيا دوق – فهو الفوضوية المتكيِّسة في جسد الحداثة، وهي تهدد دائما بإعادة إنتاج هذا التناقض الفانتازي للتاريخ المعاصر الذي ينطوي علي رؤى تشبه رؤى دون كيخوته عندما كان ينهض ضد طواحين الهواء أو ينطلق ضد قطيع من الأغنام.

كان جارثيا ماركيز في روايته عن الدكتاتور يريد أن يجسد تاريخ وأوضاع الدكتاتورية في أمريكا اللاتينية، ولم يكن يريد أن يتحدث عن دكتاتور واحد بل أراد تقديم نموذج فني للدكتاتور بكل أبعاده وتناقضاته وأفعاله الغريبة وردود أفعال الناس من حوله، ولهذا اختار الدكتاتور شخصا طاعنا في السن (182 عاما) ووصفه علي النحو التالي علي لسان من دخلوا إلي القصر الرئاسي. يقول في بداية رواية "خريف البطريرك": "وقد شاهدوا في القصر الرئاسي الدكتاتور نفسه ببدلته الخالية من الشارات، ولفافات ساقيه، ومهمازه الذهبي علي الكاحل الأيسر. كان أكبر سنا من كل الرجال ومن كل الحيوانات القديمة في الأرض وفي الماء، وكان ممدداً علي الأرض وساعده الأيمن منثنيا تحت رأسه علي هيئة وسادة مثلما تعود أن ينام ليلة بعد ليلة كل ليالي حياته الطويلة بوصفه طاغية متوحداً".

ويكشف جارثيا ماركيز التناقضات التى تكتنف حياة الدكتاتور وكل المحيطين به فيحكي لنا أنه كان يدير شئون الوطن بصما بإبهامه لأنه لم يكن يجيد القراءة ولا الكتابة، ومع ذلك كان المتملقون بلا حياء ينادون به قائدا أعلى للزلازل الأرضية، وللكسوف والخسوف، والسنوات الكبيسة وغير ذلك. أما أوامره فكانت قدرا لا يرد حيث يعلن: انزعوا هذا الباب من هنا

وضعوه هناك، ويرفع الباب. ركبوه هنا فيركب. أخروا ساعة الحائط، وعليها ألا تعلن عن منتصف النهار في منتصف النهار بل في الساعة الثانية عشرة ظهرا حتى تبدو الحياة أطول، فتؤخر الساعة بدون أدني تردد.

وهذا الدكتاتور الطاعن في السن والذي يعاني من كل أمراض الشيخوخة مثل الفتق، وسلس البول كان عندما يسير في الأسواق ويتفقد الأشياء علي نحو خرافي يهتف المارة: "عاش الفحل" **Viva el Macho**. وكان شبيهه الجنرال باتريسيو أراجونيس يمارس الجنس علي النحو الذي يفعله الجنرال: "سأثبتها لك علي السرير بالقوة بواسطة أربعة جنود يمسكونها لك من رجليها ويديها وأنت تنكحها". وكانت للجنرال مغامرات جنسية حيث كان يقتفي خطي النساء المطمئنات وهن يكنسن البيت في غبش الصباح ويتربص الفرصة التى يختلي فيها بإحداهن فيضاجعها، علي الرغم من شيخوخته، مثل الديك خلف أبواب المكاتب بينما الأخريات يقهقهن في الظل: يا لك من بطل يا سيدي الجنرال.

ونمضي مع دكتاتور جارثيا ماركيز فنجده يذهب إلي الاستراحة المعلقة في قمة المرتفع الصخري، حيث يقضي فترة ما بعد منتصف النهار يلعب "الدومينو" مع دكتاتورين قدامي من بلدان أخرى في أمريكا اللاتينية. وهؤلاء كانوا يظهرون مع الفجر مرتدين لباس العظمة بالمقلوب وفوق ملابس النوم، ومع كل منهم صندوق يحتوى علي الأموال المنهوبة من الخزانة العامة، وعلبة أوسمة في الحقيبة، وقصاصات صحف ملصقة في دفاتر محاسبة قديمة، وألبوم صور يظهر فيها كل واحد منهم أثناء استقباله الرسمي الأول كما لو كان يقدم أوراق اعتماد قائلا: "انظر، جنرال، هذا أنا عندما كنت ملازما أول، وهنا كان يوم تقلد الاحتفال بالذكرى السادسة عشرة لتولي السلطة". وكان

الجنرال يؤوى هؤلاء جميعا في المبني الرئاسي ويجبرهم علي لعب "الدومينو" حتى آخر قرش معهم.

وهكذا نظرا لأن أفعال الدكتاتوريين لا يمكن تصديقها يختار جارثيا ماركيز لحظات ومشاهد من حياة الدكتاتور أو البطريرك تعد نموذجا لكل هؤلاء في أمريكا اللاتينية. وقد سبق أن قلت إن هذه القارة تخلصت تقريبا من حكم الدكتاتوريين ولكن بعد مواجهات عنيفة من كل الطوائف. فالدكتاتور لا يتنازل بسهولة، وهناك ما يبشر بالخير في بلدنا الآن بعد أن انتفض القضاة وأعلنوا أنهم لن يشاركوا في الإشراف علي أي انتخابات بعد ذلك وبعد الإهانات التي تعرض لها بعضهم في انتخابات مجلس الشعب الأخيرة وبعد التزوير الفاضح علي الرغم من ادعاء النظام بوجود لجنة عليا للانتخابات يشرف عليها القضاة. ولا ندري هل ستنجح هذه الانتفاضة الجديدة أم لا، لأن النظام الحالي لديه قدرة عجيبة علي وأد أي حركة تقف ضد الفساد وتزييفه لإرادة الأمة، وتزويره للانتخابات وغير ذلك من الأفعال المشينة التى جعلت مصر، رائدة الأمة العربية، بلداً عاجزا مشلولا ينظر في استسلام إلي ما يجري في العالم العربي الآن من تقسيم للدول حتى ولو كان ذلك سوف يؤدي إلي كارثة كبرى كما هو الحال في السودان الذي سوف ينفصل جنوبه عن شماله قريبا، والبقية تأتي. مصر أيضا فقدت قيمتها علي كل المستويات وأصبحت دولة صغيرة جدا مثل قطر أكثر قدرة علي الفعل الإيجابي والتصرف بما يليق. وتأمل معي كيف فازت قطر بتنظيم مونديال 2022 وكان التصويت النهائي بينها وبين أمريكا بينما نحن منذ سنوات حصلنا علي الصفر الذي يليق بمكانتنا الحالية وبأوضاعنا المتردية التي وصلت إلي حالة من السوء لا مثيل لها في عهد حسني مبارك. فكل النخب المتعلمة والمثقفة مطالبة

الآن بالقيام بانتفاضات سلمية ضد هذا النظام الفاسد الذي فقد شرعيته منذ زمن طويل علي الأقل في عيون الشعب المصري، وما استمراره في الحكم إلي الآن إلا لأنه يقدم خدمات جليلة لأمريكا وإسرائيل.

ونمضي مع الأفعال الشاذة الغريبة للدكتاتوريين في أمريكا اللاتينية فنجد أن الكاتب الجواتيمالي ميجيل آنخل أستوريس يقول عن روايته المشهورة "السيد الرئيس": "إنها كتاب سياسي بالدرجة الأولي إذا نظرنا إليه علي أنه رواية مستلهمة من الدكتاتورية، وأنها حاولت أن ترسم شخصية الدكتاتور علي نحو ما وجدت، وعلي نحو استمرارها علي رأس السلطة في جواتيمالا لمدة اثنين وعشرين عاما. إن الدكتاتورية لا تختلف في شيء عن السم، السم الصادر عن عنكبوت هائل. ومما يعرف عن الدكتاتور أنه يحاول إفساد الجميع، وشراء كل الذمم، وترويع الناس، وتحويلهم من أشخاص إلي كائنات ميكانيكية خالصة، وإلي متعصبين شديدي المغالاة في تعصبهم، وإلي انتهازيين قساة. إن الدكتاتورية هي الضرر الأعظم الذي يمكن أن يُرزأ به أي شعب". ومعروف أن أستورياس حصل علي جائزة نوبل في الآداب عام **1967**.

أما ماريو بارجس يوسا الحائز علي جائزة نوبل في الآداب لهذا العام (**2010**) فقد حارب الدكتاتورية منذ روايته الأولي "المدينة والكلاب" (**1963**) التى فضح فيها النزعة العسكرية في مدرسة ليونثيوبرادو التى درس بها خلال الفترة من **1950** إلي **1952**. كان القانون السائد في هذه المدرسة العسكرية هو قانون القوة والعنف، وبدت المدرسة وكأنها تمثل في نظر الفتي الموهوب نظرية داروين المعروفة خير تمثيل. وقد وصف ماريو بارجس أوضاع هذه المدرسة بكثير من السخرية مستخدما التقنيات الجديدة في فن السرد. لذلك فإنه علي الرغم من أن الرواية نشرت خارج بيرو، وبالتحديد في

برشلونة، عام **1963** إلا أنها بيعت في ليما عاصمة بيرو بأعداد كبيرة، لدرجة أن المسئولين في المدرسة العسكرية أصابهم كثير من الحنق تجاه الكاتب الشاب (من مواليد **1936**) فأصدروا بيانا وصفوا فيه ماريو بارجس بفساد العقل، وذلك بعد أن جمعوا ألف نسخة من الكتاب وأحرقوها في ميدان عام في احتفال رسمي. وتحدث اثنان من الجنرالات فقالا إن هذه القصة نتاج عقل مريض، ووصفا كاتبها بأنه عدو بيرو، وهدداه بسحب المواطنة البيرونية عنه، وتعريته من كل القيم الوطنية المقدسة. وبالطبع فإن هذا الهجوم الشرس علي الرواية زادها شهرة وشعبية ووجه الأنظار بقوة تجاه كاتبها سواء في العالم المتحدث بالإسبانية أو خارجه. ومن ثم ترجمت الرواية فورا إلي حوالي عشرين لغة.

اهتم ماريو بارجس بعد ذلك بفضح الدكتاتورية في كثير من أعماله. وليس هنا مجال التوقف عندها جميعا أو بعضها، ولهذا سوف أكتفي الآن بواحدة من آخر رواياته وهي "حفلة التيس" **Fiesta del chivo**. وهذه الرواية تحكي قصة الدكتاتور "تروخيو" **Trujillo** الذي حكم جمهورية سانتو دومينجو **Santo Domingo** ووصل بالبلاد إلي حالة من الفساد تستعصي علي الوصف. وقد رسم الكاتب في هذه الرواية ملامح الكثير من الشخصيات المحيطة بالدكتاتور وتعمل تحت إمرته، وأهمهم جوني آبس رئيس جهاز المخابرات الذي يعمل علي تلبية كل طلبات سيده، بما في ذلك نزواته الخاصة، حيث كان يرتب لزياراته السرية لبيوت الدعارة. ويستخدم ماريو بارجس هنا عنصر المفارقة ليقدم الدكتاتور الذي يمسك في يده كل السلطات عاجزا جنسيا مما يُفقده عقله. وإضافة إلي ذلك فإن الدكتاتور، بما يتسم به من برود، قادر علي اقتراف كل أنواع الجرائم، ثم إنه صاحب نظرة ثاقبة وفراسة

تساعده في الكشف عن أي خيانة يمكن أن يقترفها أي واحد من معاونيه. كذلك فإنه داهية يوزع الرشاوى علي بطانته لشراء ذممهم وضمان سكوتهم. ولكن المفارقة تطل هنا أيضا لأن الدكتاتور علي الرغم من دهائه وفراسته ونظرته الثاقبة فإنه عاجز عن التحكم في خروج الغائط أو البول، فتتسخ ملابسه ويصير أمام نفسه مجالا للسخرية والإهانة وقلة القيمة.

أما مدير المخابرات جوني آبس فقد كان يتخلص من المعارضين والمتمردين بالإلقاء بهم في بحيرة مليئة بأسماك القرش لتبتلعهم في ثوان. وكان ابن الدكتاتور تروخيو لا يقل جنونا عن والده، ولم يكن يخفي انحلاله وتبذله لدرجة أن الأب اضطر إثر قتله لفتاة بعد اغتصابها أن يرسله إلي الولايات المتحدة الأمريكية، وهناك صرف الملايين علي نجمات السينما الأمريكية. ألا يذكرنا هذا بما كان يفعله عُدي بن صدام حسين؟. وقد نشرت كتب في ذلك لمهاجرين عراقيين في حياة صدام حسين. فالدكتاتوريون جميعا ملة واحدة، وإن كانت أفعال بعضهم واضحة تماما للعيان، وأفعال البعض الآخر تتخفي خلف أقنعة مصقولة وكأنها مصنوعة من الزجاج الفامي.

وبهذا نري أن كتاب أمريكا اللاتينية في فترة انتشار الدكتاتورية وجدوا أنفسهم مطالبين بالوقوف ضدها وضد شرورها. فقد كان هؤلاء الكتاب ينظرون إلي قارتهم علي أنها جحيم يلتهم في أحشائه وفي أتونه المستعر كل ما هو طيب وإنساني. وكل منهم كان يري هذا الجحيم من زاوية مختلفة. وفي هذا يقول الناقد خوسيه لويس مارتين في كتابه "قصص بارجس يوسا": "إذا كان الروائي رومولو جاييجوس قد حاول أن يري نوعا من الجحيم اللاتيني الأمريكي بعيونه الفنزويلية في زمنه، فإن خوان رولف (المكسيكي) حاول في روايته "بدرو بارامو"، خلال عقد الخمسينيات، أن يري بُعداً آخر لهذا

الجحيم من وجهة نظر أخرى. وقدم بارجس يوسا في عقد الستينيات شاشة أخرى للجحيم اللاتيني الأمريكي بعيون بيرونية".

ونختم هذه التأملات عن الدكتاتور في أمريكا اللاتينية بسؤال وجهه الكاتب الجواتيمالي لويس كاردوثا إلي زميله الكوبي أليخو كاربنتير (**1904-1980**) قائلا: لماذا يتجاوز الواقع الروايات المكتوبة عن الدكتاتوريين؟ فأجاب كاربنتير: "لو أن الروائيين حكوا الواقع فسوف تكون رواياهم غير قابلة للتصديق، لأن الواقع لا يمكن تصديقه". وقد علق كاردوثا علي ذلك بقوله: "هناك شيء أبعد من الواقع. فخيالك يستحيل عليه أن يخترع شخصية مثل شخصية سوموثا". ومعروف أن سوموثا هذا هو الذي أسس جمهورية ملكية في نيكاراجوا استمرت من عام **1937** إلي عام **1974** عندما ثارت ضدها الجبهة الساندينية **Los Sandinistas**. فهل يختلف حسني مبارك عن سوموثا؟ لقد زور حسني مبارك كل الانتخابات، ومن بينها انتخابات مجلس الشعب الأخيرة (نوفمبر **2010**)، وجاء بمجلس مكون من **518** نائبا ليس فيهم إلا خمسة عشر شخصا من المعارضة ربما لكي تكون عملية نقل السلطة إلي ابنه جمال مبارك أكثر سهولة، وربما لأنه يريد أن يحكم إلي آخر نفس في حياته بدون "وش" ولا وجع دماغ. وإذا كان العالم كله قد شهد بأن هذه الانتخابات مزورة بما في ذلك الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوربي فإن مبارك وحكومته وأتباعه وأصحاب المصالح والمتملقين بلا حياء مازالوا يصرون علي أنها أنزه انتخابات جرت في مصر. فهل هناك تبجح أكثر من هذا؟. ومن العجيب أن هؤلاء لا يأخذون العبرة مما جرى حولهم في السنوات الماضية. فصدام حسين كان يعد أحد نجليه لحكم العراق. فأين صدام حسين؟ وأين عُدي وقصي؟. ويبدو أن النظام في مصر وصل إلي حالة من عمي

البصيرة تجعله لا يحس بشيء، ولا يدرك أن الشعوب مهما طال استسلامها وصمتها سوف يأتي وقت تزلزل فيه كل الأركان.

حسني مبارك لم يبلغ حد القسوة والبشاعة التى كانت عند سوموثا، الذي قلنا إنه كان لديه في فناء قصره حديقة حيوانات بها صنفان من الأقفاص: صنف توضع به الحيوانات المتوحشة، وصنف آخر يحبس فيه أعداءه السياسيين. حسني مبارك مثل كل المصريين ليس لديه صفة العنف، فلم يرتكب جرائم كالتي ارتكبها صدام حسين في العراق أو تلك التي ارتكبها سوموثا في نيكاراجوا ولكن سياساته وتصرفاته أوصلت البلد إلي الخراب، وجعلت منها رقما صغيرا ضمن اثنين وعشرين دولة عربية، مع أن مصر بإمكانياتها البشرية والجيوبوليتيكية والحضارية كان يمكن أن تصبح دولة ذات شأن كبير في المنطقة فهل نحن أقل من تركيا أو إيران؟ وهل نحن أقل من الدول التى بدأت نهضتها معنا في العصر الحديث ثم سبقتنا بمراحل طويلة؟ وهل نحن أقل من دول دخلت العصر الصناعي متأخرا ثم نبغت في مجال الصناعة والتكنولوجيا مثل كوريا الجنوبية التى أصبحت معظم السيارات التى تجرى في شوارعنا مستوردة منها؟ وهل نحن أقل من إسبانيا التى عانت من مشاكل طاحنة طوال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين وها هي الآن – بفضل الديمقراطية الحقيقية – صارت من الدول الصناعية الكبرى. إن مأساة مصر والعالم العربي كله أن الناتج القومي للوطن العربي (22 دولة) يعادل الناتج القومي لإسبانيا، ومعروف أن عدد السكان فيها الآن أربعون مليون نسمة، ويعادل كذلك إنتاج شركة المحمول العالمية "نوكيا" الذي يبلغ سبعمائة وسبعة عشر مليار دولار سنويا. هذا ما قاله الدكتور

محمود أبو زيد وزير الموارد المائية السابق في أحدث كتبه وفقا لما نقلته جريدة "الأهرام" يوم الخميس 14 اكتوبر 2010.

لقد ترك حسني مبارك الفساد ينخر في عظام مصر، وللأسف فإن هذا الفساد لم يعد قضية فرد أو عدد من الأفراد وإنما هو قضية مجتمع كامل. ولنترك الناقد فاروق عبد القادر يصف لنا هذه الظاهرة كما ورد في كتابه "في الرواية العربية المعاصرة" حيث قال عن مجموعة "القرار الأخير" لنجيب محفوظ الصادرة عام 1996: "إن أهم ما يلفت النظر فيها هو ظاهرة الفساد الذي ساد فشمل كل شيء. لم يعد الأمر أمر أفراد فاسدين هنا أو هناك يدارون فسادهم ويتسترون به، لكنه أصبح مؤسسات قوية باطشة تستند في قيامها إلي مناخ شامل يشيع الفساد ويشجع عليه، فتحمي الفاسدين وتطارد أعداءهم، وتستمد قوتها من شيوعها حتى أصبحت هي القاعدة والسائدة وما عداها أصبح استثناء وشذوذا".

ومشكلة حسني مبارك أنه شخصية ليس لها مثيل في كل دكتاتوريات العالم: فهو يحكم بالحديد والنار ويتظاهر بالليونة والطيبة والتسامح حتى لقد كتب عنه بعض من التقوا به بأنه إنسان في غاية التواضع. وهو يستخدم القبضة الأمنية في كل شيء ويدعي بأنه رجل ديمقراطي يتقبل الإهانات والشتائم من قبل المعارضين ولا يمنعهم من الكتابة أو يقصف أقلامهم. وهو يتحدث عن انحيازه التام لمحدودي الدخل مع أنه سلب من هؤلاء الورقة التى كانوا يسترون بها عوراتهم وأعطاها لرجال الأعمال. وهو يدعي أنه حريص كل الحرص علي مصالح الوطن مع أنه ترك مصالح الوطن تنهار مصلحة بعد أخري وتفرغ لترسيخ المصالح الإسرائيلية والأمريكية، ربما لأن عينه علي هدف واحد هو استمراره في السلطة وتوريثها لابنه. وهو يقول إنه مؤمن

بالتعددية الحزبية مع أنه لم يعمل إلا علي تمزيق الأحزاب وإفشالها وتدميرها. وهو يزعم إنه يحكم بسلطة القانون والواقع أن القانون في عهده تلقي ضربات لم يحدث مثلها من قبل. أي أننا في المحصلة النهائية أمام شخصية ذات وجهين: وجه حقيقي في الخلفية دائما تصدر عنه كل التصرفات البشعة التى عاني منها الشعب المصري طوال ثلاثين عاما، ووجه آخر مزيف يتم تسويق كل الأشياء من خلاله. ولعل هذا الوجه المنمق المزيَّن المزدان بكل ما هو جميل ومؤثر وجذاب هو الذي جعل حكم حسني مبارك يمتد طوال هذه الفترة ولا تحدث له ضربات موجعة كالذي حدث مع من سبقوه.

أيضا انتقي حسني مبارك شلته وأتباعه وخلصاءه من نفس النوعية التى ينتمي إليها، ولذلك كانوا دائما عونا له علي تسويق الباطل، وتبرير الأفعال والتصرفات التى بلغت في غرابتها حدّاً لا مثيل له وانطلت علي هذا الشعب الفقير البائس الذي يعاني حتى من أبسط الأشياء: رغيف الخبز، والمشي في الشوارع ليلا ونهاراً.. يعني حتى الشوارع لم تعد تستطيع أن تجد الراحة والسعادة فيها لأنك إما محجوز بسيارتك في زنقة لا تجد الخلاص منها، أو تمشي فوق أرصفة محتلة ومختلة، أو تتطلع حولك فتجد كل شيء مشوها: الناس، والعمارات، والطرق، والضوضاء، والمناظر الشائهة. وكان الله في عون الإنسان المصري الذي تعود علي كل هذه التشوهات: فلم تعد غريبة بالنسبة له، وإن كان يحاول أن يهرب منها ومن غيرها من مشاكل وأزمات بالهجرة الشرعية أو غير الشرعية التى يلقي فيها صنوف التعذيب والإهانات، لكن كل هذا في نظره أفضل من الأوضاع التى يعيش فيها في مصر. وكله في النهاية موت مجاني. وأذكر أننا في بداية الألفية الثالثة كنا في مؤتمر في مدريد فقلت للمرحوم الشاعر محمد عفيفي مطر: هيا نقوم بجولة في شوارع مدريد

لأريك جمال هذه الشوارع التى تُدخل علي قلبك البهجة والسعادة وحب الحياة.

وأخيرا فيما يتعلق بانتخابات مجلس الشعب الأخيرة وقرار حزب الوفد ومعظم الأحزاب والإخوان المسلمين دخولها أقول: كنت في غاية الدهشة لأني من واقع ما حدث في انتخابات مجلس الشورى قبلها ومما جري من تزوير فاضح للانتخابات طوال عهد حسني مبارك كنت متأكدا أن الانتخابات سوف تزور. وقد سبق أن استشهدت في فصل سابق من هذا الكتاب بقصيدة أحمد شوقي المشهورة: "برز الثعلب يوما في ثياب الواعظينا" ولهذا عندما أعلنت الأحزاب المذكورة خوض الانتخابات كتبت في مفكرتي مجموعة من التساؤلات من بينها: علام يدل هذا؟ أهي الانتهازية؟ أم السذاجة؟ أم الغباء؟ أم قلة الثقافة؟ أم الرغبة في أن نكون موجودين إعلاميا فقط؟ أم ماذا؟ ألم يأخذ قادة الأحزاب وقادة الإخوان المسلمين عبرة مما جرى في انتخابات الرئاسة السابقة؟ أم إن الإخوان المسلمين بانهماكهم في الماضي فقط تصوروا أنهم كسبوا الثمانية وثمانين مقعدا في المجلس السابق بمجهودهم وعرقهم؟ وعند هذه النقطة بالذات وجدت الصلادم أمامي يسألني:

- هل تشكك في ذلك؟
- نعم أيها الصلادم.
- فكيف حصلوا عليها إذن؟ ألم يحصلوا عليها بمجهودهم وتخطيطهم في مقابل الارتباك الذي حدث للحزب الوطني أيامها؟
- كلا، يا عزيزي، فالحزب الوطني الذي يتزعمه حسني مبارك لم يرتبك أبدا. وكيف يرتبك وكل الأوراق في يد الحكومة ووزارة الداخلية: اللجان والصناديق والموظفين وضباط الشرطة.. الخ.

- لكن كان هناك إشراف قضائي.
- نعم، ولكن الإشراف القضائي لم يكن يغطي كل اللجان الفرعية. ويمكنك أن تراجع ما حدث في إحدي الدوائر بمحافظة البحيرة عندما فاز مرشح الإخوان المسلمين، وعلي ما أذكر كان اسمه جمال حشمت، وبدلت الصناديق لصالح مرشح الحزب الوطني الدكتور مصطفي الفقي. وفي ذلك الوقت قام بعض القضاة، ومنهم القاضية نهي الزيني، بفضح كل ما حدث.
- إذن كيف حصل الإخوان المسلمون علي الثمانية والثمانين مقعدا في المجلس السابق؟
- الذي حدث يا عزيزي هو أن الرئيس الأمريكي السابق جورج دبليو بوش كان يضغط بقوة علي النظام في مصر من أجل الإصلاح الديمقراطي، لأن بوش كان يدرك أن كل مشاكل الشرق الأوسط، ومن بينها الإرهاب، بسبب الأنظمة الدكتاتورية. ولعلك مازلت تذكر آخر لقاء بين مبارك وبوش في شرم الشيخ وما حدث خلاله. ليس معني هذا أن بوش كان يريد الخير لهذه المنطقة، فهذا – في رأيي – أبعد ما يكون عن التفكير الأمريكي، ولكنه كان يريد تجفيف منابع الإرهاب، ولن يتم ذلك – في رأيه – إلا بإصلاح الحكم.
- إذن الحزب الوطني كان يريد أن يؤكد لبوش أن النظام الحاكم في مصر نظام ديمقراطي؟
- كلا يا عزيزي، فما فعله الحزب الوطني أنه جعل المارد يطل برأسه فقط من القمقم، ولهذا ترك الانتخابات حرة في الجولة الأولي ففاز الإخوان المسلمون بعدد كبير من المقاعد، ثم أقفل الصنبور تماما في

الجولات التالية. أي أن النظام أراد أن يقول لبوش: إذا تركنا الانتخابات حرة فسوف يأتي الإخوان المسلمون مثلما فازت حماس في فلسطين. فهل يرضيك هذا؟ ولو أني كنت ممثلا لصورت حركة في هذا المشهد مثلما يفعل عادل خيري في مسرحياته عندما يختم أحد المشاهد بزم شفتيه قائلا: هيه!!. هذا ما جري أيها الصلادم في انتخابات مجلس الشعب السابق. الآن الرئيس الأمريكي أوباما لا يشغل نفسه بهذه الأنظمة. يكفي أنها بالنسبة لأمريكا عامل استقرار بالمنطقة، وتبذل جهودا مضنية في الحفاظ علي المصالح الأمريكية والإسرائيلية، ولهذا خلع النظام في الانتخابات الأخيرة برقع الحياء وشكل مجلسا من الحزب الوطني فقط ويكفي أن تكون للمعارضة خمسة عشر مقعدا فقط!. وماذا يريدون أكثر من هذا؟!.

- لكن ما رأيك في مواقف قادة حزبي الوفد والتجمع وجماعة الإخوان المسلمين؟

- يكفي في الرد علي جماعة الإخوان المسلمين أن نقول لهم: لو امتنعتم عن دخول الانتخابات منذ البداية لكان هذا أفضل لكم، ولكنكم أخذتم القرار متأخرا قبل الجولة الثانية وهذا لم يغير في الأمور شيئا. أما رئيس حزب التجمع فمصالحه مع الحزب الوطني تجعله واحداً من رموزه ولا أدري ما الذي وضعه في حزب التجمع؟!. إنها سياسة القطيع التى تحدثت عنها في فصل سابق، فالناس في كل موقع الآن في مصر ترضي بما يفرض عليها وترضخ رضوخا تاما. وهذه مأساة كبيرة.

- إذن تريد أن تتوقف عند رئيس حزب الوفد؟

- الحق، أيها الصلادم، أني لم يعجبني موقفه. لم يعد لدينا زعماء تاريخيون. هل يمكن أن يكون السيد البدوي شحاته امتداداً لسعد زغلول ومصطفي النحاس وفؤاد سراج الدين؟ لقد قرأت له في "أهرام" السبت **2010/11/27** أي قبل الجولة الأولي بيوم واحد حواراً تحت عنوان "وعد الرئيس مبارك ضمانة لعدم تزوير الانتخابات" .وحتى لا يقول أحد إن الجريدة هي التى اختارت هذا العنوان أنقل سؤالين من الحوار وجواب د. السيد البدوى عليهما:

سؤال: كيف يري الوفد واقع انتخابات برلمان **2010**؟

جواب: أتوقع معركة انتخابية ساخنة يتباري فيها المرشحون بطرق وأساليب مختلفة كل منهم يوظفها لتحقيق مصالحه ومكاسبه. لم أشاهد من قبل مشهداً انتخابيا مليئا بكل هذه المشاعر الحماسية الفياضة. هناك عوامل كثيرة دفعت الناس إلي هذه الحالة لعل أهمها وعد الرئيس بضمانات نزاهة الانتخابات ورغبة الشعب المصري الجامحة في إحداث تغيير في الخريطة السياسية والحزبية.

سؤال: تحدثت عن ضمانات الرئيس بنزاهة الانتخابات ولم تتحدث عن رغبة الحزب الوطني بإجراء انتخابات تحقق تكافؤ الفرص.

جواب: لعل ما أستطيع أن أجزم به وعد الرئيس. ويقيني أن مبارك عندما يقطع عهدا يصبح لا مجال لأحد في الحزب الوطني التصدي له، والعمل علي تعطيله. وأتمنى أن تلتزم قيادات الوطني وتجري انتخابات نزيهة.

- لاشك أن هذا كلام غريب جدا ينطبق عليه مثل مشهور عندكم في طنطا لعلك تذكره.
- نعم، أيها الصلادم، يقال إن شخصا وقف علي باب مسجد العارف بالله السيد أحمد البدوى وأخذ يزمر لفترة طويلة لكنه لم يتلق مليما واحدا فقال لنفسه: لله يا زمرى!!.
- وهذا هو وضع الأحزاب عندكم، يبدو أهم لم ينتبهوا أو لم يستوعبوا ما قاله السيد/ محمد البرادعي من أنه لابد من وجود ضمانات حقيقية لدخول الانتخابات وقد حدد ذلك بسبعة مطالب لم ينفذ منها النظام مطلبا واحداً.
- النظام، يا عزيزي، يعرف أنه قام بتقزيم كل شيء في مصر كما شرحت ذلك في فصل سابق. ولذلك كان طبيعيا جدا بعد كل ما حدث وما قيل خلال العام الأخير أن يأتي رئيس حزب الوفد – وهو حزب له تاريخ طويل من النضال – ويقول إنه يثق في الضمانات التى قدمها الرئيس مبارك بتزاهة الانتخابات. هل وصلت إليهم ضمانات مكتوبة حتى يقولوا هذا الكلام؟ أم أنه ضحك علي الدقون؟ أم نوع من تزييف الحقائق الذي يمارس الآن علي نطاق واسع في بلادنا؟
- وهناك شيء آخر أرجو أن تكون قد انتبهت إليه.
- نعم، أيها الصلادم، فبعد أن فشل حزب الوفد في الجولة الأولي وفاز بمقعدين فقط أصدروا بيانا للحزب نشر في جريدهم يوم الثلاثاء **30** نوفمبر **2010** تحت عنوان: "الحكومة انحرفت عن الوعد الرئاسي بضمان نزاهة الانتخابات". ومما جاء في هذا البيان: "لقد شارك

الوفد في هذه الانتخابات اعتماداً علي وعد رئيس الجمهورية بتراهتها، وذلك علي الرغم من اتجاه ما يقرب من نصف أعضاء الهيئة الوفدية إلي مقاطعتها. وللأسف فقد انحرفت الحكومة والحزب الحاكم عن هذا الوعد الرئاسي وتمت أسوأ انتخابات تشريعية في تاريخ البلاد مما يفقدها ثقة الشعب".

- معني هذا البيان العجيب أن الشعب سوف يفقد الثقة في الحكومة والحزب الوطني فقط؟!
- نعم يا صديقي، فهل وجدت في العالم أجمع عجبا كهذا؟
- ومعني هذا أيضا أن حزب الوفد يمسك العصا من المنتصف مثل معظم الذين يدعون النضال في بلادكم؟. وتأمل معي أيضا هذه الجملة التى ختم بها البيان المذكور: "ويعاهد الوفد الشعب أن يواصل كفاحه في الدفاع عن حقوقه الدستورية وإقامة الديمقراطية وتأكيد أنه ضمير الأمة".
- أي كفاح؟! وهل يتصور الوفديون أن مسك العصا من المنتصف يمكن أن يكون كفاحا؟ ما إلذي يفرق بينهم وبين الآخرين الذين يهاجمون الوزير فلان والوزير علان ورئيس الوزراء ويوحون للناس بأن هؤلاء هم المفسدون في الأرض الذين يزيفون إرادة القديس حسني مبارك، الذي لم يعينهم، ولم يتركهم في الحكم سنوات طويلة!!.
- كان الله في عون هذا الشعب الذي يواجه أصحاب المصالح بدءا من النظام الحاكم ومرورا بالأحزاب والإخوان المسلمين وعلماء الدين والمثقفين والصحافيين. وأيضا لا أعمم هنا وإنما أقول إن الغالبية

العظمي تنسب إلي هذا التيار الذي حول مصر إلي عزبة خاصة يتصرف فيها كل واحد من منطق مصالحه الخاصة. ويظن هؤلاء أنهم يحمون أنفسهم وذرياتهم من بعدهم ولكنهم لا يدركون أن البلد عندما تسقط وتنهار تماما وتفشل سوف يكونون هم أيضا من الضحايا. وكان الله معك أيها الشعب البائس الفقير!!.

الفصل الثالث عشر

التعليم والصحة

- "إلي الدولة وحدها يجب أن توكل شئون التعليم كلها في مصر إلي أمد بعيد. وليس معني ذلك أني أكره أن يبذل الأفراد والجماعات ما يستطيعون من الجهد لإنشاء ما يمكن إنشاؤه من أنواع التعليم وفروعه، بل معناه أن حياة مصر الخاصة وتطورها الحديث يقضيان بأن تؤخذ أمور التعليم كلها بالجد والحزم، وأن يكون تنظيمها دقيقا، والإشراف عليها قويا، وملاحظتها متصلة لا تفتر ولا تني. ومصدر ذلك أن مصر مضطربة بين أمرين كلاهما خطير: أحدهما أن كثرة المصريين المطلقة لا تزال جاهلة جهلا مطلقا فلابد من أن تقوم الديمقراطية بتعليمها، وبتعليمها علي النحو الملائم لأصول الديمقراطية وغاياتها".

(طه حسين، "مستقبل الثقافة في مصر")

- "أخرج الترمذي عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: "إذا مشت أمتي المطيطا، وخدمتها أبناء الملوك فارس والروم سلط شرارها علي خيارها". وذلك ما حدث، فقد أفلت الزمام من أيدي المؤمنين الصالحين، وطاحت الخلافة الراشدة بعد ثلاثين عاما من قيامها، وبعد أن كان حكام الإسلام أعرف الناس به، وأفقههم فيه، وأحناهم علي أهله، أصبح أكثرهم حثالة تافهة تضر ولا تنفع، وتفسد ولا تصلح"

(محمد الغزالي، "الإسلام والاستبداد السياسي")

- "والنتيجة أن وزير المستبد هو وزير المستبد لا وزير الأمة كما في الحكومات الدستورية. كذلك القائد يحمل سيف المستبد ليغمده في الرقاب بأمر المستبد لا بأمر الأمة، بل هو يستعيذ من أن تكون الأمة صاحبة أمر لما يعلم من نفسه أن الأمة لا تقلد القيادة لمثله.. إن أكابر رجال عهد الاستبداد لا خلاق لهم ولا ذمة، فكل ما يتظاهرون به أحيانا من التذمر والتألم يقصدون به غش الأمة المسكينة التي يطمعهم في انخداعها وانقيادها لهم علمهم بأن الاستبداد القائم بهم والمستمر بهمتهم قد أعمي أبصارها وبصائرها، وخدر أعصابها فجعلها كالمصاب ببحران الحمى، فهي لا تري غير هول وظلام وشدة وآلام".

(عبد الرحمن الكواكبي، "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد")

في كتاب المستشرقة الألمانية المشهورة زيجريد هونكه (1913-1999) وهو "الله ليس كمثله شيء" الذي ترجمه الأستاذ الدكتور محمد عوني عبد الرءوف ونشره المركز القومي للترجمة خلال هذا العام 2010 استوقفتني أشياء كثيرة، وأثارت انتباهي أفكار ينبغي أن نتوقف عندها كثيرا ونحن نحارب من أجل الخروج من الحلقة الجهنمية للاستبداد والتخلف وانهيار المواقف الأخلاقية واهتمامنا بالتفاهات في مقابل عدم الاهتمام بالعلم والثقافة وتربية النشء. لقد نبهتنا زيجريد هونكه إلي أن أوربا منذ حوالي ثمانمائة عام كانت تعيش في وضع شبيه بما نحن عليه الآن في الوقت الذي كان فيه المسلمون يقدمون النموذج الأمثل للحضارة والتقدم.

وبالطبع لا نستطيع إلا أن نقدم مثالين لعالمين أوربيين وقفا ضد الجهالة والتخلف والانحطاط الذي كان سائدا في أوربا في ذلك الوقت. أولهما العالم الفرنسي ذي الأصول النورماندية أدلهارد فون باث Adelhard Von Bath المولود عام 1090 والمتوفي عام 1160م. وهذا العالم تجول بالبلاد العربية – كما تقول زيجريد هونكه – والتحق بالمدارس العليا العربية، وأقبل علي تعلم علوم الطبيعة العربية. وعندما عاد من عالم الفكر العربي البعيد الحر مذهولا إلي بلده أصيب بالاكتئاب مرتاعا من جو وطنه الخانق، فأعلن في كتابه "أسئلة الطبيعة" رفضه في عناد وغضب قائلا: "لقد أتيح لي أن أتعلم من العلماء العرب الانقياد للعقل. أما أنتم فصورة صنعها الاستبداد، مقيدون بزمام. والحيوانات المقيدة بزمام تقاد إلي حيث يُراد لها، ولذلك لا تستطيع أن تميز إلي أين تقاد ولماذا. وهكذا أيضا فعل رقباء المؤلفات مع عدد ليس قليلا منكم، قيدوهم وساقوهم لسرعة تصديقهم مثل البهائم".

أما العالم الثاني الذي تحدثت عنه زيجريد هونكه فهو الانجليزي روجر بيكون **Roger Bacon** المولود عام **1211** والمتوفى عام **1294**م. وهذا العالم حصَّل ما كان يُعد في عصره معارف عالمية. ولكنه حينما رفض التعصب العقائدي الذي كان سائدا آنذاك، والسلطات الكنسية التى تركع بجهالة أمام أرسطو واللاهوتين، وإغراقهم المفرط في التفريعات العقائدية، والمنطق الذي لا جدوى منه، انعزل في اكسفورد المنفتحة علي العالم، حيث تنتقل أعمال العرب من يد إلي أخرى. وهناك ألهبته النظرة الحرة بالحماس للحقيقة الواقعة، واقتنع بحقائق الأمور التى أصبحت أقرب ما تكون منه، وتمكن من مسايرة الأجسام والآلات، ومتابعة الأبحاث والتجارب.

وتشير زيجريد هونكه إلي أن روجر بيكون أخذ التجريب عن العلماء العرب مثل ابن الهيثم والكندي، وتمكن بقدرته الفكرية علي التخيل والتخطيط الجديد من تطوير المخترعات التى توصل إليها العرب. وبدلا من أن يحظي بالتقدير من جانب رؤسائه الفرنسيسكان أثار ريبتهم. وزاد من خطورة الأمر بالنسبة له أنه في أثناء الحروب الصليبية – هكذا تقول هونكه – لم يكتف برفع احتجاجه علي البربرية ضد أصدقائه العرب، وإنما ظل يستشهد علنا بالعرب واليهود، ذاكراً أسماء ثلاثين مسلما، فكان أن لعنه رؤساؤه الفرنسيسكان واتهموه بأنه مارق يحتقر كل المقدسات، فحكم بطرده من اكسفورد لمدة عشر سنوات. ذهب روجر بيكون إلي المنفي في فرنسا. وهناك انتشله من الوحدة القاسية لقاؤه بالفرنسي جي لي جرو فولك الذي كان سكرتيرا للملك لودفيج التاسع، وكان قد عاد من الحملة الصليبية السادسة مأخوذا بما هز كيانه مما رآه من تقدم العرب في مجال السلاح باستخدامهم للأسلحة النارية التي تطير في الهواء وتدوي كالرعد. وبعد أن

قضي روجر بيكون سنوات المنفي وعاد إلي اكسفورد لم يلبث رؤساؤه الفرنسيسكان أن ثاروا عليه مرة أخرى، واهموه بأنه لم يكف عن زندقته ومخالطته للكفار "أعداء الرب"، وعصيانه أمرهم له بالامتناع عن العبث بالآلات الشيطانية، وتدوين اختباراته وكشوفه ومشروعاته المستقبلية، ونقده الدائم للنظم التعليمية. ولهذا حكموا عليه بالسجن مدي الحياة. وقد توفي روجر بيكون في سجنه عام 1294م بعد أن قضي خمسة عشر عاما.

وأنا لم أقدم هذين المثلين من كتاب زيجرد هونكه لأقول إننا نفعل بالعلماء الآن مثلما كانت تفعل أوربا بهم منذ ثمانمائة عام تقريبا. فلا شك أن أوضاع العالم قد تغيرت، ولا يمكن لأي نظام مهما بلغت درجة استبداده أن يرتكب مثل هذه الحماقات ضد العلماء والكتاب والمثقفين، ولكني أقصد إلي شيء آخر وهو أن ما ارتكب في مصر ضد التعليم والبحث العلمي والثقافة والعقل بصفة عامة لا يقل خطرا عما كان يحدث في أوربا في القرون الوسطي. وأريد أن يكون واضحا هنا أن هذا الوصف "الوسطي" صفة للقرون الأوربية، والإ فإن هذه القرون بالنسبة للعرب والإسلام كانت قرونا للعلم والثقافة والتقدم والازدهار.

فالتزييف الذي لحق كل شيء لم يسلم منه التعليم أيضا. وإذا أعدنا النظر في نتائج انتخابات مجلس الشعب الأخيرة نجد أنها مثال للاستهتار، وانعدام المسئولية، وضياع البصر والبصيرة، والاستهانة بمصير أكثر من ثمانين مليون مواطن. فلم يحدث في العالم إطلاقا أن يكون هناك مجلس نيابي بدون معارضة، ولم يحدث أبدا أن يحصل حزب واحد علي ما يشبه الإجماع. فالبشر ليس من طبعهم الإجماع علي شيء حتى فيما يتعلق بإله الكون نفسه. ولذلك قال الله تعالي: "فمنكم كافر ومنكم مؤمن" وقدم الكفر علي الإيمان.

فالانتخابات عادة يكون الفوز فيها بنسب ضئيلة جدا، أو حسبما يقال في العادة: **50+1**. هذا هو الطبيعي، ولم يعرف العالم نسبا تصل إلي مائة في المائة أو أقل قليلا إلا في الأنظمة الدكتاتورية. ولم يحدث أن تم تجاهل أحكام القضاء بهذه الصورة البشعة إلا في الانتخابات الأخيرة. والحق أن القضاء في مصر أثبت أنه هو الملاذ الأخير للشعب المصري، وهو الحائط الصلب الذي سوف تتكسر عليه كل رصاصات الدكتاتورية والانتهازية والتخلف، وتحدي كل الإرادات: الإرادة الشعبية والإرادة الدولية، وكل القيم والأعراف والتقاليد. ولا شك أني من قراءاتي لكل ما حدث للأنظمة الدكتاتورية أري أن نظام حسني مبارك أصبحت نهايته وشيكة. لقد فقد النظام البوصلة التى كانت توجهه وتضبط أفعاله وتحول بينه وبين الانحدار الكامل. الآن وصل هذا النظام إلي مرحلة الانحدار، وارتكب من الأفعال ما لا يمكن الدفاع عنه أو تبريره حتى ولو كان هناك رؤساء صحف وإعلاميون ومسئولون لديهم القدرة علي تبرير كل شيء. لقد سقطت ورقة التوت الأخيرة وهذه الورقة عندما تسقط لن يستطيع أحد إعادتها إلي مكانها.

لقد لخصت أهرام الاثنين **13** ديسمبر **2010** خطبة الرئيس أمام الهيئة البرلمانية للحزب الوطني بهذه العناوين الكبيرة: "العملية الانتخابية جرت بما يتفق مع صحيح القانون في غالبية الدوائر. علي الحزب الوطني وجميع الأحزاب التمعن في دروس الانتخابات بإيجابياتها وسلبياتها. الأحزاب الأخرى أهدرت جهودها في الدعوة للمقاطعة. نتطلع لأداء رفيع تحت القبة يرقي لمهام المرحلة المقبلة. الانتخابات الأخيرة خطوة مهمة علي الطريق وتجربة جديدة بعد التعديلات الدستورية". ولنأخذ فقرة من خطاب الرئيس: فبعد أن تحدث عن بعض السلوكيات السلبية المرفوضة من بعض المرشحين ومؤيديهم، وبعد

أن أثني علي عمل اللجنة العليا للانتخابات قال ما نصه: "وعلي أية حال فإن هذه التجاوزات لا تنفي حقيقة أن الانتخابات قد تمت في الغالب الأعم من الدوائر بما يتفق مع صحيح القانون والإجراءات، وبعيدا عن العنف والانحراف والتجاوز". ولا أدري كيف اتفقت مع صحيح القانون والإجراءات وهناك أكثر من ألف حكم قضائي للمحكمة الإدارية لم ينفذ؟!!. أليس هذا من العجائب التي لا مثيل لها في العالم حتى في الشعوب البدائية؟!. ومع ذلك سوف نظل نقول إن لدينا مجلس شعب منتخباً، وإن هذا المجلس سوف يكون أهم مجلس نيابي في تاريخ مصر. وإنه مع الحكومة الرشيدة سوف يمضي بنا في طريق الأمان والاستقرار.. الخ. فأي استقرار في بلد لا يحكمه إلا الأمن؟، وأي أمان في بلد لم يعد فيه المواطن يجد قوت يومه إلا بشق الأنفس؟، وأي حياة في شعب كل أموره قائمة علي مسرحيات هزلية تضر أكثر مما تدفع؟!!.

لقد أثارت هذه الانتخابات الهزلية كاتبا وطنيا هو فاروق جويدة فكتب في أهرام الجمعة **10** ديسمبر **2010** مقالا تحت عنوان "فقط.. نريد أن نعيش" قال فيه إنه علي استعداد الآن للقبول بالعودة إلي نظام الحزب الواحد، وإلغاء جميع الأحزاب الورقية، والعودة مرة أخرى إلي النظام الشمولي ولا داعي إطلاقا لهذا الحلم السخيف الذي يسمي "الديمقراطية". وقد وضع فاروق جويدة لذلك ستة شروط ألخصها فيما يلي: **1**- أن يعيد هذا الحزب الشمولي مستوي الأسعار والخدمات والمعيشة إلي ما كانت عليه في زمان مضي، وأن يوفر للناس حياة كريمة. **2**- أن تعود العدالة الاجتماعية إلي حياة المصريين. **3**- أن يجد المواطن المصري الكادح في مصنعه أو حقله الذي يتناسب مع ما يقدم من جهد. **4**- أن تخلصنا حكومة الحزب الواحد من ديون تجاوزت

التريليون جنيه وعجز في الميزانية بلغ مائة مليار جنيه سنويا، وخمسمائة مليار جنيه في خمس سنوات، وأن تعيد وزارة المالية أموال أصحاب المعاشات التى استولت عليها وهي ثلاثمائة مليار جنيه. **5**- أن ينتهي مسلسل الفزاعات الحكومية التى مارسها الحزب الوطني سنوات طويلة مثل فزاعة الإخوان المسلمين. **6**- ما هو مبرر وجود الأحزاب السياسية في مصر الآن إذا كان حجمها وتأثيرها بهذه الصورة المخزية.

وقد كان لهذا المقال أصداء واسعة جدا، ولا أدري هل حدثت ضغوط من قبل النظام علي الشاعر فاروق جويدة أم أنه أحس بأن المقال يمكن أن يسبب له مشاكل ومضايقات لا حصر لها أقلها أن يمنع من الكتابة في جريدة "الأهرام"، لهذا وجدناه في مقال الأسبوع التالي مباشرة **2010/12/17** تحت عنوان "حكومة بلا رقابة" يعود ليمسك العصا من المنتصف كالعادة ومن هنا اشتمل مقاله علي الفقرة التالية: "قلت من قبل إن أهم إنجازات عهد الرئيس حسني مبارك أن الرجل فتح أمام المصريين فرصا واسعة للتعبير والرأي والرفض والتظاهر والمعارضة. ولا أدري علي أي أساس ومن أي منطلق غامر البعض وأطاح بهذا الإنجاز الذي كانت له أهمية خاصة وتقدير عميق في نفوس المصريين". وإذا قمنا بتحليل هذه الفقرة وفقا للمفاهيم والتصورات والإجراءات التى جاء بها "علم النص" و"التداولية" وهما من أحدث العلوم في مجال تحليل النصوص نجد الآتي:

- هذا الكلام في التداولية معناه أن هذه الكلمات في السياق الذي وردت فيه لا تدل دلالة مباشرة علي المعني بقدر ما تقصد إلي شيء آخر، والقصد هنا هو أن الكاتب يحاول أن يجد لنفسه مخرجا من المأزق الذي أوقع نفسه فيه في المقال السابق والذي يمكن أن يؤدي

إلي نتائج لا تحمد عقباها، ولهذا أخرج الرئيس بالكامل من دائرة الاتهام.

- الرئيس إذن هو الذي فتح أمام المصريين الفرص الواسعة للتعبير والرأي.. الخ. ولا أدري متى سوف نظل في مصر أسري لهذه النظرة المتخلفة التى تجعل الحاكم إلها أو نصف إله: فهو الذي يفتح ،وهو الذي يمنح، وهو صاحب الفضل الأول والأخير في كل شيء. هل أصبحنا عاجزين عن أن نتعلم مما يحدث في العالم حولنا؟!. ومتى نخرج من هذه الحلقة الجهنمية التي جعلتنا في ذيل الأمم؟. لقد استمعت إلي الصحفي المرموق محمد حسنين هيكل في قناة الجزيرة يوم الخميس الماضي **2010/12/16** وهو يتحدث عن الأوضاع الأخيرة في مصر فكان مما قال إن السياسة في مصر الآن تشبه الحوض الذي جفت مياهه تماما وبالتالي فإن من يترل هذا الحوض يمكن أن يتعرض للكسر. لم يتحدث هيكل عمن أوصلوا مصر إلي هذا الجفاف، ولم يتناول الأحداث بشكل مباشر وإنما يلف ويدور حولها بأسلوبه الأدبي القائم علي استخدام التصوير والأساليب المجازية. والحق أن محمد حسنين هيكل هو أحد الذين ساعدوا علي صنع الدكتاتور في مصر، فكيف يواجه الدكتاتور مواجهة صريحة؟! إننا مازلنا نعيش أسري لعهود الفرد، ولهذا نقسم العهود منذ انقلاب يوليه 52 إلي عهد عبد الناصر، وعهد السادات، وعهد مبارك. وطالما لم تخرج النخبة نفسها من إطار هذه النظرة المتخلفة فلن نصل بسهولة إلي العهد الذي تسود فيه الديمقراطية الحقيقية.

- وفاروق جويدة يعلن أنه لا يدري علي أي أساس ومن أي منطلق غامر البعض وأطاح بالإنجاز المهم للرئيس مبارك.. أي أن الرئيس مبارك هو هذا القديس المظلوم الضحية الذي يلعب به الآخرون مثلما يلعبون بالشعب المصري. وكان الله في عون الرئيس مبارك وفي عون المصريين الذين يلعب بهم هؤلاء الشياطين الموجودون في الحزب الوطني وفي الحكومة!!. فهل الشاعر فاروق جويدة يؤمن بذلك فعلا أم أنه لكي يلتمس لنفسه يداً عند الرئيس حسني مبارك يلوي الكلام لياً ويخرج به عن سياقه المنطقي والطبيعي؟. إن كل المصائب والشرور أساسها الحاكم الفرد الذي لا يراجعه أحد. والحاكم الأوحد أو الدكتاتور هو المسئول الأول والأخير عن كل شيء. ولو كان الرئيس مبارك غير راض عما حدث في الانتخابات لأقال صفوت الشريف، وأحمد فتحي سرور، ومفيد شهاب، وأحمد عز، وعلي الدين هلال وغيرهم من أقطاب الحزب الوطني بجرة قلم. والناس كلهم يعرفون ذلك بمن فيهم فاروق جويدة.

إن الشعب المصري لن يخرج من ظلام العصر الوسيط إلا بالمواجهة القوية: مواجهة الدكتاتور، والذي هو في الأساس شخص ضعيف ومرعوش حوله المتملقون بلا حياء إلي شخص متكبر جبار، مواجهة النظام الشمولي الذي قضي علي أي أمل في الخروج من مستنقع الظلم، والتفاوت الطبقي الرهيب، والتردي الأخلاقي، والفساد، وانهيار الصحة والتعليم، وتزييف الإرادات، والتزوير، والسيطرة البوليسية الأمنية، وتحويل الناس إلي كائنات هلامية ليس لها قيمة ولا إرادة ولا موقف. مواجهة العبث بالحاضر والمستقبل، والخدمة المجانية للخارج أو للأعداء وإن كان لها مقابل واحد فقط هو

الاستمرار في السلطة وتوريثها للأبناء. كل هذا وغيره محتاج إلي مواجهة، ومحتاج إلي موقف نخبوي حازم وصارم وليس فيه أي مجال للتراجع، وإلا فإننا سوف نظل للأبد نبكي علي اللبن المسكوب.

وعندما وجدني الصلادم أستطرد في موضوع الانتخابات رأيته يحلق بجناحيه ويحط إلي جواري ويخاطبني قائلا:

- رأيتك بدأت هذا الفصل بالحديث عن التعليم فما الذي سحبك إلي موضوع الانتخابات؟
- مشاكلنا أيها الصلادم لا حصر لها. وما حدث في انتخابات مجلس الشعب الأخيرة لا يصدقه عقل. فهناك تواطؤ عجيب من الطبقة الحاكمة علي الفوز والاستئثار بكل شيء. لم يعد هناك خجل، ولا خوف، ولا حتى محاولة لستر العورات. صار كل شيء يتم عيانا بيانا. البلد أصبحت مرتعا خصبا لهؤلاء الذين فقدوا صفة الحياء.
- ولكن ماذا تفعلون وأنتم شعوب عاجزة عن الفعل؟ ليس أمامكم إلا شيء واحد هو الكلام، والنظام يتيح لكم هذه النافذة فقط، مثلما فعل أحد الدكتاتوريين في أمريكا اللاتينية الذي أغلق البلد بالكامل ولم يترك إلا نافذة واحدة يدخل منها البريد. والنظام يعرف جيدا أن الكلام لن يقدم ولن يؤخر، فهناك نسبة كبيرة من الأميين، والباقون من أنصاف المتعلمين، أما النخبة فقد تحدثت عنها من قبل وقلت إن غالبيتهم محكومون بالرغبة أو الرهبة، ولديهم ميل للانتفاع وتفضيل مصالحهم الآنية علي مصالح هذا الشعب ومستقبله حتى ولو أصبحتم في ذيل الأمم مثلما أنتم الآن.

- نحن، أيها الصلادم، ننتظر دائما الفعل الإلهي. فالمصريون الآن يدعون الله ليلا ونهارا بأن يخلصهم من هذا النظام الفاسد، وأن يرسل ملاك الموت لقبض أرواح هؤلاء الشيوخ الذين بلغوا أرذل العمر ومازالوا يتحكمون في مصائر هذا الشعب، وبعضهم الآن لا يقدرون علي صعود السلم حتى ولو كان عدد الدرجات قليلا فيأتون لهم بكرسي ليرفعوا بالأيدي. ومع ذلك مازالوا متشبثين بالسلطة إلي آخر لحظة.
- هذا يحدث عندكم بينما العالم الآن يحكمه الشباب: باراك أوباما في أمريكا، وثاباتيرو في إسبانيا، وأحمدي نجاد في إيران، وطيب أردوجان في تركيا وهلم جرا.
- ومع ذلك، أيها الصلادم، دعنا من هذا الموضوع لندخل في مشكلة التعليم. فهل وجدت في العالم بلداً يتنازل عن لغته لصالح لغات أخرى علي رأسها بالطبع اللغة الإنجليزية؟
- أنا حقيقية لم أر هذا في أي مكان في العالم..
- لكن هذا للأسف هو واقعنا الآن.
- واقعكم كله عجيب، ولا أدري بأي عقل تفكرون؟ وإلي أين أنتم سائرون؟ دعني يا صديقي أنطلق في فضائنا الحر الذي ليس فيه كل هذه العجائب، وتأمل أنت حالتكم فلم تعد لدي طاقة علي مواصلة الحوار معك.

تركني الصلادم ومضي وعدت أنا أتأمل أوضاعنا: فالدول العربية مجتمعة لا تصرف علي البحث العلمي ما تنفقه جامعة أمريكية واحدة. وإسرائيل هي الأولي في العالم في الإنفاق علي البحث العلمي من حيث مجمل الناتج القومي. والمنطقة العربية تنظر إلي البحث العلمي علي أنه موضوع

هامشي وثانوي، لأن الأشياء التي تستحق الصرف – في نظر الحكام العرب – هي المسلسلات، والقنوات التليفزيونية، ونجوم الفن والتمثيل، ونجوم الكرة. فهذه الأشياء لدي العرب استعداد لكي يرصدوا لها كل الأموال، أما العلم فماذا نستفيد من العلم؟ والمنتجات التكنولوجية الحديثة يمكننا استيرادها بدلا من أن نوجع دماغنا في إنتاجها!. وفيما يتعلق بالصرف علي التعليم فإن الأفضل من ذلك الصرف علي نجوم الفن والكرة، فماذا نستفيد من التعليم إلا ظهور أفندية يحشون أدمغتهم بكلام فارغ، في حين أن الأهم من ذلك هو الثروة والرفاهية والاستمتاع.. هكذا ينظر حكامنا إلي العلم والعلماء، وكان الرئيس السادات يصف المتعلمين بأنهم أفندية، أي أنهم لا يفهمون شيئا في شئون الانفتاح وترك الحبل علي الغارب والتحالف مع الأعداء. وإذا كان إنتاجنا في مجال التقنية ضعيفا جدا فإن إسرائيل هي الدولة رقم 3 في إنتاج التقنية المتقدمة.

ولا شك أن نظاما يجد الصرف علي المسلسلات والقنوات التليفزيونية التى لا حصر لها والرفاهية والمتعة والتسلية أجدي من الصرف علي التعليم والبحث العلمي لابد أن يؤدي إلي حالة انهيار كامل في التعليم، وإلي ضمور البحث العلمي، وكان من الطبيعي جدا أن تجتاح الفوضى قطاع التعليم مثلما اجتاحت كل شيء، فقد أصبح التعليم الحكومي مجرد مبان يحضر إليها الطلاب لقضاء بعض الوقت وقد لا يحضرون لأن كل وقتهم تقريبا مخصص للدروس الخاصة، وهذا علي مستوي التعليم العام، أما التعليم الجامعي فقد صار شيئا يشبه التعليم لكنه لا يمكن أن يكون تعليما. فنظام حسني مبارك الذي جعل "البيزنس" أساسا لكل شيء حول الجامعات الحكومية إلي أماكن لبيع المذكرات، وهذه المذكرات البائسة يمكن أن تكون منقولة من كتب

لآخرين، أو مجرد تمرينات بسيطة يكتبها الأستاذ لبيعها بأسعار غالية جدا، طبعا في الكليات التى بها أعداد كبيرة من الطلاب، أما الكليات ذات الأعداد القليلة فأساتذتها يبحثون عن الإعارة بأي شكل. وقد فتح مجال الإعارة وحددت له نسبة، ولذلك تجد بعض الأقسام الجامعية تعاني معاناة شديدة من قلة عدد الأساتذة المتخصصين. فكل شيء في حياة المصريين صار أساسه البحث عن المال من أي طريق، صحيح أنه طريق مشروع في غالب الأحيان، ولكن من قال إن الفوضى هي أساس التصرف في كل شيء: فوضي المذكرات، وفوضي السفر، وفوضي المقررات، وفوضي الأقسام، وفوضي الإدارة. فالفوضى صارت هي اليافطة الكبرى التى تحكم كل شيء.

وإذا كانت هناك فوضي في التعليم، فهناك أيضا فوضي في الصحة. وفي هذا الصدد أذكر أني عندما كنت طالبا في إسبانيا كنت أحمل بطاقة تأمين صحي لكل الأسرة مثل كل المواطنين هناك. وكانت هذه البطاقة مقابل اشتراك بسيط جدا ندفعه سنويا لشركة تأمين صحي. ومن ثم كان لنا الحق بالكشف مجانا عند كل الأطباء المتخصصين الذين تضمهم قائمة الشركة، وكان لنا الحق في أن تلد الزوجة مجانا بأحسن المستشفيات.. الخ ومن اللافت للنظر أن هذه البطاقة الصحية إجبارية لكل شخص ولهذا لابد وأن يكون لك تأمين صحي عندما تسافر في مهمة أو مؤتمر لأيام معدودة، وأذكر أن بعض الزملاء استغلوا فرصة السفر في مؤتمر لأي بلد أوربي كي يجروا عمليات مجانية هناك. وبالطبع فإن كل الأطباء مدرجون في شركات التأمين، ولهذا لا تقابلك في الشوارع اليافطات الضخمة التي يعلقها أطباؤنا علي شرفات عياداتهم.

وإذا تأملنا ما يجري عندنا في المجال الصحي نجد العجب العجاب: فقد تحولت أشرف مهنة في الوجود إلي بيزنس. فالأطباء الكبار المشهورون تصل أسعار الكشف عندهم إلي ثلاثمائة جنيه أو أكثر ونظرا لكثرة المترددين علي العيادة وبالتالي كثرة الفلوس فإنهم – وأقصد الغالبية منهم طبعا – لا يجدون الوقت لإعطاء المريض حقه. وهؤلاء يكسبون من كل مكان: الكشوف، والعمليات، والجامعة، والمستشفيات. وإذا كان النظام عندنا قد ترك كل واحد وشطارته فإن الشاطر هو من يكدس المال علي حساب الكادحين المرضي من أبناء هذا الشعب المسكين. ومن العجيب أن الناس لا تدرك كم هي معرضة للظلم، والاستغلال، وأكل الحقوق، فتراهم يذهبون إلي الأطباء المشهورين أملا في الشفاء مع أن الطبيب الصغير أو غير المشهور الذي لا يتجاوز أجر كشفه جنيهات معدودة يمكن أن يعطيهم نفس الدواء بل أحسن منه. لكن المشكلة أننا شعب يصدق الأكاذيب، ويتعلق بالأوهام، وتفكيره في غالب الأحيان يميل إلي الخرافة، ولدينا خرافة اسمها الأطباء المشهورون. إذن فكل شيء في حياتنا فوضي كأنما ليس لدينا نظام، وليست لدينا حكومة!! فهل يمكن أن تمضي أمورنا هكذا؟! وكيف نستطيع أن نبث الوعي في أعماق هذا الشعب بحيث نجعله يحلم بحياة أفضل ليعيش مثلما تعيش باقي الأمم؟

الفوضى إذن هي الأساس في كل شيء بما في ذلك التعليم. فقد كانت المدارس الخاصة أيامنا (أقصد في الستينيات) قليلة جدا وتقوم بتدريس المناهج الحكومية ولم يكن يلتحق بها إلا التلاميذ الفاشلون، والآن صارت المدارس الخاصة ومعظمها مدارس للغات هي أساس التعليم، ولم يعد يلتحق بالمدارس الحكومية إلا أبناء الطبقات الفقيرة أو أبناء البوابين والسعاة في المناطق الحضرية الراقية. وقد تحولت المدارس الخاصة إلي تجارة أو بيزنس، ولهذا دخل

فيها بعض من كانوا يزاولون مهنا أخرى، ولم يكن يتصور أحد في يوم من الأيام أنهم سوف يصبحون من رجال التعليم. ومن العجيب أن الناس تصارع الحياة من أجل إلحاق أبنائها بمدارس اللغات ولهم العذر في ذلك لأن الوظائف حاليا صارت شبه مقصورة علي الخريجين الذين يجيدون لغة أو لغات أجنبية.. حتى سوق العمل نفسه أصبح يقلل من شأن اللغة العربية!!. ومن العجيب أن الأزهر نفسه الذي كان حصنا للغة العربية انتشرت فيه المعاهد النموذجية. وكلمة نموذجية تساوي في هذه الأيام كلمة اللغات، وهذا يعني أن المعاهد والمدارس التي تدرس باللغة العربية ليست نموذجية.. فهل هناك في العالم كله شعوب مثلنا: تسيء إلي لغتها، وتقضي علي هويتها، وتفضل الرطانة الأجنبية علي الفصاحة العربية؟ ولا يتصورن أحد أني أكره اللغات الأجنبية، أو أريد أن نتخلي عن تعليم أبنائنا هذه اللغات، لأني في الأساس أستاذ لغات وأعرف أكثر من لغة أوربية، وكنت عميداً لكلية اللغات والترجمة. ولكن ما أقصده هو أن لكل شيء ضوابط وأصولا وقواعد ينبغي مراعاتها وإلا تحولت الأمور إلي فوضى عارمة كما هو حادث عندنا الآن.

ومما يثير العجب والدهشة أن حكامنا علي جهلهم وقلة وعيهم يتصرفون في كل شيء من منطلق أنه يملكون الأرض ومن عليها. فهم لا يتصورون أن هناك أناسا غيرهم لديهم القدرة علي النظر والفهم، وهم لا يصدقون أن أحداً غيرهم له الحق في التفكير بصوت عال، وهم لا يستوعبون أننا نعيش في مجتمع حديث يفترض فيه أن كل الناس مشاركون في تحريك دفة الحياة. لقد رأوا أنهم وحدهم أصحاب الرأي والتفكير واتخاذ القرار وتحريك الأموال، ولذلك لم يكن غريبا أن نصل في كل مجال إلي الخسران المبين.

لم يقرأ هؤلاء ما كتبه واحد من أصحاب العقول الفذة في هذا البلد وهو الدكتور طه حسين في كتابه المشهور "مستقبل الثقافة في مصر" الذي صدرت طبعته الأولي عام **1938**. فقد رأي طه حسين في هذا الكتاب أن الدولة وحدها هي التى يجب أن توكل إليها شئون التعليم (انظر ص **60-61** من طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة **1993**) وحذر من خطورة التعليم الأجنبي، ويحسن أن ننقل هنا نص ما قال: "وهناك التعليم الأجنبي الذي قام في مصر مستظلا بالامتيازات الأجنبية، غير حافل بالدولة، ولا خاضع لسلطانها، ولا ملتفت إلي حاجات الشعب وأغراضه، ولا معني إلا بنشر ثقافة البلاد التى جاء منها، والدعوة لهذه البلاد، وتكوين ثقافة التلاميذ المصريين علي نحو أجنبي خالص، خليق أن يبغض إليهم بيئتهم المصرية، وأن يهون في نفوسهم قدر وطنهم المصري، لولا أن سلطان مصر علي أبنائها أعظم من ذلك وأقوي، وأقدر علي مقاومة ذلك ومحو آثاره" (ص**61**).

كان التعليم في عهد طه حسين موجودا في المدارس والمعاهد التابعة للجاليات الأجنبية فقط، فماذا لو رأي طه حسين كيف أصبح التعليم في مصر كلها شبه أجنبي؟!. ومع ذلك دعا إلي أن تكون هناك رقابة حكومية علي هذه المدارس الأجنبية، وأن تفرض عليها اللغة العربية باعتبارها أهم المقومات للشخصية الوطنية. ويحسن هنا أيضا أن ننقل ما قاله طه حسين في هذا الشأن: "لست أدعو إلي إغلاق المدارس والمعاهد الأجنبية، بل أنا بعيد عن ذلك كل البعد، نافر منه أشد النفور. لا لأن التزاماتنا تحول بيننا وبين ذلك بل لأن حاجتنا الوطنية تدعونا إلي الاحتفاظ بهذه المدارس والمعاهد. فهي من جهة أخرى لا تزال متفوقة علي مدارسنا في فنون التربية والتعليم. ولكن الشيء الذي أدعو إليه، وألح فيه، وأري أن الواجب الوطني يفرضه علي

الحكومة والبرلمان فرضا، وأري أن التقصير فيه تقصير في ذات الوطن، وتفريط في حماية الاستقلال هو أن تراقب هذه المدارس مراقبة دقيقة تكفل محافظتها علي مقدار من التعليم يلائم حقوق الوطنية المصرية وواجباتها. ما أظن أحداً يخالفني في أن من حق الدولة ومن الحق عليها أن تكفل لأبناء الشعب تعلم لغة الشعب وإتقانها، لأن هذه اللغة من أهم المقومات للشخصية الوطنية من جهة، ولأن هذه اللغة هي وسيلة التعامل والحياة بين أبناء الوطن الواحد. فإذا طلبنا إلي الدولة أن تفرض علي المدارس الأجنبية التى تقوم في مصر تعليم اللغة العربية، وأن تتعهد هذا التعليم بالملاحظة المتصلة، والتفتيش المستمر، والامتحان الدقيق حتى لا يكون هذا التعليم أقرب إلي الهزل منه إلي الجد وإلي الخداع منه إلي النصح، إذا طلبنا إلي الدولة هذا لم نطلب منها شططا. وإذا فرضت الدولة هذا علي المدارس الأجنبية لم تكن ظالمة لها، ولا جائزة عليها، ولا مكلفة إياها أكثر مما تطيق (ص **65-66**).

أيضا طالب طه حسين الدولة بألا تأذن لمدرسة أجنبية أن تعلم في مصر إلا إذا كان التاريخ القومي أساسا من أسس التعليم فيها، وأن تكون الجغرافيا المصرية كالتاريخ المصري وكاللغة العربية أساساً من أسس التعليم فيها. بل إن طه حسين يطالب بما هو أكثر من ذلك، فيقول: "إذا كان التعليم الديني جزءاً أساسيا من مناهج التعليم المصري العام، فهل يصح ألا يكون هذا التعليم الديني جزءا أساسيا من مناهج التعليم في المدارس الأجنبية التى تقوم في مصر وتنشر تعليمها بين المصريين؟ (انظر صفحتي **66** و**67** والصفحات التالية).

ولا أريد أن أستطرد في الحديث عما جاء في كتاب طه حسين "مستقبل الثقافة في مصر" من كلام كثير عن اللغات الأجنبية وكيف نتعلمها، ونتيجة التقصير في ذات العلم والثقافة، والملاءمة بين الحديث والقديم، ومواجهة

عقدة الخواجة التى تحكم معظم تصرفاتنا، ولماذا أخذ هذا الشرق ينحط ويُسرف في الانحطاط، والحرية والاستقلال وكيفية المحافظة عليهما، وكيف حمت مصر العقل الإنساني مرتين، والنظام الديمقراطي والحياة النيابية وغير ذلك. فقط أريد من هؤلاء الذين يتحكمون في شئوننا، إن كان لديهم وقت للقراءة، أن يقرءوا هذا الكتاب، ويتأملوا إن أرادوا، فيما وضعه طه حسين من دستور للتعليم، وإن كنت متأكدا أن المسئولين عندنا الآن ليس لديهم وقت لا للقراءة ولا للتأمل أو التفكير. فوقتهم موزع بين المهرجانات التى تقام هنا وهناك وتصرف عليها الملايين، وحضور الاحتفالات في الفنادق الفاخرة، وحضور الأفراح، والبحث عن تنمية مواردهم المالية الخاصة، وتقديم فروض الولاء والطاعة لمن وضعوهم في مناصب الجاه والسلطان وغير ذلك.

إن التعليم عندنا يعيش منذ فترة طويلة مأساة حقيقية: مدارس بلا تدريس، ومراكز تعليم خاصة أو بيوت حلت محل المدارس، وفوضي عارمة في كل شيء بما في ذلك المناهج الدراسية، ومدارس خاصة للغات أو مدارس حكومية يسموها النموذجية تمييزا لها عن المدارس الأخرى غير النموذجية وهي التى يتم التدريس فيها باللغة العربية، كأن لغتنا القومية أصبحت سبة وعاراً نخجل منه، وميزانيات بائسة مرصودة للتعليم في مقابل الميزانيات الضخمة المرصودة للقنوات التليفزيونية، والصحف التى تنشر الأكاذيب، وأجهزة الإعلام المزيفة، والمهرجانات، والمسلسلات، وأجور الممثلين والممثلات، والأتباع الذين تصرف لهم مرتبات بالملايين. فرئيس مجلس الإدارة في جريدة حكومية نافذة يصرف له راتب شهري قيمته مليون وربع المليون جنيه بعد خصم الضرائب، ورئيس تحرير الجريدة يصرف له شهريا حوالي

المليون بعد خصم الضرائب، وكل هذا في مقابل التزييف والتزوير وقتل الإرادات لدي العاملين في الجريدة الذين لا تعجبهم هذه الأوضاع ولا يرضون عنها. وكثيرا ما سألت نفسي: لو وزعت هذه المبالغ الضخمة علي وظائف يعمل فيها شباب الخريجين فكم شابا سوف يستفيد منها؟ لكن المشكلة هي أن نظام حسني مبارك لا يهمه أن يكون الشعب عاطلا أو لا يجد قوت يومه، وإنما يهمه تحسين صورته أمام الناس وفي الخارج. وهؤلاء الذين يقبضون الأموال الضخمة منحهم الله من الصفاقة وانعدام الضمير وحب الدنيا ما يجعلهم خدماً مطيعين يزيفون كل شيء من أجل المتربع علي عرش السلطة، المالك لكل شيء، المتصرف في كل الأمور، والذي سوف يستمر في السلطة لآخر نفس في حياته أو يورثها لأبنائه. فقد ابتليت مصر خلال العقود الأخيرة بسيطرة أصحاب النفوس الضعيفة والطفيليين والانتهازيين الذين باتوا نهبا للجشع، وحب الدنيا، والاستئثار بالسلطة والجاه والمال. وهؤلاء يتوهمون أن الحياة دائمة، وأن الموت لا يتربص بهم مثلما يتربص بكل الكائنات علي هذه الأرض، وأن لديهم المال الذي يمنحهم القدرة علي الانتفاع بالمكتشفات الطبية الحديثة التي تطيل أمد الحياة. ولكن مهما طالت الحياة فإن الموت لاحق بهم لا محالة، وسوف يوسدون التراب مثلما يوسد كل الناس، وعندئذ سنري هل سوف تنفعهم أموالهم أم لا؟.

وبما أننا اقتربنا مرة أخرى من عالم الجرائد الحكومية المسماة زورا وبهتانا بالجرائد القومية أذكر أني في عام **1998** دعيت إلي اجتماع في مكتب رئيس تحرير إحدي هذه الجرائد. جلسنا في الصالة الملحقة بالمكتب وكانت الجلسة تضم عدداً من الكتاب ورجال الصحافة والفن أذكر من بينهم الآن المرحوم محمد عودة، والشاعر عبد المنعم عواد يوسف، والفنانة نادية لطفي. وقد

اضطررت خلال هذه الجلسة أن أسأل عن دورة المياه، فأدخلوني الحمام التابع لرئيس التحرير. كانت دهشتي شديدة جدا عندما وجدت القاعدة التى يقضي فيها رئيس التحرير حاجته محاطة بستة أجهزة تليفون. ولا أدري إلي الآن لماذا كل هذه الأجهزة في دورة مياه لا تتعدي مساحتها مترين في مترين؟ إنها أيضا إحدي عجائب الحياة في مصر. ولو عاد القارئ إلي فصل سابق لرأي كيف وصفت رئيس تحرير أكبر صحيفة إسبانية وهي "الباييس" وكيف كان يجلس في حجرة ضيقة مملوءة بالكتب والمطبوعات، وكيف نزل معنا في ختام اللقاء ليركب سيارته السيات 133، وكانت أردأ سيارة أنتجتها المصانع الإسبانية. إن رؤساء تحرير الصحف الحكومية في مصر جزء من السلطة، وهم أصحاب نفوذ يتجاوز نفوذ الوزراء ثم إنهم علي صلة مباشرة بمؤسسة الرئاسة.

نعود إلي التعليم، ونتوقف الآن عند التعليم الجامعي لاسيما الخاص. فقد كنت مثل غيري أتصور أن هذا التعليم الجامعي الخاص يمكن أن يكون بديلا جيدا للتعليم الحكومي الذي صار في أسوأ أحواله. ولكني دعيت ذات مرة للتدريس في إحدي الجامعات الخاصة. وكانت مفاجأة من العيار الثقيل. فقد اكتشفت أن الطلاب والطالبات جاءوا فقط من أجل الحصول علي الشهادة، ولا يهمهم التعليم في شيء، وأصحاب هذه الجامعات مستثمرون ينمون أموالهم في هذه الأماكن لا أكثر ولا أقل. أما الرقابة الحكومية فشبه معدومة. والحق أني لبشاعة ما رأيته لم أستطع استكمال الفصل الدراسي الأول وطلبت إعفائي من هذه المهمة الثقيلة علي الرغم من أني كنت أحصل في اليوم الواحد علي ستمائة جنيه تقريبا. ولكن هل يبيع الإنسان نفسه، ويبيع ضميره من أجل الحصول علي المال؟!.

ومن العجيب أن وزارة التعليم العالي استوردت شيئا اسمه "الجودة"، وهذه الجودة لا تتعدي ملء الاستمارات وتعبئة الأوراق، وكله ورق في ورق. فحياتنا كلها قائمة علي تستيف الأوراق، وهذا هو الأهم. أما الواقع فليكن كله مأساة فهذا لا يؤرق أهل الحكم الذين لا يهمهم إلا ما أسموه بالاستقرار، الذي أدي إلي الجمود والعفن والانهيار. فأي استقرار يريدون؟! هل هو الاستقرار الذي أهين فيه التعليم، والأستاذ الجامعي، والطالب؟ وأهينت فيه مؤسسات التعليم وصارت مجرد أماكن قد تكون مبنية بروعة وفخامة مثل الجامعات الخاصة، ولكن واقعها أشد بؤسا من واقع الجامعات الحكومية؟. ولا أريد أن أستطرد في مجال التعليم، فكل المصريين الآن يتحدثون عن هذا الواقع البائس الذي لا يختلف في شيء عما يجري في مجال الصحة، والمجال الإعلامي، وكل المجالات.

الفصل الرابع عشر

الجماعات الدينية

- "إن طبيعة الإسلام فرضت نفسها علي الأمة فجعلتها تقبل علي العلم وتوقر العلماء، وفرضت نفسها علي الدولة فجعلتها تحذر جانب الأمة، وتحاول استرضاءهم بالرغبة أو استكراههم بالرهبة، ولم يستطع الاستبداد السياسي أن يضع العوائق في مجرى الثقافة نفسها فاستبحرت وضربت بسهم وافر في كل ناحية. إلا أن أثر الاستبداد ظهر في تثبيط الهمم عن علاج المسائل المتعلقة بأصل الحكم، ومن ثم اشتغل المسلمون بألوان من الترف العقلي، وعكفوا علي البحوث الفلسفية والنظرية والفرعية مما لا يضير الحكام المجرمين أن تؤلف فيه المجلدات الضخام".

(محمد الغزالي، "الإسلام والاستبداد السياسي")

- "من دلائل أن أولئك الأكابر مغروررون مخادعون يظهرون ما لا يبطنون أنهم لا يستصنعون إلا الأسافل الأراذل من الناس، ولا يميلون لغير المتملقين المنافقين من أهل الدين كما هو شأن صاحبهم المستبد الأكبر، ومنها أنه قد يوجد فيهم من لا يتنزل لقليل الرشوة أو السرقة، ولكن ليس فيهم العفيف عن الكثير، وكفي بما يتمتعون من الثروات الطائلة التى لا منبت لها غير الجاه برهانا فاضحا لو كانوا يستحون، ومنها أن ليس فيهم غير المستبيح المفاخر بمشاركة المستبد في امتصاص دم الأمة، وذلك بأخذهم العطايا الكبيرة، والرواتب الباهظة التى تعادل أضعاف ما تسمح به الإدارة العادلة لأمثالهم".

(عبد الرحمن الكواكبي، "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد")

- "وبما أن الخوف هو مبدأ الحكومة المستبدة فإن السكون هو هدفها. وليس هذا سلماً أبدا، بل إنه صمت المدن التى يوشك العدو أن يستولي عليها.. وللدين في هذه الدول من التأثير ما ليس في سواها، فهو فزع مضاف إلي فزع.. ومن جميع الحكومات المستبدة لا تجد واحدة تثقل كاهل نفسها أكثر من التي يعلن الأمير فيها أنه مالك جميع الأرضين ووارث جميع رعاياه، وذلك لما يؤدي إليه دائما من ترك الزراعة. وإذا كان الأمير تاجرا قضي، فضلا عن ذلك، علي كل نوع من أنواع الصناعة".

(مونتسكيو، "روح القوانين")

عندما كنت عميدا لكلية اللغات والترجمة أصدرت إدارة الجامعة قرارين في غاية التناقض، أولهما يقضي بعدم انتداب أساتذة من النساء للتدريس بالكلية، والثاني يقضي بأن تأتي الطالبات الملتحقات بالدراسات العليا المتخرجات من كلية الدراسات الإنسانية (بنات) للدراسة عندنا. ولما كان القرار الأول قد سبب لنا مشكلة كبيرة فيما يتعلق بالجداول الدراسية توجهت إلي نائب رئيس الجامعة لشئون الطلاب وهو رجل كنت أقدره لعلمه وأحبه لرحابة صدره وإنسانيته، وإن كنت أعرف أن بعض القرارات يمكن أن تكون مفروضة عليه من مراكز القوي الأخرى بالجامعة. دار بيننا الحوار التالي:

- ألا تعرف الجامعة أن منع انتداب السيدات يؤثر علينا كثيرا لأن بعض الأقسام، وخاصة في الدراسات العليا، بها نقص كبير في عدد أعضاء هيئة التدريس، وكثير من الأساتذة مسافرون في إعارات للخارج؟
- أعتقد أنه بالإمكان تجنب هذه المشكلة بانتداب أساتذة من الذكور.
- معظمهم لا يوافقون علي الانتداب لأن أجر المحاضرة مازال إلي الآن في حدود ثلاثة أو أربعة جنيهات، والجامعات الخاصة تعطي في المحاضرة الواحدة مائة جنيه تقريبا. والشخص الذي يوافق علي الانتداب هو ذلك الذي يسعد فقط أن يقوم بالتدريس في الأزهر.
- أنا أستطيع أن أذهب معك إلي نائب رئيس جامعة عين شمس ونطلب منه أن يمدنا بعدد من الأساتذة.
- لم يعد هذا الأسلوب مجديا الآن. فنائب رئيس الجامعة لا يملك أن يفرض علي الأساتذة نوعا معينا من الانتداب لاسيما ونحن نعيش

زمن الجامعات الخاصة. ثم إني ذهبت إلي عمداء الكليات المناظرة ولم أصل إلي بغيتي. ولهذا فإن انتداب أساتذة من السيدات يجعل مساحة الحركة أوسع.

- لكن قرار الجامعة واضح، وهو عدم انتداب السيدات للتدريس في كليات البنين.
- فعلي أي أساس بنيتم هذا القرار؟
- علي أساس القاعدة الفقهية التي لا تبيح الاختلاط بين الرجال والنساء.
- وهل تنطبق هذه القاعدة الفقهية فقط علي القواعد من النساء اللاتي لا يرجون نكاحا؟
- كيف ذلك؟
- لأن هناك قراراً آخر أصدره نائب رئيس الجامعة للدراسات العليا والبحوث يقضي أن تدرس طالبات الدراسات العليا من كلية البنات عندنا فهل هذه القاعدة تنطبق علي السيدات الطاعنات في السن ولا تنطبق علي البنات؟

لم يرد السيد الدكتور نائب رئيس الجامعة ولم يتنازل عن قراره، وبما أنه كان هو المسئول عن التصديق علي الجداول الدراسية فإنه لم يعط توقيعه علي المذكرة الخاصة بذلك إلا بعد أن قمت بإلغاء انتداب السيدات، ورفعت أسماءهن من الجداول وتصرفت بطريقة تتيح لمن قاموا بالتدريس من أول العام الدراسي أن يصرفوا مستحقاهم المالية. صحيح أن هذا العمل استغرق عدة أشهر، ولكن من في بلادنا همه مصلحة الطرف الضعيف، وهذا الطرف هنا

هم الطلاب الذين يقع عليهم عبء التضارب في القرارات والالتزام بالشكليات، والاستسلام للروتين الذي لا يرحم.

واقعة أخري أذكرها قبل أن أتوقف عند أوضاعنا المتناقضة الشكلية التى صارت هي الأساس في معظم تصرفاتنا. ذهبنا ذات مرة لزيارة صديق وأسرته، وتصادف أن وجدنا عنده بنت أخته وهي تعمل أستاذة في كلية الطب. كانت منتقبة. وعندما أحضر الكيك والشاي وجدها تطلب من ابنتها أن ترفع لها طرف النقاب من تحت ذقنها حتى تستطيع أن تتناول الكيك وتشرب الشاي. تعجبت كثيرا للحال التى وصلنا إليها: فهذه الأستاذة الجامعية كيف تستطيع أن تحاضر طلابها في كلية الطب؟ ثم إنها وهي التى قاربت الخمسين من عمرها منتقبة هكذا وتحتاج إلي من يساعدها في الأكل والشرب، أما ابنتها البالغة من العمر اثنين وعشرين عاما فهي محجبة فقط، هذا الحجاب الذي هو – في رأيي – مجرد تغطية للرأس، أما بقية اللبس فعبارة عن بنطلون محزق، وبلوزة تشف أكثر مما تغطي. فهل النقاب للمرأة التى قاربت سن اليأس أو بلغته فعلا، والحجاب بالطريقة التى أشرت إليها للمرأة في ريعان شبابها؟ ولا شك أن هناك شابات كثيرات منتقبات أيضا، ولكنهن بالنسبة لنا نحن أعضاء هيئة التدريس مشكلة كبيرة. فالطالبة المنتقبة إذا تكلمت لا يسمع صوتها إلا بصعوبة بالغة، ويبدو أن هناك ارتباطا قويا بين النقاب وبين رفع الصوت، فإذا كانت تحجب وجهها عن الناس فإنه من الطبيعي أن تمنع صوتها كذلك. ولا أدري لماذا يخرج هؤلاء من بيوتهن ويذهبن إلي قاعات الدرس؟!.

أوضاعنا حقيقة كلها صارت مشكلة، ومعظم الأشياء قائمة علي التناقض الرهيب. عندما نشأنا لم تكن هذه الأوضاع موجودة علي الإطلاق.

كانت المرأة تساعد زوجها في الحقل، وتتكفل بأعمال البيت، وكان لبسها عاديا محتشما. الآن تذهب إلي الريف فتجد المنقبات. وأذكر أني ذات مرة جاءتني امرأة فقيرة تريد أن تعمل ساعية في أحد المعاهد الأزهرية بالقرية حتى تساعد زوجها في عول أولادهم الكثيرين. قلت لها: كيف تعملين ساعية وأنت منقبة؟ أم أنهم سوف يوفرون لك ساعية أخري للقيام بعملك؟ أصرت علي أن تظل هكذا، فقلت لها: إن المسئولين في المعهد لا يستطيعون تعيينك ساعية وأنت منتقبة. علمت بعد ذلك أن زوج هذه المرأة أخرج أولاده كلهم من المدارس لأنه يري أن التعليم فساد وإفساد. وهذه – للأسف – نماذج موجودة ومنتشرة الآن في القرى والمدن وفي كل مكان.

كان أساتذتنا في معهد طنطا الإعدادي يرتدون من اللبس أروعه وأفضله سواء كان اللبس الأزهري التقليدي (الجبة والقفطان والعمامة) أو اللبس الأفرنكي، وكان شيخ المعهد يفوق الجميع أناقة وتألقا ونظافة وهنداما. وكان الوضع كذلك في معهد طنطا الثانوي. كان كل شيء منضبطا، وكل شخص يقوم بواجبه خير قيام: المدرس، والمراقب، والملاحظ، وشيخ المعهد. لم تكن الدروس الخصوصية قد ظهرت بعد، ولهذا كان المدرس يقوم بواجبه كما ينبغي، وكان لدي الناس قناعة وحكمة ورؤية ناضجة وأخلاق عالية. لم تكن تحولات الانفتاح والبيزنس والجري وراء المصالح الشخصية قد ظهرت بعد. وكانت الشخصية المصرية تتمتع بالقناعة والرضا والألفة والوسطية. كان الفكر السلفي المتزمت بعيدا عن عقولنا وتفكيرنا، فما الذي أدخلنا في هذه الدائرة العبثية التى بات من الصعب الخروج منها؟!. مظاهر شكلية اجتاحت المجتمع، وخلفها عالم كامل من العفن، وتردي الأخلاق، وسوء السلوك، والفوضى، والانحلال، والتخلف، والتشدد، والتعصب، وعدم قبول الآخر،

والنفاق، والتزلف، والصمت، أو المجاراة، وسياسة القطيع، وتحلل الشخصية، والجري وراء المنافع. فهل هذه هي مصر؟ لم تكن مصر هكذا علي الإطلاق.

وبعض الناس يقولون إن وراء كل هذه التحولات السلبية ما يسمي بالفقه البدوي أو فقه الصحراء. ويبدو أن هذا السبب المباشر شد نظر الصلادم فوجدته يأتيني مسرعا وفي عينيه أسئلة كثيرة وتأملات وأفكار. ولم ينتظر إلا ريثما عدَّل من هيئته ثم قال:

- وهل تنكر أن فقه الصحراء وراء ما حدث عندكم من تزمت وتشدد؟
- أعترف أن له دوراً، لكنه – في رأيي – محدود جدا.
- كيف يكون محدودا وأنت بنفسك تعرضت لبعض المواقف عندما كنت تعمل في جامعة الملك سعود بالرياض؟
- نعم تعرضت لمواقف أذكر لك منها أربعة: أولها عندما ذهبنا إلي الرياض توجهنا لشراء موبيليات قديمة من الحراج. وعندما أذن لصلاة العصر دخلنا المسجد للصلاة وتخلف أحدنا وعندما انتهينا لم نجده فسألنا عنه فقيل لنا إنه حمل في البوكس لأنه كان يمشي في السوق وقت الصلاة. المرة الثانية كنت أمشي مع زوجتي المحجبة في أحد شوارع الرياض فمرت علينا سيارة "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر". وجدهم توقفوا بمحاذاتنا ووجدهم يسألونني: يا أستاذ، لماذا تسير زوجتك بدون شراب في رجليها، وكان يمكن أن أرد عليهم: وأنتم لماذا نظرتم إلي رجليها؟!، ولكني أردت أن أنهي الموقف بسرعة فقلت لهم: إننا ذاهبون إلي السوق لشراء شراب من أجل هذا الغرض. وذات يوم كنت أتجول في سوق تجاري ولم أكن متوضئا،

وعندما أذن لصلاة العشاء قلت لنفسي: سوف أقضي الوقت في مشاهدة المعروضات إلي أن تنتهي الصلاة، ولكني فوجئت بشخص يقترب مني ويقول لي: لماذا لم تدخل المسجد للصلاة؟ قلت له: إن صلاة العشاء ممتدة إلي الفجر وأنا لن أصلي الآن. دخل معي في جدال ولكني كنت مصرا علي موقفي فتركني ومضي لحاله. الموقف الرابع: دخلت ذات مرة أحد المساجد لأداء صلاة العشاء وكانت معي جريدة "الحياة" فوجدت شابا في العشرين من عمره يقترب مني ويقول لي: لا يجوز لك أن تمكث في المسجد وأنت تحمل جريدة بها صور. في هذا اليوم كنت متضايقا فلم أشأ أن أرد عليه وأدخل في حوار معه فغادرت المسجد وأنا أقول لنفسي: الصلاة في البيت أفضل.

- كل هذه المواقف، ومع ذلك تقول إنك غير مؤمن بمقولة "الفقه البدوي" أو "الفقه الصحراوي".
- لأن القضية أعمق من ذلك بكثير أيها الصلادم.
- ما هي القضية إذن؟
- القضية، يا عزيزي، هي أن الاستبداد يؤدي إلي فساد كل شيء. وقد ذكرت في فصل سابق كلمة ميجيل آنخل أستورياس الحاصل علي نوبل في الآداب عام **1967** عندما تحدث عن روايته المشهورة "السيد الرئيس" فقال: "إن الدكتاتور يعمل علي إفساد الجميع، وشراء كل الذمم، وترويع الناس وتحويلهم من أشخاص إلي كائنات ميكانيكية خالصة، وإلي متعصبين شديدي المغالاة في تعصبهم، وإلي انتهازيين قساة".

- أيضا عبد الرحمن الكواكبي في كتابه "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" تحدث عن كيفية إفساد الاستبداد للدين. وقد قال في ذلك: "الاستبداد ريح صرصر فيه إعصار يجعل الإنسان كل ساعة في شأن، وهو مفسد للدين في أهم قسميه أي الأخلاق. وأما العبادات منه لا يمسها لأنها تلائمه في الأكثر. ولهذا تبقي الأديان في الأمم المأسورة عبارة عن عبادات مجردة صارت عادات، فلا تفيد في تطهير النفوس شيئا، ولا تنهي عن فحشاء ولا منكر لفقد الإخلاص فيها تبعا لفقده في النفوس التى ألفت أن تتلجأ وتتلوي بين يدي سطوة الاستبداد في زوايا الكذب والرياء والخداع والنفاق. ولا يستغرب في الأسير الأليف تلك الحال، أي الرياء، أن يستعمله أيضا مع ربه، ومع أبيه وأمه ومع قومه وجنسه، وحتى مع نفسه".
- ولهذا تأمل معي، أيها الصلادم، لماذا لم ينتشر التشدد والتزمت والتعصب إلا في العقود الأخيرة التى شهدت أسوأ مرحلة مر بها العرب في تاريخهم؟ ومصر التى كان يفترض أنها رائدة العرب نحو التقدم والازدهار وصلاح الحكم والسياسة وقعت في براثن حكم استبدادي متلون أو قل ذي وجهين: وجه مزخرف مزين يقدم للإعلام وللعالم الخارجي، ووجه حقيقي بشع يمثل أسوأ استبداد شهدته الدول في العصر الحديث، لأن الاستبداد الواضح السافر مواجهته أسهل من مواجهة الاستبداد المتخفي خلف أقنعة براقة.
- وكيف لبس النظام هذه الأقنعة؟
- لبسها بطريقة لا يقدر عليها الجان أنفسهم. فالمسئولون الكبار – كما فصَّلت من قبل – يختارون عن طريق الأمن، وبمواصفات وشروط

محددة تجعلهم يأنفون من الحرية ولا يرغبون فيها لأن هدفهم الأول هو المنصب. ومسئولو الأجهزة الإعلامية والصحف الحكومية يختارون بنفس المواصفات ولهذا يكون هدفهم الأول والأخير هو التسبيح بحمد الدكتاتور، ونشر صوره في العمَّال والبطال، وترسيخه في نفوس الناس. وإني لأعجب أشد العجب عندما يخطب السيد الرئيس فتصدر الجرائد في اليوم التالي ممتلئة بصوره وأقواله مع أنه كله كلام إنشائي لا قيمة له كتبه له أحد أتباعه المخلصين. ومن العجيب أن ما يحدث في جرائدنا الموقرة لم يكن يحدث إلا في العراق أيام صدام حسين. كذلك فإن هذه الجرائد طافحة بالفساد. أين "الأهرام" التى كنا نقرأها في سالف الأزمان؟ لقد تحولت إلي كيان مرعب: كاتبات لم يسمع بهن أحد يملأن صفحات كاملة. وكاتبة صحفية محدودة القيمة تملأ صفحة إلا قليلا. أين نحن من أيام يوسف إدريس، ونجيب محفوظ، وزكي نجيب محمود، ولويس عوض وعمالقة الفكر والسياسة؟. ومن أعجب ما نراه أن رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير يتزل عليهما الوحي فجأة عند اعتلاء المنصب فيكتب كل منهما مقالات تسبح بحمد النظام وتخترع التبريرات، وعندما تتم إزاحتهما ويأتي غيرهما نري أن المقالات الطويلة قد نزل عليها التخفيض فجأة وانزوت في مساحة ضيقة. فهل الكتابة مرتبطة بالمنصب أم أننا أمام حالة عجيبة صنعها الفساد والدكتاتورية؟ .إن مصر هي بلد العجائب!!.

- وهل هناك أقنعة أخري لهذا النظام؟

- لعل أخطر الأقنعة هو القناع الديني، كذلك القناع الفني. لقد أراد النظام أن يتخلص تماما من شيء اسمه العلم وشيء اسمه الثقافة. ومن أجل ذلك وظَّف عددا من الإجراءات من بينها القضاء علي التعليم، وفتح القنوات علي مصاريعها لرجال الدين من أصحاب الثقافة المحدودة، ولرجال الفن من الممثلين والممثلات، فصار هؤلاء هم نجوم المجتمع بينما انزوي المثقفون في حارات ضيقة يعرف النظام جيدا أن تأثيرها لن يتعدي حدود الحارة مثل المهرجانات الثقافية والمؤتمرات، ومكتبة الأسرة. وكان النظام حريصا كل الحرص علي أن يتولي إدارة هذه الأشياء أناس ممن يثق فيهم الأمن وتنطبق عليهم الشروط المحددة. وقد قام هؤلاء بأدوارهم خير قيام وجروا جمهرة المثقفين إلي فعاليات لا طائل من ورائها. وكان فاروق حسني هو الشخصية المؤهلة للإمساك بمفاتيح الحظيرة الكبرى التى دخلها المثقفون فرادي وجماعات ظانين بذلك أنهم طرف مهم في إدارة أعمال الثقافة مع أنهم – في الحقيقة – بائسون لا حول لهم ولا قوة.
- وبذلك أصبح نجوم المجتمع الحقيقيون هم رجال الدين، ورجال الفن الذين صاروا يقدمون النماذج العليا للشباب. هؤلاء يدخلون الناس في صراعات وهمية عن طريق الصور المتحركة، وأولئك يتجاوزون مشاكل اليوم للحديث عما ينتظرهم في الدار الآخرة. ولاشك أن هذا يسعد الدكتاتور لأنه يباعد بين الناس وبين مشاكلهم الحاضرة، ويدخلهم في أشياء غيبية تجعلهم راضين بالظلم والخضوع والخنوع والاستسلام.

- وهذا ما حذر منه عبد الرحمن الكواكبي عندما قال: "إن جرثومة دائنا هي خروج ديننا عن كونه دين الفطرة والحكمة، دين النظام والنشاط، دين القرآن الصريح البيان إلي صيغة أننا جعلناه دين الخيال والخبال، دين الخلل والتشويش، دين البدع والتشديد، دين الإجهاد. وقد دب فينا هذا المرض منذ ألف عام، فتمكن فينا، وأثر في كل شئوننا، حتى بلغ فينا استحكام الخلل في الفكر والعمل أننا لا نري في الخالق جل شأنه نظاما فيما اتصف، نظاما فيما قضي، نظاماً فيما أمر، ولا نطالب أنفسنا، فضلا عن آمرنا أو مأمورنا، بنظام وترتيب واطراد ومثابرة. وهكذا أصبحنا واعتقادنا مشوش، وفكرنا مشوش، وسياستنا مشوشة، ومعيشتنا مشوشة، فأين منا، والحالة هذه، الحياة الفكرية، الحياة العملية، الحياة العائلية، الحياة الاجتماعية، الحياة السياسية؟".
- وها أنت تري، أيها الصلادم، أن الدين الإسلامي، خلال العقود الأخيرة، قد تم إفراغه بالكامل من أركانه الجوهرية ليتحول إلي طقوس شكلية، وأقوال فارغة المضمون، تبدو كأنه لا هدف من ورائها إلا إرضاء الحاكم الفرد وزبانيته.
- وما هي هذه الأركان الجوهرية للإسلام؟
- أول ركن يا عزيزي هو الحرية. لقد أعطي الإسلام للناس حق الاختلاف مع التعاليم الإلهية نفسها، ومصداق ذلك قوله تعالي: "فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر"، وقوله تعالي علي لسان نبيه عليه السلام: "وإنا أو إياكم لعلي هدي أو في ضلال مبين. قل لا تسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون". وانظر كيف

استخدمت كلمة "أجرم" في جانب الدعوة وكلمة "تعمل" في جانب المكذبين. أليست هذه درجة عالية جدا من الحرية لا يقدر عليها إلا من أنزل كتابه لهداية البشر ومنحهم الحرية الكاملة في الإيمان بالدعوة أو الكفر بها؟

- لا تنس أن العرب كانوا يعيشون في الصحراء، وكانت الحرية عندهم قيمة لا تعدلها أي قيمة أخري. ولهذا كتب مونتسكيو فصلا تحت عنوان "حرية العرب وعبودية التتر" (روح القوانين، الفصل التاسع عشر) جاء فيه: "العرب والتتر من شعوب الرعاة، وتطبق الأحكام العامة التى تكلمنا عنها علي العرب. فهم أحرار، وذلك علي حين يوجد التتر (الذين هم أغرب شعوب الأرض) في العبودية السياسية".
- وأيضا، أيها الصلادم، كتب عبد الرحمن الكواكبي شيئا قريبا من هذا عندما قال: "أما الحكومات البدوية التى تتألف رعيتها كلها أو أكثرها من عشائر يقطنون البادية ويسهل عليهم الرحيل والتفرق متى مست حكومتهم حريتهم الشخصية وسامتهم ضيما ولم يقووا علي الاستنصاف، فهذه الحكومات قلما اندفعت إلي الاستبداد. وأقرب مثال لذلك أهل جزيرة العرب، فإنهم لا يكادون يعرفون الاستبداد من قبل عهد ملوك تبع وحمير وغسان إلي الآن إلا فترات قليلة. وأصل الحكمة في أن الحالة البدوية بعيدة بالجملة عن الوقوع تحت نير الاستبداد هو أن نشأة البدوي نشأة استقلالية، بحيث كل فرد يمكنه أن يعتمد في معيشته علي نفسه فقط".

- أيضا هناك كلمة عمر بن الخطاب الخالدة عندما قال لعمرو بن العاص في الواقعة المشهورة: "مني استعبدتم الناس وقد ولدهم أمهاهم أحراراً"، بل إن عمر أعطي السوط لابن المواطن المصري كي يضرب ابن الأكرمين، أي ابن عمرو بن العاص) قصاصا لنفسه. ولهذا رحبت الشعوب بالفتح الإسلامي لأنه خلصها من نير الاستعباد.
- أيضا القيمة الأخرى الجوهرية في الإسلام هي "العدالة الاجتماعية". وقد تجسد هذا المبدأ الإنساني الرفيع في خطبة الوداع التى جاء فيها: "أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، لا فضل لعربي علي عجمي إلا بالتقوى". فالناس – كما جاء في الخطبة – سواسية كأسنان المشط، ربما تتفاوت حظوظهم بالغني أو الفقر، ولكن التكافل الاجتماعي موجود في الإسلام بصورة لا مثيل لها، لدرجة أن الحضارة الحديثة لم تتوصل بعد إلي إجراءات مثل تلك الموجودة في الإسلام.
- وإذا كان الأمر كذلك فما الذي أوقعكم فيما أنتم فيه الآن من تفاوت طبقي رهيب؟
- لذلك أسباب كثيرة أيها الصلادم، أذكر لك هنا بعضها فقط:

وأولها – في نظري – هو أن علماء الدين عندنا حاليا ينقسمون إلي قسمين لا ثالث لهما: قسم يعمل مع السلطة، ويتعاون مع أجهزة الأمن، ويقدم تبريرات لكل ما يفعله أهل السلطان، وهؤلاء يطلق عليهم الناس اسم علماء السلطان. ولا أعتقد أن التاريخ شهد فترة أسوأ من هذه فيما يتعلق بهذا الموضوع. لقد استطاع النظام الاستبدادي أن يقضي علي الأزهر قضاء مبرما. وإذا كنت لا

تصدقني فانظر وتأمل فيما حولك. هل تجد في الأزهر الآن شيخا يستولي علي القلوب بفكره وعلمه وثقافته وعمله من أجل الناس، علي النحو الذي كان موجودا من قبل: الشيخ محمود شلتوت، والدكتور محمد عبد الله دراز، والدكتور محمد البهي، والشيخ محمد الغزالي، والشيخ محمد متولي الشعراوي وغيرهم؟ الأزهر الآن يا عزيزي أصبح منطقة قفراء قاحلة بعد أن أثمرت سياسة الاستبداد البشعة فأزالت أو أزاحت العلماء الحقيقيين أصحاب الرؤى والمواقف وجاءت بمشايخ يدينون بالولاء للنظام الدكتاتوري وللحزب الوطني. وبالطبع فإن هؤلاء المشايخ المعينين من قبل السلطات الاستبدادية لا يمكن أن يظهر لهم صوت يتحدث، ولو مجرد حديث، عن تزييف إرادة الشعب، وتزوير الانتخابات، وتوزيع ثروات الوطن علي الأتباع والمحاسيب، وإذلال الفقراء، والنزول بمكانة مصر إلي الحضيض لدرجة أن دولة صغيرة مثل قطر صارت صاحبة مكانة في العالم تتصدر كل المواقع. فهل هؤلاء المشايخ الذين يحسبون الآن علي الأزهر يمكن أن يكون لهم رأي في أي شيء؟!.

- وماذا عن القنوات الفضائية؟
- مشايخ القنوات الفضائية يا عزيزي صاروا من الرأسماليين الكبار، وبعضهم يمتعون أنفسهم بكل الطيبات، يتزوجون من أربع، ويبنون فيلا لكل زوجة، ويؤدون الحج والعمرة في طائرات خاصة. ولأن الأمية والجهالة هما السائدتان في مجتمعاتنا البائسة فإنهم يحفظون الكثير من الأقوال التى يستخدمونها في أحاديثهم، يدغدغون بها أحاسيس العامة والدهماء، ويجرون الناس بعيداً عن المشاكل اليومية

الطاحنة التى يتعرضون لها، وأولها في القاهرة الكبرى حاليا أزمة المرور حيث تعود الناس علي أن الطريق الذي ينبغي أن يقطع في ربع ساعة يمكن أن تأخذ ساعتين أو أكثر تهلك خلالها الأعصاب ويتحول الناس أو قادة السيارات إلي كائنات مضغوطة لا قدرة لها علي التصرف وهذه هي قمة المأساة في مجتمع يستورد أحدث أنواع السيارات.

- هناك أيضا شيء آخر أريد أن أوجه نظرك إليه وهو أن مشايخ الفضائيات استحدثوا ظواهر جديدة لها تأثير قوي وغريب جدا علي أفراد الناس مثل تنغيم القراءة عند تلاوة آية قرآنية، والانفجار في البكاء مما يجعل الناس وراءهم، إذا كان هذا في الصلاة، ينفجرون أيضا في بكاء شديد، وتطويل الدعاء لاسيما في ليالي رمضان بحيث يصل دعاء الركعة الأخيرة للتراويح إلي نصف ساعة أو ساعة وربما أكثر من ذلك.
- هذه أيضا من العجائب التى تعود الناس عليها الآن، واعتقدوا أنها من الدين. فتطويل الدعاء بهذه الصورة يمكن أن يحدث إذا كان الإنسان يصلي وحده، فيمكنه أن يقرأ ما يشاء ويدعو كما يشاء، أما أن يفرض هذا علي الناس فهو نوع من القهر الذي يمارس في كل مكان في بلادنا. لقد حفظنا في الأزهر دعاء القنوت، وكنت شافعي المذهب، وهذا الدعاء لا يزيد عن دقيقتين. وقد ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ في كتابه "البيان والتبين" (ص 94) قال: "قال المفضل بن محمد الضبي قلت لأعرابي منا: ما البلاغة؟ قال الإيجاز في غير عجز، والإطناب في غير خطل. قال ابن الأعرابي فقلت

للمفضل: ما الإيجاز عندك؟ قال: حذف الفضول، وتقريب البعيد. قال ابن الأعرابي: قيل لعبد الله بن عمر: لو دعوت لنا بدعوات؟ قال: "اللهم ارحمنا وعافنا وارزقنا". فقال رجل: لو زدتنا يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: "نعوذ بالله من الإسهاب".

- هذا شيء مهم جدا. لقد كان كبار الصحابة يستحيون من الله، أما علماء آخر الزمان فإنهم يريدون أن يقوم الله بكل شيء نيابة عنهم، فهو يطيلون في الدعاء علي الأعداء بأن ينتقم الله منهم، ويفرقهم بدداً، ولا يبقي منهم أحداً.. الخ. فهل يختلف هؤلاء عن بني إسرائيل الذين خاطبوا نبيهم موسي قائلين: "اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون"؟!.
- أيضا هؤلاء الذين ينفجرون في البكاء أيها الصلادم، ويجعلون الناس خلفهم في الصلاة أو أمامهم في الدرس يبكون وينتحبون أحدهم عندما أشاهده علي شاشة التلفاز يفعل ذلك أتذكر تربي الأيام الغابرة عندما كان يتقدم إلي زوجة الميت عند مقبرته فيقرأ وينتحب حتى يكون نصيبه من "قرص" الرحمة أكبر. الآن هذا التربي صار شخصية مهمة تخطب وده القنوات الفضائية وتمنحه أجورا عالية جدا يساوم عليها إذا لم تعجبه. وبدلا من الملابس الممزقة صار يرتدي أفخم الملابس ويضع رابطة العنق الفاخرة، ويعيش حياة مرفهة. أما الآخرون من أصحاب الذقون الطويلة، والملابس المقصرة، وعلامة الصلاة المرسومة علي الجبهة فهؤلاء لهم جمهورهم العريض أيضا الذي يأخذ كلامهم بوصفه تعليمات إلهية صارمة ولا مجال للنقاش حولها.

- للأسف الشديد هذا هو الإسلام الآن الذي استغلته الأنظمة الاستبدادية لإحكام قبضتها علي الناس. ومن العجيب أن شعوبكم البائسة لديها استعداد لتصديق أي شيء. ويبدو أن هذا هو حالها منذ القديم. فأمير الشعراء أحمد شوقي في مسرحيته "أنطونيو وكليوباترا" قدم مشهدا يمثل هذه الحالة خير تمثيل. قالت كليوباترا تخاطب وصيفتها شرميون متحدثة عن الشعب الذي يصدق كل شيء حتى ولو كان مجرد أكاذيب وأوهام:

انظري يا شرميـــــون	كيف يوحـــون إليــــه
ملأ الجو هتـــــــافا	بحيـــــاتي قاتلـــيــه
أثر البـــهـــتان فيـــه	وانطلي الــــزور عليــه
يالـــه مــــن ببغـــاء	عقـــلـــه في أذنـــيــه

- وأسوأ من ذلك أيها الصلادم، أن الخروج من وضعنا الحالي بات أمراً في غاية الصعوبة. فنحن محتاجون أولا إلي إقناع الطبقة المثقفة والمتعلمة بأن عليهم واجبا تجاه هذا المجتمع، ومحتاجون إلي بث روح جديدة في الأزهر تقضي علي العنكبوت الذي ملأ كل الأركان، ومحتاجون إلي إقناع الناس بأن من حقهم المطالبة بحقوقهم، وأول حق لهم هو حق المواطنة بمعني أن يكون الإنسان سيداً في وطنه، وألا يترك لأي شخص كائنا من كان أن يتحكم في مصيره. لا يعقل أن نعيش في القرن الواحد والعشرين ومازال يتحكم فينا رجال السلطة والأمن.
- ولكن رجال السلطة والأمن يحافظون علي الاستقرار والأمن في البلد وإلا تحولت البلاد إلي صومال أخرى.

- هذا صحيح، ولكن هناك دساتير وقوانين تحكم كل شيء. فلا يمكن أن تقوم فئة ما بتنفيذ رؤاها الخاصة بعيدا عن مواد الدستور والقانون. الناس حاليا في كل أنحاء العالم متساوون في الحقوق والواجبات ولهذا لا يمكن أن تتحول دولة مثل فرنسا أو انجلترا أو الولايات المتحدة الأمريكية إلي صومال أخري، علي الرغم من أن كل مواطن يمتلك الحرية الكاملة في التصويت وإبداء الرأي وكل شيء. فالدساتير والقوانين تحدد مدد الرئاسة، وكل ما يتعلق بشئون الفرد والمجتمع. ولهذا انظر في أمريكا مثلا كم رئيسا تغير هناك منذ عهد جيمي كارتر إلي الآن (ستة رؤساء بعضهم أخذ مدتين) بينما نحن مازلنا تحت حكم حسني مبارك الذي يخطط لفترة رئاسية سادسة من ست سنوات طبعا وعمره الآن ثلاثة وثمانون عاما، أو لعله يخطط لتوريث الحكم لابنه جمال مبارك. كل شيء جائز في بلادنا الميمونة!!. وفي كلتا الحالتين سوف نظل ذلك الشعب المقهور الذي يتحكم في تشريعاته برلمان ليس فيه معارضة، وحكومة لا تعبر حتى عن الحزب الذي تُنسب إليه بقدر ما تعبر عن رغبة الرئيس صاحب القرار الأوحد، والناس تعيش في غلاء طاحن، وتتحرك داخل البلد بصعوبة بالغة، فأنت يمكن أن تقطع المسافة من الزمالك لمصر الجديدة في ساعتين، وهو نفس الوقت الذي يمكن أن تأخذه من إيتاي البارود إلي القاهرة. فهل هناك منطق يحكم تحرك الأشياء في بلادنا؟
- كان الله في عونكم، فأنتم شعوب مقهورة، مستعبدة، ومن العجيب أن من استعبدكم شخص لم يحلم في أي يوم أن يكون رئيسا وأن يظل علي رأس السلطة لمدة ثلاثين عاما. ومن يدري فربما يواصل

التحكم في رقابكم إلي أن يبلغ التسعين من عمره. فهل في العالم شعب مثلكم؟

- لقد أصيب الشعب المصري بالاكتئاب، يا عزيزي، بعد أن جفت كل الينابيع، ولم يعد يتحرك إلا شيء واحد هو السيطرة الكاملة علي البرلمان، وتوسيع دائرة النفوذ، وزيادة التفاوت الطبقي، وتغول الفساد، وانهيار التعليم والصحة، وضرب العقول الأبية المفكرة لصالح أصحاب المنافع والانتهازيين وذوي النفوس الضعيفة الذين جعلوا مستقبل الوطن آخر شيء يمكن أن يمنحوه بعض الاهتمام.

تمت والملحق الذي وعدت به القارئ سوف
ينشر إن شاء الله في كتاب مستقل.
القاهرة في **2010/12/23**

سيرة ذاتية

- الاسم بالكامل: حامد حامد يوسف أبو أحمد
- اسم الشهرة: د. حامد أبو أحمد

المؤهلات الدراسية:

- ثانوية أزهرية عام **1969** بترتيب أول الجمهورية.
- الليسانس فى اللغة والأدب الأسبانى من كلية اللغات والترجمة – جامعة الأزهر عام **1973** بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف.
- الليسانس من قسم اللغة الأسبانية من كلية فقة اللغة بجامعة مدريد المركزية **complutense** عام **1978** من خلال امتحان شامل بعد معادلة بعض المواد التى درست من قبل بجامعة الأزهر.
- رسالة (الماجستير) من القسم المذكور بجامعة مدريد بتقدير ممتاز، وكان عنوان الرسالة "مسرح أنطونيو بويرو باييخو – تحليل لمسرحية (المنور) "**ELTRAGALUZ**".
- الدكتوراه فى الأدب الأسبانى من جامعة مدريد المذكورة فى مارس عام **1983** بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف، وكان عنوان الرسالة "جوانب فى شعر خوان رامون خيمينيث".
- العمل مدرسا بكلية اللغات والترجمة – جامعة الأزهر بعد العودة من البعثة والترقية إلى درجة أستاذ مساعد عام **1989**، ثم الترقية إلى أستاذ عام **1994**، ورئيسا لقسم اللغة الأسبانية من عام **1998** إلى **2004/9/16**،

والعمل بجامعة الملك سعود معارا إلى كلية اللغات والترجمة خلال الفترة من عام **1992** إلى **1998**.

- عميد كلية اللغات والترجمة – جامعة الأزهر من **2004/10/27**م إلى **2006/10/27**م.
- عضو مجلس إدارة اتحاد كتاب مصر وعضو نادى القصة، وجمعية الأدباء.
- الاشتراك فى كثير من المؤتمرات العلمية داخل مصر وخارجها فى مجال الثقافتين العربية والإسبانية.

الأعمال العلمية تأليفا وترجمة:

أولا : المؤلفات:

1– رائد الشعر الأسبانى الحديث خوان رامون خمينيث، دار الفكر العربى، القاهرة، عام **1986**.

2– دراسات نقدية فى الأدبين العربى والأسبانى، دار الفكر العربى، القاهرة، عام **1987**.

3– عبد الوهاب البياتى فى أسبانيا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت عام **1991**.

4– قراءات فى أدب أسبانيا وأمريكا اللاتينية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، عام **1993**.

5– نقد الحداثة، كتاب الرياض، الرياض، عام **1994**، الطبعة الأولى والطبعة الثانية، القاهرة، **2006** وهى طبعة مزيدة.

6- الخطاب والقارئ – نظريات التلقى وتحليل الخطاب وما بعد الحداثة، كتاب الرياض، الرياض عام 1996، والطبعة الثانية نشرها مركز الحضارة العربية بالقاهرة عام 2003.

7- مسيرة الرواية فى مصر، الجزء الأول، هيئة قصور الثقافة، القاهرة عام 1999.

8- مسيرة الرواية فى مصر، الجزء الثانى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة عام 2001.

9- عبد الوهاب البياتى – القيثارة والذاكرة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة عام 2000.

10- فى الواقعية السحرية، دار سندباد للنشر والتوزيع، القاهرة، عام 2002.

11- شعر السبعينات فى أسبانيا، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، عام 2002.

12- قراءات فى القصة القصيرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، عام 2006.

13- تحديث الشعر العربى "تأصيل وتطبيق"، هيئة قصور الثقافة، القاهرة، 2004.

14- غرناطة فى ذاكرة النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2007.

ثانيا : الكتب المترجمة :

15- مسرحية "قصة سلم" للكاتب المسرحى الأسبانى أنطونيو بويرو باييخو، مجلة "أوراق" التى كان يصدرها المعهد الأسبانى – العربى للثقافة فى مدريد، العدد رقم 3 من صفحة 87 إلى 133. وقد أعيد نشر هذه الترجمة بمجلة "آفاق المسرح" هيئة قصور الثقافة، القاهرة سبتمبر 1999، ومثلتها فرقة كلية التجارة بجامعة عين شمس فى الموسم الثقافى للجامعات عام 2001/2000، وحصلت بها على درجة متقدمة.

16- رواية "من قتل موليرو؟ للكاتب البيروانى ماريو بارجس يوسا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، عام 1988.

17- كتاب "زمن الغيوم" للشاعر المفكر المكسيكى أو كتابيو باث "نوبل عام 1990" مختارات الحرية، القاهرة عام 1989.

18- رواية "عائلة باسكوال دوارتى" للروائى الأسبانى كاميلو خوسيه ثيلا "نوبل فى الأدب عام 1989" روايات الهلال، القاهرة، عام 1989.

19- كتاب "نظرية اللغة الأدبية" للناقد الأسبانى خوسيه ماريا بوثويلو إيبانكوس، مكتبة غريب بالقاهرة عام 1992.

20- "أثر الإسلام فى الأدب الأسبانى – من خوان رويث إلى خوان جويتيسولو" للدكتورة لوثى لوبيث – بارالت من جامعة بويرتوريكو، مركز الحضارة العربية، القاهرة، عام 2000، بالاشتراك مع آخرين.

21- إضافة إلى مراجعة ترجمة عدد كبير من الكتب المنشورة بالمجلس الأعلى للثقافة ضمن الألف كتاب الأولى فى المشروع القومى للترجمة.

الجوائز:

- حاصل على جائزة مؤسسة يمانى الثقافية التى تمنح باسم شاعر مكة محمد حسن فقى عن الإبداع فى نقد الشعر لعام **2007**م عن كتاب "تحديث الشعر العربى – تأصيل وتطبيق" الصادر عن هيئة قصور الثقافة فى مصر عام **2004**م.
- وحاصل على جائزة الوسطية للتميز عن مجمل أعماله عام **2009**م.

كتب صادرة حديثا:

- الواقعية السحرية فى الرواية العربية، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، عام **2009**م.
- نجيب محفوظ والرواية العالمية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، **2009**م.
- طبعة جديدة من كتاب "نقد الحداثة – دراسة فى تأصيل المصطلح" دار "هفن للترجمة والنشر والبرمجيات" القاهرة، **2010**م.
- كتاب "رؤى ومواقف"، دار العالم العربى، القاهرة، **2010**م.

الفهرس

تقديم بقلم الشاعر ماجد يوسف	7
مقدمة الطبعة الثانية	15
الفصل الأول: العودة	19
الفصل الثانى: البحث عن سكن	41
الفصل الثالث: الانتخابات	63
الفصل الرابع: الزعامات الوهمية	85
الفصل الخامس: الصحافة	107
الفصل السادس: الأزهر	129
الفصل السابع: الخصخصة	153
الفصل الثامن: الدكتاتورية	177
الفصل التاسع: نظام العقيد	203
الفصل العاشر: المثقفون والسلطة	229
الفصل الحادى عشر: العمادة والأمن	255
الفصل الثانى عشر: مجلس الشعب	285
الفصل الثالث عشر: التعليم والصحة	315
الفصل الرابع عشر: الجماعات الدينية	339

نبذة عن المؤلف وأعماله

dr_hamed48@hotmail.com